

عارف جڙوي

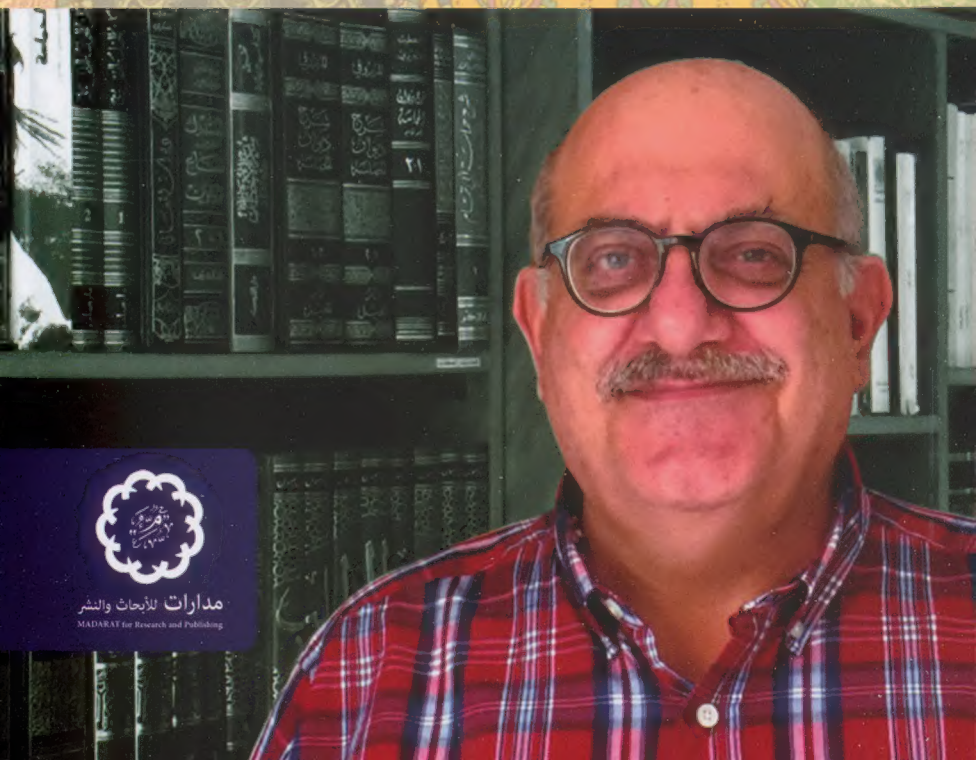


FIFA WORLD CUP
Qatar 2022

27.11.2022

هڪ ڪذا اڪٽب

@ketab_n



مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

عارف جڙاوي

هڪڙا اڪڻ

مدارات للابحاث والنشر

MADARAT for Research and Publishing



هَكَذَا
أَكْتُبُ

عارف حّآوي

- ولد في نابلس بفلسطين، ١٩٥٦، وفيها نشأ.
- متزوج وله ابتتان، وحفيدان. ويقيم في مدينة رام الله.
- عمل في التدريس المدرسي والجامعي، ثم عمل في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون.
- صدر له: سلسلة الزُبدة: أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء، (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).

هكذا أكتب

عارف حجاوي

جميع الحقوق محفوظة

عارف حجاوي ©٢٠٢٢


رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٢/١٧١٩٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-50-2

الطبعة الأولى: صفر ١٤٤٤هـ - سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢م

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢ 

info@madarat-rp.com 

facebook.com/Madaratrp 

جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

وَلَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَىٰ الثَّمَلِ الْبَيْتِ الْمَكِينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ

المحتويات

مقدمة ١١

تمهيد ١٣

عن الإعلام

البقرة العميا ٢١

الأسد إلى موسكو غداً ٢٣

إعلام مريض لشعوب مريضة ٢٥

البي بي سي قلم حبر جاف ٣٠

التصالح مع الجزيرة ٣٥

حياتي في التدريب الإعلامي ٣٩

الصحفي الشامل ٦١

المدير جمرة كبيرة ٧٠

الوثائقي قصة ٧٢

الوثائقي يتمتع ٧٥

إيجابيات الوثائقي وسلبياته ٧٩

دردشة إعلامية ٨٦

كيف «الحال» ؟ ٩٨

كيف تقرأ نشرة الأخبار في الإذاعة ؟ ١٠٠

١٠٣	كيف تنجح الإذاعة الرسمية؟
١١٧	ما بعد الصواميل
١٢٤	عن المذيعين
١٢٩	ورطة المذيع، وورطتنا معه

عن التعليم

١٣٩	التعليم الناجح في ثلاث حكايات
١٤٣	في صدره ١٢ لغة
١٤٥	الهبرة المحظوظة
١٤٧	تأملات في التعليم والمدارس
١٦٤	تعيش الكرتونة
١٦٦	$9 \times 8 = ?$
١٦٨	سأفتح جامعة.. قريباً
١٧١	سأفتح مدرسة.. قريباً
١٧٦	عن التعليم.. تنبيهات جاحظية
١٨٧	عن التعليم المدرسي
١٩١	فضيحتان في جامعتين
١٩٤	مدرستان أجنبيتان في نابلس

عن اللغة

١٩٩	قصة ذبابتين
٢٠٣	المُدرء والتقييم

٢٠٥	رسالة إلى مدقق لغوي.....
٢٠٧	ويل لكل همزة!.....
٢١٠	الكراكيب.....
٢١٢	الإرعاب النحوي.....
٢١٦	خزانة مليئة بالجثث.....
٢٢٠	الحرف العربي والانتقام من الماضي.....
٢٢٢	النحو: اتركوه ولا تصلحوه.....
٢٣٦	قل للزمان: ارجع يا زمان.....
٢٣٨	صرح مُعجمي كبير.....
٢٤٢	الألمان يتكلمون الألمانية.....
٢٤٦	اللغة الأم.. لغة المعرفة والوجدان.....
٢٤٩	الروائف والشناتر.....
٢٥١	اللغة والديناصور.....
٢٥٥	أبو همروش.....
٢٧٧	أنا وأنت واللغة الإنجليزية.....
٢٩٤	بلغم.....
٣١٣	توفل عربي.....

مقدمة

قصة هذا الكتاب عادية، لكنني رأيتُ عند القراء فضولاً بشأن أي كتاب يُقبلون عليه: يريدون أن يسمعوا قصته.

كنت أحسُّ بدافع إلى الكتابة المستفيضة، للتعبير عن آرائي، ولمجرد استعمال اللغة ومعايشتها. كنت أقتنص الساعات اقتناصاً لأسكب الكلام على صفحة الحاسوب، ثم يخبرني عدّاد الحروف أنني كتبتُ بضعة آلاف من الكلمات. فأرى أن هذا مما لا يصلح للنشر في موقع أو صحيفة، فأرمي ما كتبت في ملف في الحاسوب. وما زال هذا دأبي حتى امتلأ حاسوبي بأشياء تناسيتها. لقد اشتغلتُ بالتدريس والإعلام سنواتٍ كثيرةً كتبتُ وترجمتُ فيها أكثر من عشرين كتاباً بين صغير وكبير. ولكن الشغف بالكتابة كان أقوى من الاكتفاء بهذا.

تسلَّل صديقي محمد عبد العزيز الهجين إلى قلب حاسوبي، واستنسخ جُلَّ ما فيه من نصوص. وأخذ يحثني على نشرها في كتاب، فما لا يصلح للموقع الإلكتروني قد يصلح للكتاب. أردتُ أن أضُمَّ إلى هذه النصوص أشياءً من طرائف اللغة، لتسلية القارئ، وشاورتُ في ذلك الصديق عبد القدوس الهاشمي، فنهاني، وأيده محمد عبد العزيز. أراد أن يكون الكتاب قماشاً واحدة. قلت إن بعض النصوص مُسرف في الطول، فقالوا: لا بأس.

وجاء الكتاب طويلاً جداً، فرأينا -الناشر وأنا- أن نجعله كتابين. فهذا الذي بين يديك فيه الكثير عن اللغة والإعلام والتعليم، فسَمَّيته هكذا أكتب. والكتاب الآخر فيه أفكار وآراء تتجاوز اللغة فسَمَّيته هكذا أفكر.

وقد اعتنى المحرّر، في دار مدارات الزاهرة، بكلا الكتابين فصَحَّح أخطائي، واجتهد في أن ينفي عن الكتابين المفردات القديمة والعامية والمبتذلة، فكنت أوافقه مرة وأخالفه مرات. على أنه وقاني الزلل في مواضع كثيرة.

سيرى القارئ أن بعض الأفكار تتكرر، ولا أعتر عن ذلك. هي تتكرر في أثواب شتى، وبعض المتعة في الكتابة وفي القراءة يتجاوز الفكرة إلى طريقة التعبير عنها.

أشكر صديقيّ اللذين ساعداني بالرأي والجهد، وأعلم يقيناً أن كثيراً مما جاء في هذا الكتاب من أفكار ليس مما يؤيدانه، ولكنهما رُزقا من سعة الصدر ورحابة الأفق الكثير.

عارف مجاوي

١ يونيو/ حزيران ٢٠٢٢م

٢ ذو القعدة ١٤٤٣هـ

تمهيد

ما أفعله الآن: أعددتُ قهوتي وجلستُ كي أحرّر مقالاتي غير المنشورة، التي يُفترض أن يضمها الكتابُ الذي بين يديك وآخر صنوّ له. ولكن شغف الكتابة استولى عليّ. لا أريد أن أحرر شيئًا كتبته سابقًا، لا أريد أن أجتزّ، هذا أكل بائت، أريد أن أكل في هذا الصباح أكلاً طازجًا، أريد.. أن.. أكتب.

الآن فهمتُ ما الذي كان يعتريني خلال السنوات الثلاثين الماضية: كان يعتريني جنون الفكرة، أو شيطان العبث، أو شبقُ الحرف. كنت أجلس إلى حاسوبي (وقبل الحاسوب: إلى قلمي وأوراقِي) وأكتب بسرعة متلذذًا بالكتابة، مستمتعًا بتشكيل اللغة بين يدي، ثم ألقي كل ما أكتبه في الحاسوب غير مبالٍ بنشره.

وأنت تقرأ مقدمتي هذه، فالرجاء أن تضيف بين الحين والحين كلمة «جداً»، وكلمة «كثيراً»، وعبارة «ليذهبوا إلى الجحيم». لن تجد فيها هذه الكلمات، فسوف أكتبها، ثم أشطبها.

أذكر لك مواقف شهدتها ومواقف قرأت عنها: القومية العربية العظيمة الجلييلة الكبيرة، كلمة قومية صارت هي الصدق بعينه. حتى أم كلثوم تقول: «بقوميتي» في أغنياتها «على باب مصر تدقُّ الأكفُ». الذي ينتقد عبد الناصر يستحق قطع لسانه. يذهب عبد الناصر إلى حلب، فيمشي فلاح من ريف حلب ثلاثين كيلومترًا على قدميه لكي يراه (قصة واقعية). تجتمع الجماهير تحت تلك الشرفة ويقولون: «هايل هتلر».

ثمانون مليون ألماني وقعوا تحت سحر هتلر؛ هو النبي، هو الحق المطلق. بدأ هتلر بقمع كل معارضة، وفرّ من البلاد من فرّ من الأحرار. ولكن بقي في ألمانيا ملايين المثقفين والعلماء الكبار، وتلوّث الجو بالدوغما، وكلهم آمن بهتلر.. حتى الخراب.

وقبل خمسمئة سنة أقام كالشن في جنيف بسويسرا جمهورية رعب، وأحرق المعارضين على الخازوق؛ لقد امتلك الحق البروتستانتى المطلق. وفي روما كان هناك من يملك الحق الكاثوليكي المطلق.. قالت المحكمة لغاليليو: «الأرض لا تدور».. وحكموا عليه بالإقامة الجبرية حتى الموت.

الحق المطلق كان في قلب صديقي الماركسي الذي سألته يوماً ببراءة خبيثة: «طيب يا صاحبي، فأين أخطأ كارل ماركس؟» دارت عيناه في محجريهما، ولم يفهم السؤال، ثم قال: «ماذا تقول يا هذا؟ ماركس يخطئ!» لا يا صاحبي هذه ليست الاشتراكية الطوباوية، إنها -واسمع جيداً- «الاشتراكية العلمية» المدعومة بالديالكتيك، هل فهمت؟ «العلمية».

أها، حق مطلق مرة أخرى.

الأسد إلى الأبد. ورئيس كوريا الشمالية قبل السابق «الجد» يدعى عندهم اليوم الرئيس الأبدي، هذا وعظامه أصبحت مكاحل، لكنهم يكتحلون بها إلى اليوم.

شهدت في زماني تقديس بعض الفلسطينيين للماركسية، وشهدت انهيار الشيوعية.

المعتزلة في زمنهم امتلكوا الحقَّ المطلق، وقتلوا عليه بعض الفقهاء وعذبوا آخرين، لكن بغداد ظلت قلب المذهب الحنبلي. وامتلك الحنابلة الحقَّ المطلق، وتراشقوا مع المعتزلة بالنصوص والتأويلات. وغزانا الصليبيون حاملين في صدورهم الحقَّ المطلق، وكان في صدورنا حقُّ مطلقٌ مغاير. كفرونا وكفروناهم.

ثم تركت أوروبا التكفير واستعاضت عنه بالاستعمار؛ فخلقوا حقًّا مطلقًا جديدًا هو «عبء الإنسان الأبيض». فالإنسان الأبيض هو المتحضر، ومن واجبه «الإنساني» تحضير السُّمر والسُّود... ولا بأس أن يقوم على الهامش بنهب ثروات بلادهم.

داروين كان رجلًا شكَّاكًا، وتركه إلى ابن خؤولته فرانسيس غولتون. هذا عالم جليل له ثلاثمئة وثلاثون كتابًا وورقة بحثية. عالم حقيقي، لكنه ابتدع النظرية اليوجينية «العلمية» الفاسدة، وخلق «حقيقة مطلقة» انهارت بعد سنوات، وبعد أن سببت أذى.

اللاديني العربي يردُّ على المسلم السلفي ذي الحقيقة المطلقة بحقيقة مطلقة من عنده. ينسى كل العوامل الاجتماعية والاقتصادية ويجعل الدين أساس كل الشرور. لا يغفر لللادينيين طفولتهم الفكرية لأنها تؤدي إلى دوغما (بعض المهزّجين اللادينيين يؤيد دولة مجرمة محتلة؛ لسبب وحيد هو أن المسلمين يعادونها).

والسلفي يتخرج في كلية الشريعة، ثم يعمل ورقة ماجستير، ثم يأخذُ يتفنَّن في الإفتاء، ويجتمع حوله السفهاء. لديه ترسانة من الأسلحة:

التكفير، والغضب لله ولرسوله، واغتيال سمعة من يسير غير سيرته حتى لو كان من الأتقياء.

وقعنا في قبضة القومية زمنًا، وفي قبضة الماركسية زمنًا، واليوم نحن واقعون في قبضة السلفية. ثمة حربٌ ناعمةٌ تدور رحاها اليوم بين الأنظمة الترقيعية وبين السلفية. فالأنظمة الحاكمة يهّمها السيطرةُ وجرُّ المنافع لمحاسبيها. لا يهّمها «الحقُّ المطلق»، فقطاعُ الطرق لا يهّمهم الفكر ولا التفكير.. هم قطاعُ طرق. ولكي يضمّنوا السيطرة على الناس، يداهنون الفكر السلفي قليلًا، ويдахنون الفكر المهادن قليلًا، ويغضون الطرف عن الفكر الفلسفي الذي لا يتعرض لمصالحهم. وقد ينجح نظامٌ من الأنظمة في جعل زعيمه معبود الجماهير، وقد لا ينجح. المهم: النظام وبقاؤه. والسلفيون من جانبهم يستفيدون من تساهل الأنظمة معهم، ويشنون حربًا على المعتدلين وعلى الفكر والأدب. فإن خرج السلفي خارج الوطن العربي فهو يبرز أنيابه التكفيرية.

الحرب بين الأنظمة والسلفيين حربٌ مداهنة، وضحيتها أصحاب الفكر الحرّ؛ فالأنظمة تكرههم والسلفيون يكرهونهم. فإن كانوا أصحاب فكر سياسي فلهم عند الأنظمة السجن، وإن كانوا من أهل التفلسف فالأنظمة تكون سعيدة بأن يشغل السلفيون أسنانهم بنهشهم.

في هذا الكتاب الذي بين يديك كلام كثير عن المتشددین اللغويين. هؤلاء أيضًا يملكون حقيقة مطلقة.

قد آن أوان البدء بتحرير الكتاب. سأحذف بعض العبارات خوفًا من السلفيين الذي سيبدرون إلى تبديعي وتفسiqي، وربما تكفيري. أخاف

منهم فعلاً. هم نادراً ما يدفعون سفيهاً من سفهائهم إلى قتل المخالف، ولكنهم، وبكل سهولة، يغتالون سُمعته، ويطلقون عليه كلابهم المسعورة. وأنا لا أحتمي بنظام حُكم، ولا أنتسب إلى جماعة سياسية، ولا أقبل أن يناصرني أشخاصٌ يملكون أي حقٍّ مطلق. أنا فرد، وقررت باكراً أن أعيش فرداً. تهمني عائلتي، وبلدي فلسطين، والوطن العربي بكل ما فيه من أعراق وأديان، ويهمني المسلمون الذين أنتمي إليهم. أحبُّ لكل هؤلاء أن يكونوا أفضل. ولكن هذه الهموم لا تجعلني أكذب على نفسي: لا تجعلني أقبل تمجيد حقبة غير مجيدة من التاريخ العربي أو الإسلامي، ولا حتى تمجيد اللغة التي أحبها. أحب اللغة العربية وأعتز بكتابها العظيم: القرآن، ولكنني لا أنسى أن للآخرين لغاتهم وكتبهم المقدسة. أخيراً: ما ستراه هنا لا يحتوي على كل كتاباتي السياسية والفكرية. أكثرها سيبقى حبيس حاسوبِي، إلى حين.

فإلى تنقيح المقالات. قليل منها نُشر في مواقع إلكترونية، أو جرائد، ولكن أيّا منها لم يُنشر في كتاب.

عن الإعلام

البقرة العميا

كنّا وفدًا من الصحفيين في ضيافة وزير إعلام عقدت بلاده لتوها معاهدةً مع إسرائيل. وأخذ يسرد علينا محاسن المعاهدة الطرية، ويستعرض الملحق الذي يؤكد على حقوق الشعب الفلسطيني.

انشغل كل واحد منا بما هو خير من كلام السيد الوزير، فواحد قعد يرسم دوائر متداخلة، وواحد صنع سفينة من رقعة برنامج الزيارة، وثالث نام، ورابع قعد يسمع الكلام. وهذا الرابع كان مراسلاً بدوي الأصل. قعد يسمع ومرفقاه إلى المنضدة، ويداه تحملان رأسه كما يحمل لاعب كرة السلة الكرة يريد تسجيل هدف.

بعد أن أنهى الوزير كلامه رمى زميلنا البدوي رأسه إلى الأعلى، ورفع يده. وقال للوزير: «تنطحني بقرة عميا إن كنت فهمت كلمة واحدة مما قلت».

وخيم الوجوم على القاعة: تنحّج زميل، محاولاً العثور على كلمة يرقع بها الفتق، وتنحّج ثان، وأبحرت سفينة الثالث إلى سلّة الزبالة. وأسرع الوزير فشكرنا وسرّحنا بإحسان.

هناك عدة دول عربية تقيم علاقات مع إسرائيل. لكل بلد حريته في أن يعادي من يعادي، ويصالح من يصالح. فإن ظننتم موقفني هذا عبثًا أو عدميًا فاسمعوا قصة حبة البازلاء.

حبة بازلاء قفزت من المغرفة ونزلت تحت الطاولة. وأهملتها ربة البيت. كانت البازلاء حارة ساخنة، واستقرت في الوسط وحولها أقدام الآكلين. بدأت تبرد، وبدأت تدب على سطحها الحياة. بكتيريا صغيرة صارت تنمو عليها وتتوالد. بكتيريا عصوية الشكل طويلة، وبكتيريا مكورة، وفيروسات صغيرة. وكل مجموعة من المخلوقات تنشئ لها مستعمرة على حبة البازلاء. البكتيريا العصوية تأكل الفيروسات، والفيروسات تلحس من المرق العالق بحبة البازلاء. ملايين المخلوقات على حبة البازلاء. وفي كل دقيقة تموت مخلوقات وتولد أخرى، والبازلاء تبرد وتصبح أكثر ملاءمة لمخلوقات جديدة. ومخلوقات لا يناسبها الجو فتفنى. كل ذلك يحدث والأكلون يصخبون ويتحدثون وأرجلهم تتحرك، تقترب من البازلاء وتبتعد عنها. والمخلوقات البكتيرية صارت تدرك أن هناك في البعيد البعيد بازلاء أخرى: بعضها ساخن يغلي وبعضها ينسحق تحت أضراس الماضغين. وبعض أفراد البكتيريا العصوية ظنوا أنهم قادرون على تحريك البازلاء والنجاة بها من أخطار البرودة أو الانسحاق تحت الأقدام.

وبعد ساعة قام الأكليون، وأرجأت ربة البيت التنظيف. لكنها في الصباح التالي جاءت بالمكنسة. وكنت من تحت الطاولة حبة بازلاء جافة مجمدة ميتة.

تنطحني بقرة عميا إن كنت أظن أن كرتنا الأرضية ومن عليها أحسن حالا.

الأسد إلى موسكو غدًا

هذا مقال عني، فأما العنوان فمصيدة.

كنت في التاسعة عشرة. أنهيت السنة الجامعية الأولى، ثم تركت الجامعة لكي أتعلم.

لا أظنك قرأت الجملة الأخيرة جيدًا. أقول لك: «تركت الجامعة لكي أتعلم». فأنا لا أومن بأن الجامعة تعلم النبي آدم، بل هو يعلم نفسه.

ذهبت إلى القدس، وقرعت باب جريدة الشعب. فنظر إليَّ صاحب الجريدة من فوق إلى تحت، مثلما يفعلون في السينما. وقال لأحدهم: «خذه للأستاذ فؤاد رزق». قال لي فؤاد رزق: «ماذا تريد أن تعمل؟» قلت: «محررًا».

ما أوقع المراهق!

أقعدني الرجل إلى منضدة بقره، ورمى إليَّ برزمة أوراق: بعضها من الوكالات، وبعضها مخطوط منقول عن الراديو. قرأتها بسرعة وصنعت منها خبرًا، وتأنقت في عنوانه: «الرئيس السوري حافظ الأسد يتوجه إلى موسكو غدًا».

أصلح لي الخبر، ثم شطب العنوان بخط مستقيم، ومن الشمال لليمين. كأنه مر عليه بقلمه قارئًا، فعندما وصل إلى نهايته عاد عليه بالقلم شاطبًا ماحقًا. هل جربتَ مرورَ السكين على عنقك؟ هل جربت أن يشطب أحد كلامك ومن الشمال لليمين؟

ثم إنه كتب فوق عنواني المشطوب: «الأسد إلى موسكو غداً».
وكان درساً.

لقد دخلت الجامعة وهربت منها ستّ مرات، في ثلاث جامعات، حتى حصلت على البكالوريوس. وعندما نلت الشهادة ثنيتها أربع طاقات ووضعتها في جيبتي الخلفي وذهبت لتصديقها. وفي مكتب رئيس الجامعة أخرجت الشهادة من جيبتي، فرأني المسؤولة فأهوت بيدها على صدرها وشهقت وقالت: «سَخَّمت الشهادة». وهذه السيدة، سهام عطا الله، صديقة عزيزة الآن. فإن كانت تذكر الموقف فأنا أقول لها: ما نويت إهانة الشهادة ولا التباهي بعدم الاكتراث بها. لقد طويته ببراءة طفل وأخرجتها أمامك ببراءة طفل.

أكتب كلماتي هذه في مصر، فأنا أعمل الآن في كتابة نصوص تلفزيونية لبرنامج اسمه «مقاليد الحكم» بالتعاون مع شركة مصرية. قبل يومين اجتمعت في مقر الشركة بالمخرج، وعمره نصف عمري، وبثلاثة آخرين. وبعد جلسة دامت ثلاث ساعات، قال المخرج: «النصوص مكلكة». قالها بحرارة الشباب، وقبلتها بهدوء الشيوخ.

طويت أوراقتي وذهبت إلى غرفتي فاعتكفت نهاراً على نصوصي المكلكة فأعدت كتابتها. ثم رضي المخرج.

ما أصعب أن يشطب لي أحد كلامي، وما أحلى أن أظل تلميذاً.

إعلام مريض لشعوب مريضة

وقعت هذه الحادثة قبل مئة وخمسين سنة: بعثت الجريدة اللندنية مراسلها إلى ليفربول بإنجلترا لتسقط الأخبار من ركاب السفن القادمة من العالم الجديد. رست سفينة قادمة من كندا، وبدأ الركاب ينزلون ويتجهون إلى عربات الخيل. واختلط بهم جمعٌ من المراسلين. وحادثوهم واستخبروا منهم. وفي المساء جلس المراسلون في حانة تعودوا الجلوس فيها، وانهمك كلٌ منهم في كتابة خبر أو ريبورتاج لجريدته اللندنية. وأما صاحبنا المراسل فقعد محزوناً لأنه لم يعثر على شيء يستحق الذكر. غير أنه في النهاية أمسك بقلمه وأخذ يكتب تقريراً من خياله.

كتب قصة السيدة آدمز التي «زعم» أنه التقى بها على رصيف الميناء بصحبة زوجها. لقد عملت هذه السيدة في تنظيف البيوت في إنجلترا زمناً، وزوجها في كندا يسعى في رزقه. وبعد أن انقطعت عنها رسائله، أبحرت بنفسها إلى كندا وبحث عنه أشهراً، حتى وجدته ملقى على الرصيف مشرداً، فانطلقت به إلى حياة جديدة وأخذها يعملان بجهد حتى جمعاً ثروة كبيرة. وها هي السيدة آدمز تعود مع زوجها اليوم إلى الوطن للزيارة. وسوف يعودان إلى كندا بعد أسبوعين على متن الباخرة إكس.

هذا الريبورتاج المخلوق أعجب رئيس التحرير فنشره على الصفحة الأولى، وسرّ المراسل بذلك.

قال له رئيس التحرير: «لقد أبرقتُ إلى مراسلنا في كندا أن ينتظر عودة السفينة؛ ليجري مقابلة مع الزوجين ويسألهما عن فترة الإجازة التي قضياها في إنجلترا». وسُقط في يد المراسل الكذاب، وانتظر المصيبة يوماً بعد يوم.

وبعد بضعة أسابيع إذا الصحيفة تنشر تحقيقاً مطوَّلاً بقلم مراسلها في كندا، وفيه مقابلة شائقة مع الزوجين المختلِّقين آدمز.

وهكذا كذب المراسل في إنجلترا فاخترع الزوجين آدمز، وكذب المراسل في كندا عندما لم يعثر على الزوجين آدمز فاخترعهما مرة أخرى.

صرنا نتمنى أن يكون في صحافتنا كذب؛ لأنه أهون بكثير من هذه الأخبار المملة التي تنشرها. صحافتنا لم تستطع أن تصبح صحافة صفراء تنشر الأكاذيب والتهاويل، ولم تستطع أن تصبح صحافة رصينة تنشر عميق التحليلات. وبقيت في أحسن حالاتها ناقلة ببغائية عن الوكالات. وفي أسوأ حالاتها ناشرة مقالات كأنها أنشرت من قبور الخمسينيات. وفيما بين السيئ والأسوأ قد يتسلل خبر محلي ليس فيه رائحة الخبر.

وجاء الفيسبوك فعوّضنا عما افتقدناه من التفاهة. وصار المتعلّم قبل الجاهل يقول لك أشياء عجيبة، فإن شككت في كلامه قال: «والله جاءني على الفيسبوك».

محتمل أن تعيش الصحافة الورقية بضعة عقود أخرى، ليس فقط بسببنا نحن من تعودنا على الإمساك بالجريدة الورق، ولكن لأن تجار الورق وزُراع الغابات سيخترعون أشياء تديم الجريدة بعض الدوام،

وثمة سبب آخر هو عجز الأجهزة الحديثة -حتى الآن- عن مخاطبة القصور التجريدي عند الإنسان، فهذا الكائن ما زال يريد أن يمسك الأشياء بيده.

الصحافة الورقية ليست وسيلة توعية. إن ماتت غداً فلن نذرف عليها دمعة. وفيها علةٌ أخرى غير علة النقل الببغائي عن الوكالات، وعلة نشر المقالات السطحية: هي علة الثروة والعدول عما هو لباب إلى ما هو قشور.

بعض صحف العالم حلقت في سماء الحرية، وبعضها سقط في مستنقع التفاهة، وصحفنا في بلاد العرب إذا خرجت من عباءة السلطان أحست البرد فتقفعت أصابعها، فالتمست فرجة في هذه العباءة كي تدخل من جديد وتستدفي.

صحفٌ خير ما فيها إعلاناتها، ما قولك فيها؟

ولئن تكن الإعلانات خير ما في تلك الصحف فإنها شر مستطير عندما يصبح المُعلن متحكماً. يرسل إلى الجريدة الإعلان وثمنه، ومعهما إعلان آخر يريدك أن تطبعه وكأنه خير.

يقولون الإعلام في بلدنا مريض، ونقول: البلد مريضة.

بقي في الجعبة سهمان: أحدهما نُصَوِّبُهُ إلى الحكومة، والآخر إلى الشعب.

إلى الحكومة: الصحافة حرية أولاً، وصناعة ثانياً. هل نستطيع أن ننشر الأحكام القضائية الصادرة بحق الفاسدين؟ ونجيب نحن: وهل

هناك أصلاً أحكام قضائية بحقهم! هناك ضبطينة فقط. وهل الإعلام الحكومي ناجح؟ وإذا لم يكن ناجحاً فلماذا يستمر؟ هو فاشل حتى في الترويج للحكومة، هو أضحوكة. والإعلام الخاص: هل يمكن أن يستقيم بدون حرية؟ الجواب: لا.

والى الشعب: أيها الشعب العزيز، الزيادة في عدد السكان في الدنمارك ثلث بالمتة. والزيادة في الأردن أكثر من ثلاثة بالمتة. بالعربي الفصيح الأردنيون أكثر تزايداً من الدنماركيين بعشرة أضعاف. نحن نتزايد بعشرة أضعاف وتيرة تزايدهم. فهل ثرواتنا تتزايد بنفس النسبة؟ هل صناعتنا وزراعتنا تنمو سنوياً بعشرة أضعاف نمو الصناعة والزراعة في أوروبا؟ أم أننا نستورد اللورباك والمرسيدس والعطور والسجائر وكل شيء منهم؟

هذه الشعوب البارعة في الإنجاب بارعة أيضاً في الشكوى وفي شتم الاستعمار. الفائض البشري عندنا يطحن بعضه بعضاً؛ ولا أحد يجرؤ على القول: خذوا حبوب منع الزفت المغلي.

أضحكني عربي يعيش في ألمانيا. قال لي: يذهب الواحد منهم بلحيته الكثة كي يقبض مخصصات الأطفال من مكتب البريد، فعنده ثمانية أطفال، ثم إذا سجل عليه الشرطي مخالفة سيرٍ راح يشتم الصليبيين.

نفكر بطريقة عجيبة. نخلط الماضي بالحاضر خلطاً مضحكاً. ولعلمك فالأحقاد بين الإنجليز والفرنسيين قديمة، وليس بين الشعبين محبة حتى اليوم. لكنهم لا يستحضرون التاريخ في كل لحظة، بل يعيشون ويتعاونون. وهل الغرب يحبنا؟ بالطبع لا. ونحن لا نحبه. والغرب سبب قليل من

مشاكلنا، ونحن سبب قليل من مشاكله. ولكن مشاكلنا العويصة حقًا هي من صنع أيدينا. والحل عندنا وليس عنده. وبالتأكيد الحل لا يكون بالأحزمة الناسفة.

العداوة بين الصين واليابان ليست ابنة اليوم، وهي مستمرة على نار باردة. ولكن البلدين كليهما يطور نفسه ولا يسترجع التاريخ العتيق في كل لحظة.

وللصين مع الاستعمار الأوروبي قصة أفظع من قصتنا معه. يكفي أن بريطانيا شنت حربين على الصين؛ لأن الصين منعت استيراد الأفيون الذي يُصدّره التجار الإنجليز من مستعمرتهم في الهند.

للشعب العربي أقول: المشكلة ليست في الإعلام، المشكلة فيك.

البي بي سي قلم حبر جاف

عندما التحقْتُ بالبي بي سي وجدت «القسم العربي» يحتفل بعيد ميلاده الخمسين. وغادرت البي بي سي وهو يحتفل بعيد ميلاده الستين. واليوم يدعوني القسم العربي للكتابة وهو يحتفل بعيد ميلاده الثمانين.

أنا سعيد. أولاً لأنني ما زلت على قيد الحياة. وثانياً لأنني أكتب من الخارج بعيداً عن صراع الديكة. ففي كل مؤسسة يعيش العاقل الأمين نصف ساعات الدوام عاملاً مخلصاً، والنصف الآخر محارباً، فإن كان أحد يعرف مؤسسة ليس فيها صراعٌ فليدلي عليهما كي أقبل جدرانها مثلما يقبل الحجيجُ الحجر الأسود.

قد عشتُ حياتي «الببيسيّة» عاملاً محارباً كما ينبغي، وربحتُ علماً كثيراً. والآن إلى البداية.

قَدِمْتُ إلى لندن شاباً في أوائل الثلاثين، وخرطوني (هذه من «انخرط») في دورة يسمونها «دورة القادمين الجدد». جاءنا فيها مدربون من أقسام شتى، وكلهم ينتقد البي بي سي بسخرية، مبطنة حيناً ومكشوفة حيناً، لكن بغير مرارة. شيء لا يحسنه في درب التبانة أحد كما يحسنه الإنجليز. أخذت جرعة من أطراح تمجيد الذات، ومن القدرة على نقد الذات. وكان في هذا درس.

بعد شهرين حملونا -نحن الأجانب الجدد- إلى إيفشام؛ وهذه قرية في وسط بريطانيا للبي بي سي فيها مركز هندسي. وقيل لنا: «هيا عيشوا

حياةً بريطانيةً». المائدة عجب: أمامي من الملاحق والشوك والسكاكين، والأطباق المختلفة قُطِّرا وشكَّلًا، ما يمكن أن أفتح به متجرًا للأدوات المنزلية، وجاء طعام من هذا المسلوق الذي يتناوله نزلاء المستشفيات في بلدي فلسطين. عرفنا هذا الجانب من الحياة البريطانية. وكان ضيفُ المائدة نائبًا في البرلمان.

انتهينا من الطعام -وأسمِّيه طعامًا للافتقار إلى كلمة أخرى- وقبل أن يلقي النائب خطبته ذهبت إلى المستراح لقضاء الحاجة، وصادف أن وجدت هناك زميلًا إسرائيليًّا؟ قلت له ونحن بائِلان: «المشكلة أنني لم أكتشف بعد لماذا يدفع البريطانيون كل هذا المال كي يثرثروا بثلاث وأربعين لغة؟ لماذا؟»

لم يُتَحَ لصديقي أن يجيب، فقد خرج من حجرة في المستراح النائب الضيف نفسه. لقد سمعني. يا للإحراج!

وعدنا إلى المائدة، وقد أُمست خوانًا أزيلت من عليه الأطباق وبقيت الكؤوس. وقرعت مديرة الجلسة جانب كأسها تلتمس الإنصات، وقدمت حضرة النائب. وتكلم، وذكر أشياء عن الديمقراطية، ولا أدري ماذا. لكن فلسطينيًّا كَوَّته بريطانيا بوعده بلفور لا يهمه هذا الكلام. لم يتطرق النائب إلى تعليقي الذي لا بد أنه سمعه في المستراح. فكان لا بد من تذكيره به. وسألته أمام الجمع السؤال عينه لم أخرم منه كلمة. وأجاب بكلام عن الديمقراطية لم يقنعني.

وتذكرت عمي معاوية رحمه الله.. فجاءني الجواب من عقلي.

كان عمي مديرًا للدعاية في الخطوط الجوية الكويتية. وكان يتحفنا ببعض اللطائف، ومنها أقلام حبر جاف جميلة المنظر.. وتكتب. وفي

زمن طفولتي - ذلك السحيق - كانت أقلام الحبر الجاف التي نعرفها تكتب حرفاً وتحزن حرفاً، فتأتي الكلمة مقطّعة تقطيعاً دميماً. لكن قلم الخطوط الجوية الكويتية، الذي يحمل شعار المؤسسة، كان يسير على الورقة سيراً جميلاً، وينزّ فوقها من دم قلبه بانتظام مدهش. قلم جيد... إذن لا بد من أن المؤسسة التي أهدته إلينا مؤسسة جيدة!

البي بي سي الموجهة إلى العالم بلغاته المختلفة هي قلم الحبر الذي تُهديه بريطانيا إلى الشعوب. أما البي بي سي الموجهة إلى بريطانيا - ويدلّعها موظفوها بـ «بيب» - فهي تخدم البريطانيين، ولا شأن لنا بها هنا. وأما البي بي سي الموجهة إلى الخارج - وكنا ندلّعها بـ «هاب»، الأحرف الأولى من «هيئة الإذاعة البريطانية» - فكانت قلم حبر جاف. هي هدية دعائية لبريطانيا. وهي هدية جيدة لكي نعرف أن بريطانيا جيدة. بهذا الفهم عملت في «هاب» عشر سنين راجحة. وازدادت معرفة بها عندما وعيت قولهم إنها تبث «وفق المصلحة الوطنية»، «إن ذه ناشنال إنترست» القيد الوحيد: ألا تُلحق المؤسسة ضرراً ببريطانيا. ولكن، من ذا يستطيع أن يفسر «المصلحة الوطنية»؟ أهل البي بي سي أقدرُ الناس على تفسيرها تفسيراً واسعاً. وأسوق على هذا مثلاً:

وضعت حرب الخليج أوزارها، وأخرج العراقيون من الكويت. وقامت سوق السلاح على ساقين من حديد. وبدأ الأمريكيون والإنجليز يبيعون الحديد لدول الخليج. وقع بيدي تقرير مستند إلى مجلة «جين الدفاعية» يقارن بين مواصفات الدبابة الأمريكية (لعلها شيرمان) والدبابة البريطانية (لعلها تشالنجر). وكانت المقارنة في صالح الدبابة الأمريكية بشكل صارخ.

كنت مُنتج برنامج إخباري، وكان في مقدوري أن أضْمَن التقرير في برنامجي أو أن أتجاهله. وقررت أن أضْمَنه. كان في نوبة الترجمة يومها المرحوم نجاة فرج، وكانت ترجمة التقرير من نصيبه، فصرخ بي: «يا رجل، هذا التقرير سيأتيك بالصداع!» وقررت أن أفسر «المصلحة الوطنية» التفسير الواسع. وأذعنا التقرير. ولم أصب بصداع.

ثمة مثال آخر أسطع.

عندما كان العراق يحتل الكويت، كان رئيس البرلمان الكويتي أحمد الخطيب موجودًا في لندن للاصطياف، وأجريت معه مقابلة انتقد فيها الحكومة الكويتية وانتقد الأمير. كانت هذه المقابلة خليقة فعلاً أن تسبب لي صداعاً، فقد كانت بريطانيا في ذلك الوقت ضمن التحالف الدولي الذي شنَّ حرباً على العراق لتحرير الكويت. لكنني بثتها. وأعترف ههنا بخطأ تحريري، غير أنني لا أندم عليه: كان يجب عليّ أن أستشير سامي حداد مدير البرامج الإخبارية، ولم أفعل. كان هذا من جانبي نزقاً، وأظن أنني لو كنت استشرته لقرر أن يتجنب الصداع. ومَرَّت على الأمر سنة أو سنتان. وللقصة بقية.

كنت في دورة تدريبية وكان يشرف عليها صحفي تقاعد حديثاً من البي بي سي. رأي من القسم العربي فقال لي: «مرحى! أنتم الذين سببتم كل هذا الصداع بسبب المقابلة مع رئيس البرلمان الكويتي!» لم يعرف أنني كنت شخصياً المسؤول. وأردف الرجل: «لقد تُرجمت المقابلة إلى الإنجليزية وجرت دراستها على أعلى المستويات؛ لأن وزارة الخارجية نقلت للبي بي سي اعتراضها، كما اعترض الكويتيون على المقابلة». المهم، تقرر في النهاية أن المقابلة ليس فيها مشكلة تحريرية.

كنت سعيدًا بأن المسؤولين في البي بي سي تولوا الرد على الجهات الخارجية بأنفسهم دون الرجوع إليّ. لم يعلم أحد في القسم العربي ما سببته تلك المقابلة من صدام لعلية القوم. تلك البي بي سي في أحسن حالاتها.

في البي بي سي تعلمت كثيرًا، وأخطأت كثيرًا. وكان صدر البي بي سي أوسع من صحراء الربع الخالي.

سعيدٌ أنني حضرت ذيل العصر الذهبي للراديو. والقسم العربي الآن ييث كما ظل ييث من ثمانين سنة، وأضيف إليه التلفزيون، والموقع الإلكتروني.

لتكن البي بي سي قلم حبر جاف. لكنه من أفضل الأقلام.

التصالح مع الجزيرة

عملت في البي بي سي عشر سنوات، كنتُ في النصف الثاني منها مدير برامج، وعملتُ في الجزيرة عشر سنوات كنت في النصف الأول منها مدير برامج. ودخلت الآن سستي الحادية عشرة في الجزيرة، ولستُ هنا في معرض المقارنة. هما كالباذنجان والكوسا.

استطرد: هذا عن زميلي في البي بي سي ثم في الجزيرة، حسين صالح. كنت أجوب معه سوق الخضار بالدوحة يومًا وهو ينظر بعين شَبَقَةٍ إلى الباذنجان، ثم يهجم عليه ويملأ الكيس بعد الكيس، ويقول: عجيب يا أخي أمر الناس، يمرون بالباذنجان ولا يتوقفون!

حديثي هنا عن الجزيرة، وقد شارفت على عيدها العشرين. طلب مني مسؤول العلاقات العامة أن أكتب مقالًا لكتاب احتفالي يصدر بهذه المناسبة، واعتذرتُ قائلًا: «إنني لا أكتب إلا ما في رأسي، ولا أريد محررًا يغيّر لي كلامي». فقبل اعتذاري وأناط بي مهمة أخرى هي تحرير الكتاب كله، فهذه عجيبة. والأعجب منها أنني قبلت. بدأت أقرأ مقالات الزملاء، ومع كل مقال يرتفع مؤشر الندم. لكن، هي كلمة قلتها.

نجلس في المكتب بالجزيرة بين الفينة والفينة نجلد الذات. وأجلد الذات مع الجالدين، لا أوفر هذه المؤسسة الإعلامية من قوارص النقد، وأنفُسَ في التنقير عن العيب الصغير والكبير. وفي أكثر من مناسبة كنت أغتسم لحظة سكوت في المجلس فأثنني إلى المحاسن: من أسرعهن

خبِرًا؟ الجزيرة. وأصدقهن خبِرًا؟ الجزيرة. والجزيرة فتحت لفلسطين بيتًا، وبثت عنها عشرات الوثائقيات المميزة. وأية قناة هي الأقوى في تغطية الخبر العالمي، والتعمق في شؤون بلدان الفقر؟ الجزيرة الإنجليزية. وأية قناة سلكت بين شعوب البلقان ذوات الإحْن طريقًا وسطًا أكسبها في البلقان احترام الجميع؟ الجزيرة-بلقان فقط.

كانت مشكلتي الشخصية مع الجزيرة ازدواج الانتماء: العربي والإسلامي. ولئن لم أكن قومي النزعة ولا إسلامي النزعة بالمعنى السياسي، فإنني كنت دائمًا أجد في هذا الانتماء المزدوج مشكلة. هي في الواقع مشكلتي أنا.

أدخلني في صومعة مراجعة قاسية كتابان قرأتها مؤخرًا؛ أول الكتابين صدر قبل أشهر، وهو عن التاريخ التجاري للعالم. المؤلف بيتر فرانكوبان الأستاذ في أكسفورد. وفي مائتي صفحة، هي ثلث الكتاب، يروي المؤلف تاريخ الإسلام... فإذا أنت أمام بحر من السماحة وقبول الآخر يتوسط الدنيا ويتوسط تاريخها. قبله وحشية الرومان والفرس، وبعده وحشية الصليبيين والتتار وهمجية أوروبا. ومن قال لكم، والفكرة للمؤلف، إن الغرب الأوروبي وريث الحضارة اليونانية العظيمة؟ كلام فارغ. فشعوب أوروبا قبل النهضة كانت هملاً همجاً، ومع النهضة استعارت الثوب الإغريقي قشرة رقيقة، وأخذ شعراؤها يحشدون أساطير الإغريق في قصائدهم، وراح معماروها يبنون على طريقة الإغريق. ومن طريق العربية أخذوا علمًا كثيرًا، ودرسوا كثيرًا من نصوص الإغريق. يسمون عصر النهضة بلغاتهم «الري-نايسنس» أي إعادة الولادة. والحقُّ أنه عصرُ النايسنس فقط، أي الولادة. فأوروبا نهضت تجاريًا بالكشوفات

الجغرافية ولم تنهض أخلاقياً وحضارياً، وظلت همجية حتى أول أمس... وذلك عندما تفوقت عليها أمة أكثر منها همجية هي الولايات المتحدة، التي ما زالت في أوج همجيتها. والفكرة الأخيرة للكاتب الثاني جورج فريدمان في كتابه السنوات المئة المقبلة الصادر عام ٢٠٠٩، ويضم تنبؤاته للقرن الحادي والعشرين.

التصنيف بحسب الدين ليس اختيارك. هو مفروض عليك. أنت مصنف كأمة إسلامية لأن الآخرين يصنفونك كذلك. من هتنتغتون فصاعداً أخذ الغرب بشكل متزايد يحشر المسلمين جميعاً في بوتقة حضارية سياسية.

هذا يذكرني بقصة شاب سجنته إسرائيل في السبعينيات.

بعد انتهاء التحقيق تم ترحيل صاحبنا من الزنزانة إلى القاوش، الغرفة الكبيرة. ورُحِبَ به الزملاء المعتقلون. وجاء موعد شرب الشاي. قيل له: «مع من ستشرب شايك، مع الجبهة الشعبية أم مع فتح؟» فقال لهم صاحبنا: «أنا لا كذا ولا كذا، أنا رجل وطني فقط». فهُتُّوا جميعاً في وجهه وقالوا له: «يا بارد، قل بسرعة مع من ستشرب شايك؟» وساءلوه قليلاً، وسرعان ما صُفِّوه.

العبرة: لا بد لك من معسكر، ولست وحدك من يختار معسكرك.

وقد تصالحْتُ مع الاختيار المزدوج للجزيرة: الانتماء العربي - الإسلامي. ومثل هذا الانتماء يفتح صدره واسعاً لكل صاحب دين وكل صاحب قومية. فالكردي الذي رأى نفسه قد ترعرع في الثقافة العربية عربي كردي إسلامي، والمسيحي العربي له دينه وله من الثقافة الإسلامية

نصيبه أيضًا. وكان مارون عبود أسبق مني في فهم هذا الانتماء المزدوج عندما سمى ولده محمدًا. كان هذا الكاتب اللبناني يرى محمدًا نبيَّ العرب، والقرآنَ كتابَ العرب. وعرف كيف يكون مسيحيًا عربيًا يحتضن الثقافة الإسلامية بكل ارتياح.. وسبقه في لبنان نفسه ناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستاني. وسبقهم بمئات السنين يهود وصابئة ومسيحيون عرب كثـر.

لقد تميزت الجزيرةُ بالجرأة والتوازن والسرعة والصدق والسعة. وظلت الجزيرة صادقة وسريعة وواسعة. فما عيوب الجزيرة؟ لا يكفي مقال واحد لها. ولكنني قدمت أعلاه نقاط قوتها: الخبر الصحيح والسريع، والاهتمام بالإنسان. هذا مقام احتفال. فإن يكن مقام آخر يكن كلام آخر^(١).

(١) ملحوظة تحريرية: لم يُنشر المقال في ذلك الكتاب الاحتفالي، بل في موقع تابع للجزيرة.

حياتي في التدريب الإعلامي

المدرّب الجيد يبدأ بقليل من الكلام ثم يسارع إلى شغل أيدي المتدربين وعقولهم بتمرين حقيقي. ويرأّح بين الشغل الفردي والجماعي، ويستر عيوب المتدربين ولا يفضحها. يرضى منهم بما يستطيعون، غير مصمّم على تحقيق النتائج المطلقة. فالدورة التدريبية، طالت أم قصرت، هي ورشة ممارسة وحديث في الموضوع. ولا بأس ببعض الخروج عن الموضوع حتى يتدفق المتدربون في الكلام، ويشعروا بكيانهم. فالخروج إلى حديث عن الطقس أو الازدحام على الطرق يسوّي بين الجميع، فلا يفضل ذو المستوى الجيد ذا المستوى الأقل.

على أن المدرّب المُدرِّك لما يصنع لا يترك الأمر ينفلت، فمهما التذّب بعضهم بالحديث الجانبي فإنهم يريدون بعد حين أن يعودوا إلى موضوع الدورة، يشعرون ويشعر المدرّب بشيء من تأنيب الضمير إذا طال مثل هذا الخروج.

أتذكر، وأنا أكتب هذا، مديرتي في مركز البي بي سي للتدريب، غوينيث هندرسون، وكنت مدرّبًا هناك. أتذكر كيف كانت تضبط المتدربين وتحفظ على المدرّب كرامته.

ألا يتراجع المدرّب عندما تتقدّم به السنّ؟

المدرّب الذي يمارس المهنة طويلاً، ويظل يمارسها مع ممارسته التدريب، يميل إلى أن يجعل نفسه ونتاج عمله المثال المحتذى. أعاني

من بعض هذا، وصادفت متدربين يتدمرون من ذلك. وكنت أقول للمتدرب المتمذر: «طبيعي أن يُحدّثك المدرب الخبير عن إنتاجه». اسكت، واسمع، وأحسّن الاستفادة من خبرته. قد كنتُ رئيس تحرير جريدة، وكنتُ مدير برامج لسنوات عدة في إذاعة، ولسنوات أكثر في تلفزيون. وكتبت مئات المقالات والتقارير، وكنت مراسلاً ميدانيًا أربع سنين. وبالتزامن مع كل هذا كنت أعقد الدورات التدريبية ذات الشمال وذات اليمين. وكنت أتخذ لكل دورة عُدَّتْها. لا أذكر دورة دخلتها خاوي الوفاض. ثم إنني، بعد هذا كله، لا أطيل في الحديث عن إنجازاتي، فإن فعلتُ أخذ يغلي بداخلي شعورٌ بأن واجبي أن أستمع من ذلك القدر من خبرتي الشخصية ما فيه فائدة حقيقية، وأن أتجنب الاستعراض.

لكنني كبرت. أصبحت أفق أمام المتدربين غولاً، ممتلئاً بالخبرة الممنوعة. نعم، أتلطّف معهم وأونسهم، وأعترف لهم بأنني ارتكبت الغلطة النحوية بين الفينة والفينة، وهذا صحيح، وأقر لهم بأن هناك أسئلة لا أعرف إجابتها. لكنني غول بعمرى وبخبرتي، وغول لأنني ظللت في المهنة، وغول لأنني حافظت على نشاطٍ ذهني طيب بالاستمرار في المطالعة. فهل أرسم خطأً سميكاً تحت كل التدريب الإعلامي، وأتوقف! ليتني.

ربما المشكلة أنني غول، لا أنني مسن.

صادفت مدرباً مسنّاً ذات يوم. كنت بين المتدربين وكان هو المدرب. بعض الذين يحالون على نصف تقاعد في البي بي سي يصبحون مدربين، وتكون في نفوسهم بعض المرارة. هذا كان منهم. كان أنيساً وكان مدرباً

يكتفي باستذكار ما مر به. لم يكن جيدًا ولا سيئًا. وصادفتُ غولًا ممارسًا للمهنة - كان هذا في الدورة التي يسمونها «دورة القادمين الجدد» - وقد أفاض علينا من خبرته وكان يُسارع إلى كلمة «لا أدري» عندما لا يدري. كان غولًا مفيدًا جدًا.

أنا بالمناسبة غول مفيد. مشكلتي أن لدي أشياء أخرى أريد أن أعملها. فليذهب التدريب إلى الجحيم.

المتدربون: كثير منهم درس الإعلام في الجامعة، واكتشف أن دراسته كانت عقيمة، وأنها لا تساوي خردلة في سوق الإعلام، المدرب الحقُّ ينقلهم من حكاية الأسئلة الستة والهرم المقلوب وهذه الخزعات الأكاديمية إلى دنيا الإعلام الحقيقية. يجعلهم يناقشون، يجالسهم واحدًا واحدًا.

أتذكر شخصين صادفتُهما في دورة قبل بضع سنين.

الدورة فيها سبعة وعشرون متدربًا. وكانت في التحرير الصحفي. الشخص الصعب الأول كان ممتلئًا خبرةً، كاتبًا وروائيًا، وذا قلم سيّال. وعلى مدى ساعتين أيقن أن عندي ما أضيف له. وأصبح صديقًا وزارني في بيتي بعد الدورة مرتين، وقابلته ثالثة في مكان عام، وهو الآن محرر ثقافي مهم. والثاني كان شابًا في الرابعة والعشرين. بدأ من الساعات الأولى يطلق ملاحظات لا تخلو من سخرية. فلا بأس من تزجية وقت الدورة بالعبث قليلًا بالمدرّب العجوز، وخاصة أنه يبدو لين العريكة.

قلت لنفسِي: «ها قد بدأ الشغل الصعب!» استأنسته، وصبرت عليه. من يدري لعل عنده شيئًا! ثم فتح الله عليه. أدرك أن عندي ما

سيفيده، فارعوى. ومضت الدورة، ومضى معها مشاركا طيب المشاركة. فلماذا هو أديب فيه عمق وتدق، وعنده معرفة جيدة. وهو يعمل في الصحافة، يشغل وظيفتين في مؤسستين. وكانت صداقة دامت سنوات. والتقيت به مرات كثيرة، وما زلت على علاقة طيبة به. (أنا أحفظ جيدا اسم الشابين، وهما الآن رجلا، ولكنني أمتنع عن تذكير أي متدرب بأني درسته. فإن ذكر أحد أني علمته فهذا فخر لي، لكنني لا أفاخر بادئا).

ماذا لو صادفت متدربا يفوقك علما، وخبرة، وفهما؟

صادفت هذا في البي بي سي. كنت في أواسط الثلاثين من العمر. وجاءني متدرب من القسم الإنجليزي. أرسلوه ليتدرب لأن هذا واجب مؤسسي. وبسرعة اكتشفت أنه مارس ذلك الموضوع كثيرا. ببساطة تركته يُفيض علينا من خبرته. وجئت لتلك الدورة بضيوف ذوي خبرة كبيرة (كان الموضوع كتابة الحديث الإذاعي)، فاستفاد منهم وأفاد زملاءه. تعلمت أن أفتح عيني على المواهب الموجودة بين المتدربين.

عقدت دورة باسم «تدريب المدرب» حضرها، بين من حضر، ثلاثة من المتمرسين بالمهنة، وممن لا أزعج أنني أكثر خبرة منهم. دربتهم كيف يكونون مدربين إعلاميين جيدين، أتحت لهم أن يتحدثوا عن خبراتهم، وأن يفيدوا بعضهم بعضا، كان هذا قبل نحو عشرين سنة. وأعرف الآن عن اثنين منهم، أحدهم أصبح رئيسا للتحريير، وهو ناجح في عمله، وأخرى تعمل مراسلة وهي متميزة في مهنتها. كانت تلك الدورة في بداية عملي في معهد الإعلام بجامعة بيرزيت.

بعد تلك الدورة بسنة أو سنتين طلبت منا الدويتشه فيله أن نرسل مرشحًا لكي يأخذ دورة باسم «تدريب المدرب». فأرسلت نفسي. ليس لأنني مدير المعهد، ولا لأنني أحب أن أسافر إلى ألمانيا، ولكن لأنني كنت أمارس التدريب باستمرار.

كانت إحدى أفضل الدورات التي حضرتها في حياتي. وكان المدرب صحفيًا فاشلاً، وإذا شخصية متعالية. وشاءت الصدفة أن أكون في الدويتشه فيله بعد سنوات وأن ألتقي بزميل لذلك الرجل، فسمعت عنه أحاديث تصدق انطباعي عنه. قلت لنفسني: «لماذا يعيش هؤلاء الناس في مراكز التدريب؟»

كان ذلك المدرب الألماني ممن يسرون على منهج صارم، ويريد أن يحقن العقول بالنقاط والمحاور. كرهناه جدًا، لكننا مضينا بدون شكوى، كنا من بلاد عدة: ماليزيا ونيجيريا، وبضع دول من أوروبا الشرقية، ولم يكن سهلًا علينا في تلك المدة القصيرة تشكيل حلف عليه.

حضرْتُ أيضًا دورة «تدريب المدرب» في السويد. كان معهدنا يتلقى منحة سخية من السويد، وطلبوا مجموعة من الصحفيين لكي يقدموا لهم «تدريب المدرب». فذهبت برفقة الصحفيين، وكانت المدربة بديعة، من أولئك الناس غير المدَّعين. ما أقلهم!

كيف تبدأ دورتك؟ ليس شرطًا أن تبدأ بالتعارف البغيض. فما أصعب على الناس النطق بأسمائهم! ترى المرء يقول اسمه متلعثمًا.. ربما كان يقوله لأول مرة بعد مغادرته المدرسة. عندنا هكذا: المرء لا يقول اسمه على الهاتف، ولا في أي لقاء. قد تكون هناك أسماء مكتوبة أمام كل

متدرب، وقد لا تكون. ابدأ بكلمات خفيفة عن الطقس، وعن عدم اكتمال الحضور، ويا ترى هل اكتملت المجموعة أم نتظر أحدًا.. وموضوعنا كذا، ولكن نحاول أن نجعله قريبًا بقدر الاستطاعة، ولعلكم تعرفون الكثير عنه، ومن المؤكد أن عندكم خبرات طيبة. لكن من يدري، يستفيد بعضنا من بعض، تمتعات كهذه لكسر الجليد، ولكي يرى المتدربون أنك شخص عادي، حتى لو كنت غولًا. ولا تقف وقفة مسرحية؛ فهذا منفر في البداية. ولا تصنع مثلما يصنع المدربون الأمريكيون -إلا إن كنت أمريكيًا- إذ يبدأ الواحد منهم دورته فاتحًا ذراعيه، ومرحبًا بالجميع بلهجة مسرحية، وملقيًا بعض المواعظ عن الثقة، والانفتاح، ثم سرعان ما يدعو المتدربين إلى لعبة صغيرة، ويجعلهم يقومون ويغيرون أماكنهم. ولا تفعل ما يفعله المدرب العربي الذي يسير راثعًا غاديًا محركًا يديه، متدفقًا بالمعلومات النظرية التي قرأها. المدرب العربي يقلد معلم المدرسة الذي كان يفعل بالضبط كل هذا. أنا أفضل طريقة الإنجليز.

قد يكون المتدربون قادمين من مؤسسة واحدة ويعرفون بعضهم بعضًا، فأنت إذًاك الغريب، وتمكُّنك من أدواتك التدريبية، وتحضيرك الجيد ينالان لك إذن الدخول بينهم. وقد يتتابك شعور كاذب بأنهم كتلة واحدة، لتكتشف بعد قليل أنهم لا يعرفون بعضهم بعضًا. لا تنس أمرًا مهمًا: أنت القائد. حتى لو كان بين المتدربين من هو أسنُّ منك، أو من هو رفيع المرتبة الإدارية (رئيس تحرير مثلاً). أنت القائد في دورتك.

أحدثك عن أول دورة عقدتها في الجزيرة. في الدورة رجل أسنُّ مني، ويبدو أن مرتبته ضعف مرتبي. عاملته بكل لطف، وقدتُ الدورة بحزم. ورأيتُه في موضوع تلك الدورة تحديدًا فاقدًا كثيرًا من المهارات، غير

أنني حاولتُ أن أجعله يخرج من الدورة ببعض الفائدة. ولقيتُ هذا الشخص لاحقاً، بعد أن كتب ثلاث روايات، وبعد أن ترقى في المناصب خارج الجزيرة. وعرفت عن مواهبه الدفينة ما لم تُتَّح لي تلك الدورة أن أعرف. من ذلك الشخص تعلمت أن الإنسان بستان من المواهب والخبرات، وأن سعة صدر المدرب وسماحته مطلوبان بشدة، وأن عليه ألا يقلل من قيمة أي متدرب ضعيف في موضوع الدورة.

بعد أن يلقي المدرب كلمات قليلة قد يختار أن يدخل بقصة. هذا شيء يتقنه الأمريكيون جداً، وهو من أشياء قليلة أوافقهم عليها، قُصَّ قصة... أي قصة. فكل إنسان في جوفه ذلك الطفل الذي يحب القصة. قُصَّ عليهم كيف ارتكبت غلطة كبيرة، وكيف علمتك شيئاً. قصتي المفضلة: عندما كتبت أول عنوان لي في جريدة، وكيف شطبه لي رئيس التحرير. وقد أقصَّ عليهم قصة شاب عمره نصف عمري، وعلمني شيئاً مهماً في الإنتاج التلفزيوني.

مثل هذه القصة تشعرهم أنك من البشر، من الخطائين. وإذا كنت غولاً، مثلي الآن، فقصة كهذه تشعرهم أنك كنت طبيعياً يوماً ما.

بعد القصة سيبدأ أحدهم بالمناكفة، أو سيتبرع بالكلام. أنصت. واعلم شيئاً: المدرب الذي يتكلم طول الوقت ليس مدرباً، بل ثرثاراً. وحاول استدرار تعليق من زميل لذلك المناكف. وابدأ بتقسيم المتدربين إلى مجموعات للقيام بعمل، واجعل التنافس يتم فيما بين المجموعات لا الأشخاص. استر على الضعيف، واجعله يشعر أنه في أمان داخل أسرته التي هي مجموعته. وفي المجموعة يبدأ التعارف. قد يكون التمرين

الأول تمرينَ تعارفٍ، خصوصًا إذا كان المتدربون من الفتية، أو حديثي التخرج.

مثال: في دورة موضوعها إجراء المقابلات، ليكن تمرين التعارف أن يجلس كل شخصين معًا، وأن يتعرف أحدهما على هواية الآخر المفضلة، ويسأله عن التفاصيل استعدادًا لإجراء مقابلة تلفزيونية معه عن هوايته. ثم بعد ربع ساعة، ليقم كل زوج بإجراء هذه المقابلات. واحرص أشد الحرص على تكرار التمرين بحيث تنعكس الأدوار. فالمتدرب لا يريد أن يكون قام بنصف العمل. بعد إجراء كل مقابلة افتح المجال للتعليقات من الآخرين. وسترى بعضهم يشير إلى تلثم المذيع، أو بخل الضيف بالإجابات، أو أن المقابلة التي دامت دقيقتين لم تفصح لنا عن شيء مفيد بشأن تلك الهواية.

احرص على مَسْرحة التمرين. هذا جيد. ضع كرسيين أحدهما يقابل الآخر أمام قاعة التدريب. وليجلس المذيع مقابل ضيفه، وأنت أيها المدرب ستتخذ دور منتج البرنامج التلفزيوني، وستشير بيدك عند انتهاء الوقت.

بعد هذا التمرين التعارفي، لنبدأ في كتابة المشكلات الكثيرة التي تعاني منها المقابلات التلفزيونية: السؤال الطويل، والجدل العقيم مع الضيف، والضيف السكوت ... إلخ. وليكتب المدرب هذه النقاط على اللوح، وليساعد بعض المساعدة في استخراج العيوب. ولكن من المهم أن يدلي كلٌ بدلوه. أنت تستخرج المعرفة منهم. ثق تمامًا أنهم سيذكرون كل شيء. المعرفة كامنة في عقولهم، لا تفرضها عليهم بل دعهم يتبينوها.

وبعد أن يتناولوا القهوة ويتحدثوا قليلاً. اصنع أزواجاً أخرى مع الحرص على التبديل، وعلى أن يصبح المذيع ضيفاً والضيف مديعاً. والآن مقابلة إذاعية لا تلفزيونية. وعلى الهاتف. وفيها عنصر مفقود هو أن الجانبين لا يريان الحركات... هو الصوت فقط.

ضع أمام القاعة كرسيين يتقابلان ظهرًا لظهر. وليجلس المذيع على كرسي والضيف على كرسي. فلا يرى أحدهما الآخر. ونحن في القاعة نراهما في صورة جانبية، وبالطبع نسمعهما. والموضوع مختلف هذه المرة. فكل اثنين يتفقان على موضوع معين. مثلاً: أحدهما أراد تمثيل دور مسؤول في وزارة التربية والتعليم، والمذيع يسأله عن مشكلة ضعف الطلبة في الرياضيات، وعن الحلول الممكنة.

سيكتشف المتدربون في هذه اللعبة فرقاً واضحاً بين المقابلة على الهاتف، والمقابلة وجهاً لوجه، وسيعرفون قيمة حركات الجسم والنظر في عيني الشخص المواجه لك. وليتحدثوا بعض الوقت بعد انتهاء موجة المقابلات الثانية عن لغة الجسد وأثرها. وعن الفرق بين المقابلة وجهاً لوجه والمقابلة الهاتفية. وفي أثناء ذلك أنت تحفظ أسماء الطلبة، وتسال باستمرار عن الاسم، وتقوله بصوت عال. فيتم التعارف.

مهم جداً أن تستخرج ما لديهم من معرفة. وليكن في أثناء ذلك حديث قصير عن تجربة مرت بك.. عن مقابلة كنت أجريتها، أو أجريت معك. ينتصف النهار، ويكون التعارف قد تمّ.

ثم لا بد من تمرين عملي حقيقي. التمارين المصنوعة مفيدة، وتنتج معرفة نظرية مهمة. ولكن «الحقيقي» له طعم مختلف.

إذا كان موضوع الدورة «المقابلات» فلا بُدَّ أن يجروا مقابلات مع ناس حقيقيين: مع ساسة، وخبراء، ومسؤولين، وريبات بيوت، وعمال نظافة. إحدى طالباتي قابلت بائع فلافل، وكان أول سؤال لها عن «هذا الوسخ تحت أظفارك». أرادت «بسلامتها» أن تكون شرسة ومتحدية. وبالطبع فقد أصبح الضيف عدوًّا ولم يعطها معلومات. وهي الآن مذيعة، ومع أنني التقيتها عدة مرات، فلم أسألها إن كانت تعلمت شيئاً من انتقادي لها على ذلك السؤال.

وإذا كان الموضوع كتابة التقرير الصحفي، فليكن أحد التمارين حقيقياً، بأن يعملوا من خلال مواد حقيقية مأخوذة من وكالات الأنباء والمقالات التحليلية.

أحياناً نحثهم على اختراع خبر. فقط، كي يستكملوا العناصر المختلفة فيه، وكي يلعبوا. أحدهم جعل الرئيس الفلسطيني يذهب إلى غزة في زيارة مفاجئة، وجعله يموت بعد لقائه بإسماعيل هنية بنصف ساعة. لا بأس من الاختراعات ومن اللعب، لكن.. المهم أن يتم استكمال عناصر الخبر.

وفي كل الأحوال لا بد من «الحقيقي». في الخبر أعطهم فسحة ساعتين ليذهبوا ويحصلوا على خبر من الجامعة، إن كان موقعك الجامعة. وهنا إشارة تحذير: قد يكون بعضهم خجولاً جداً، وعاجزاً حقاً عن الحصول على خبر. ابعته مع زميل يستند إليه. هذا الشخص الخجول قد يصبح محرراً جيداً، فلا تُوقعه في ورطة أن يجلب خبراً وحده. ليس كل متدرب مثل الآخر. فإذا كان المتدربون في مركز بعيد عن المدينة،

فليكن استقاء الخبر بالهاتف. دُلِّهم على مواطن روتينية لاستقاء الأخبار كالشرطة، وجهاز الإحصاءات في الدولة، وهيئة مكافحة الفساد، ومؤسسات المجتمع المدني المختلفة.

التمرين الحقيقي يستغرق وقتًا، غير أنه لا غنى عنه. المرجرين غير الزبدة.

لا تقف على رأس المتدرب، ولا تساعده كثيرًا، ولا تنفخ في أذنه المواعظ. اتركه يتعلم وحده. ليتعلم من خطئه.

استطرد: عندي مشروع سيدُّ عليّ الملايين. وسأخذ به براءة اختراع أولاً حتى أضمن حقوقي. هل تظنني ساذجاً لأقول لك تفاصيله؟ نعم أنت تظنني كذلك، فالمدرّب يعطي، ولا يبخل بما يعرف. سأفصّل لك القول في مشروعِي بعد قليل.

أن يتعلم المرء وحده أفضل من أن يتعلم على يد معلم، وفي مشروعِي سألغي القيود. هل أنت جاهز لسماع مشروعِي العالمي؟ أنا غير جاهز بعد.

عندما بدأتُ أعلم نفسي الخط العربي أصررت إصراراً حمارياً على ألا أتعلّم على أستاذ، فاستغرقني الأمر وقتاً طويلاً جداً. كان أفضل لو تعلمت على أستاذ. لكنني غير نادم. مشروعِي الكبير ليس في التدريب الإعلامي، ولا في تعليم الخط العربي، بل في قيادة السيارة.

أتمنى أن ألتقي بالذي علمني قيادة السيارة لكي أوسعه تقريباً. كان يجلس بجانبِي، ولا يتركني أتعلّم وحدي.

سأشتري قطعة أرض كبيرة بمساحة ملعب كرة قدم. وأصنع فيها شوارع، ومنعطفات ومرتقيات ومنحدرات... إلخ. وسأشتري مئة سيارة، وأزودها بمطاط سميكة من كل الجوانب. ويأتي المتدرب الجديد فيأخذ درسًا مع مدرب لساعة، يدلّه فيه على الدواسات. ثم يتركه وحده يسوق كيفما شاء. فقط. انتهى.

أليس مشروعًا عظيمًا؟ ربما هو كذلك لمن هم مثلي يصرون على التعلم وحدهم. ولكن في البشر تفاوتًا. بعضهم تربي على أنه لا يتعلم إلا بالعصا، وإلا بالنقاط والمحاور التي يحفظها حفظًا.

الأطفال ليسوا كذلك. الطبيعة ليست كذلك. هل حفيدتي البالغة خمس سنوات - والتي تتكلم أكثر من قاض معزول، وتأتي بتعبيرات هي في قمة الفصاحة والضبط - قد تعلمت بالمحاور؟ بل حفيدتي تعلمت من الهواء.. من الناس، باختصار: تعلمت.. وحدها.

تعليم كل شيء يكون بأن تمارسه، لكن سوء التربية يجعلنا نصرّ على تعليم الناس بطريقة المحاور والنقاط والتحفيظ. ولعل هذا هو سبب «الإبداع العلمي العظيم» لشعوبنا العربية في حاضرها المجيد.

لم أصبح مدربًا في البي بي سي إلا بعد أن استوفيت الدورات المطلوبة وكلها تحتوي على الممارسة. أخذت كل الدورات، ونلت في القسم العربي المنصب الملائم، فلم أعد مساعد مُتّج ولا مُتّجًا بل كبير مُتّجين، ثم طلبوني للتدريب فلييت. فهل كانت الدورات التي أخذتها مليئة بالمحاور؟ كانت أولاً بلا محاور البتة، وثانيًا كان ممنوعًا منعًا باتًا توزيع شهادات. أذكر زميلًا لي من تشيلي في ذلك المركز «بي بي سي

وورلد سيرفس ترينغ»، قال في الاجتماع الصباحي للمديرة غوينيث: «كثيرون من المتدربين يسألون إن كان يمكن منحهم شهادات». فكان الجواب قاطعًا كحد شفرة المونتاج التي كنا نحرر بها الأشرطة. قالت له غوينيث: «لا يحلمنَّ أحدٌ بهذا. نحن لا ندرّب الناس لكي يجمعوا الشهادات. يأتون إلى هنا كي يتدربوا فقط». ولم تسمح غوينيث بأي نقاش في الموضوع.

وها أنا قد أخذت الدورات المطلوبة وليس معي قصاصة تثبت ذلك. ما كان أجمل ذلك التدريب! وصرت مدربًا في البي بي سي. لم أكن أجعل المتدربين يكتبون شيئًا من كلام المدرب أو الضيف الخبير. كله كان شفهيًا.. تمامًا مثلما تعلمت حفيدتي الكلام. ولم يكن هناك امتحان. فقط مشروع عملي.

انقطاع قصير: كسوت وجهي بالكولونيا، فقد شممت رائحة عفن وأنا أتكلم عن «المحاور».

يبدو أن الدورات ضرورية. وإلا كانت زالت عن وجه الأرض. هي موجودة. ومن بعض غرض هذا المقال أن يحاول عقلنتها، وتبيان كيف يمكن التخفيف من ضررها.

هل تراقب أيها المدرب أفواه المتدربين؟ راقبها. وعند أول تثاؤب العن نفسك. فإن تكرر التثاؤب فقد أزف وقت القهوة. واصنع شيئًا. أنت لست مدربًا فقط، أنت «بيبي سيتر»، عليك أن تسليهم أيضًا. فهل تعرف كيف تسليهم دون أن تخرج عن موضوعك خروجًا فجًا؟

الطريقة الفضلى أن تجعلهم يشغلون أيديهم.

قال فريدريش إنغلز رفيق ماركس: «إن عقل الإنسان تطور عندما تطورت يده، وصار الإبهام قادرًا على مواجهة بقية الأصابع للإمساك بالأشياء وتحريكها والتحكم بها».

يقول مدربون كثرون: إنهم يفضلون من لا يعرف على من يعرف الغث والسمين. وهذا صحيح من تجربتي. وتعليم خريجي كليات الإعلام الإعلام أصعب من تعليم شبان وشابات في الثامنة عشرة. أقول هذا ويدي على المصحف.

المتدرب الذي ملأوا عقله في الكلية بشتى المحاور مثل ذيل الكلب، تحاول وضعه في قالب لكنه يعود للالتواء.

وقد حضرت في زمني، وفي أكثر من مؤسسة، مجالس توظيف. كان يدخل المرشح للوظيفة الإعلامية المجلس وبدأ بتصفح ملفه. ونظر في مسيرته الأكاديمية، فإذا كان قد تخرج من كلية الإعلام، رفعنا حواجبنا، ثم أرخينا أجفاننا، وحوقلنا. وفي الغالب تكون دراسته في غير صالحه.

اجعل لدورتك شكلاً: اصنع لدورتك هيكلًا. وليعرف المتدربون من الربع الأول من الدورة (من اليوم الثاني مثلاً لدورة طولها خمسة أيام) أنهم في طريقهم إلى إنجاز مشروع معين، هذا يحقنهم بقدر من التوتر المفيد. لا تجعل دورتك لوحة تجريدية ليس لها أول من آخر. اجعل لها شكلاً. لتكن مليئة بالنتف الممتعة مثل مسرحية كوميدية، لكن.. حتى المسرحية الكوميدية تحتاج إلى قصة، كي تسهل متابعتها. مسرحية شاهد ما شافش حاجة لها قصة. ونحن ننتظر براءة عادل إمام طوال الوقت، لكننا نتسلى بالنكت والمواقف المضحكة.

كثيرون من المدرسين بارعون في خلق أجواء مسرحية يحتفي فيها المتدربون، ويصفقون لأعمال زملائهم، ويعيشون أجواء النصر. هذا جيد إن لم تكن فيه مبالغة. ولا غنى عن الهيكل. ليكن في آخر أيام الدورة إنجاز معين.

نظام الدوائر الرسمية العربية القائم على الأوامر والنواهي، وعلى تسلط المسؤول، وتقزيمه لشخصية المروّس، ليس خير نظام في مركز للتدريب.

لديّ إيمان راسخ بمسألتين: بأن المرء يتعلم وحده، وبأن المُحرّك الحقيقي للتعلم هو الرغبة.

الرغبة قد يكون أساسها الحاجة. فالذي وجد نفسه محاضراً في مؤسسة جديدة وعليه أن يثبت نفسه، قد يتعلم أموراً ما كان يحلم أنه سيتعلمها، أو أنه سيرغب في تعلمها.

عندما التحقْتُ بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، وجدت نفسي إزاء برنامج حاسوبي - ولم يكن بدأ أيامئذ لا الحاسوب البيتي المعروف، ولا الإنترنت - كان هناك نظام بدائي تلقنه «الأوامر» ويعطيك الأخبار وتقارير المراسلين الإنجليز كي تترجمها. جلست إلى كتاب تعليم النظام الحاسوبي ذاك ليلة ليلاء، خرجت منها عارفاً بالتفاصيل، ومع الممارسة أتقنت الأمر في يومين. هذه رغبة نشأت عن حاجة لا عن هوى.

نضطر في أشياء إلى التعلم على يد معلم. وهذا التعلم يشبه سير السيارة التي يزفُّها رجلان قويان والسائق بالداخل يعاقر مع دواصة البنزين،

والسيارة تقول «خشخشش». والذي يتعلم وحده وفي جوفه رغبة حارقة هو مثل سيارة تنطلق كالسهم. وهي بالمناسبة تقول «فوششش».

أجد مهنة المدرب صعبة، وأفضل عليها أن أستكشف الشغف الكامن في الإنسان وأقوم بتوجيهه بكلمات قليلة، وبرعاية ودودة كالآباء. أو -إن شئت- كبشار بن برد في اصطياذه للنساء. فطريقته هي أن يزرع في عقل الفتاة كلمة غزل، ويتركها تتفاعل، أو بتعبيره «عَرَّضَنَ للذي تحبُّ بحبِّ، ثم دعه يَرُوِّضُهُ إبليسُ». يتركها تتقلَّى بدنها، فعسر النساء، بكلماته أيضًا، يؤول إلى مياسرة.

عليَّ أن أصبح شيئًا آخر سوى «المدرب الإعلامي». قد وجدت روحي متأخرًا.

ليس متأخرًا جدًّا، ففي السنين الماضية كنت أنغمس فيما هو شرٌّ من التدريب. كنت أشتغل في الصحافة، وعلى وجه الخصوص في الإدارة الصحفية. وجاءني هذا بمال طيب، أعاش أسرتي عيشة راضية، وترك لي ما يحمل شيخوختي. وفي خضم هذا النوع من العمل، كنت ألتقي بأشتات الناس، وأتفاعل مع مشكلاتهم. هذه خبرة وحياة. وحن أن ألتفت إلى أمور أخرى.

الحرية البغيضة: قال صاحبي: إنهم اجتمعوا إلى أمهم عقب وفاة أبيهم، وقالوا لها: نخصص لك المبلغ الفلاني كل شهر. وقال لي: إنهم تواضعوا على مبلغ جيد يقوم بها ويكفيها، وكانوا من ذوي اليسار. أرادوا خيرًا، فتبين لهم أنه شر. قالت لهم: لا أريد. بل تحضرون لي الخضار واللحم، وتفتحون لي بيتي. وفتحوا لها بيتها.

شعرت تلك الأرملة بالحرية مقبلة عليها، وخافت. معها حق، لم تتعود أن تحمل مسؤوليات مالية.

وقال أحمد شوقي: إن الحمار والجمل هربا من سيدهما. وفي منتصف الطريق قال الحمار: (لا بد لي من عودة للبلد/ فإنني تركت فيه مقودي)، فأما الجمل.. (فقال: سر، والزم أخاك الوداد/ فإنما خلقت كي تقيدا). الحرية مسؤولية. وفي العلم، الحرية باب الفهم.

ما رأيك؟ أليست الحرية صعبة. وما قولك في طريق آخر؟ عرفتَ طبعًا ما أريد! طريق المحاور.

لا ألوم حمار شوقي. ولا تلك الأرملة. لكن، في العلم، لا سبيل للمحاور. لا بد من تعمق، ولا بد من فهم، ولا بد من ممارسة.

يأتيك المتدرب محملاً بقمامة كلية الإعلام، ويبدأ يحتاجك في مسألة قال له أساتذته: إنها في غاية الأهمية. يقول لك: «من الخطأ الشنيع أن تبدأ الجملة باسم. ففي اللغة العربية -ويملاً شذقيه وهو يقول: اللغة العربية- لا توجد جملة تبدأ باسم». هل تقول له إن القرآن يبدأ باسم: «الحمد لله رب العالمين»؟ أم تنفعل، وتأخذ في شتم أساتذة الإعلام؟ أم تتلطف به، وتُلاينه؟ أنا أحياناً أفضل العصا. أفضل أن أحمل عصا غليظة لأساتذة الإعلام في الجامعات. ولكنني اضطررتُ على مدى سنوات طوال إلى الملاينة. وإلى محاولة زحزحة المتدرب عن هذه الدوغما السخيفة. وكنت أحياناً أشرح ضرورة البدء باسم في التلفزة كي يجاري النصُّ الصورة، وضرورته في الإذاعة لإبراز المهم، وضرورته في عنوان الجريدة للاختصار. كنت أسلك سبلاً شتى. أشرح لذلك المتدرب كثيراً

ويحتاج جنني، ويهز رأسه غير مقتنع. فأستأذه قد حَقَّظَه تلك القاعدة الصلبة تحفيظًا، وهات حاول يا مدرب أن ترحزحها؛ لقد تحولت في رأسه إلى حجر.

أنا مع الحفظ، مع حفظ آيات القرآن، وآيات الشعر، ومع حفظ أن مساحة المثلث نصف مضروب القاعدة في الارتفاع. لكن الحفظ بلا فهم مصيبة.

لماذا يأتيك المتدرب؟ يأتيك لأن رئيسه في العمل أرسله. ويأتيك لكي يضم إلى ملف سيرته الوظيفية ورقة جديدة بدورة جديدة. ويأتيك ليستفيد. وهنا المعضلة. هل تقف أيها المدرب أمام المشاركين في الدورة لكي تفيدهم حقًا؟ أم أنت تنغمس في استعراض قدراتك ومعلوماتك؟

من الخير أن توحى للمتدربين بقدراتك، فهذا يمنحهم الثقة، ويفتح عندهم الباب لاستقبال ما تجود به. لكن، حذار من الانغماس في هذا المستنقع! ضع نصب عينيك دائمًا أنهم أذكىء، ذلك الذكاء الفطري الذي يخبرهم بحقيقتك. هم يريدون فعلاً أن تكون كبيراً وعميقاً؛ لأن الإنسان مثلما عنده غريزة التسلط عنده أيضاً غريزة الانقياد. هم يريدونك قائداً، وقائداً قوياً. وكما نقول للمذيع دائماً: «إياك أن تسلم الميكروفون للضيف، حتى لو كان رئيساً أو ملكاً، أنت القائد»؛ نقول للمدرب: «أنت القائد».

تعلم ولا شك أن كل ما عندك موجود على النت. فلماذا تعقد دورة أصلاً؟ لماذا لا تطلق المتدربين لكي يبحثوا في النت؟ أو لعلك تجمع

كل المواد وتعطيهم إياها على فلاشة وتريح رأسك! هنا مسألتان: الأولى أن الدورة ليست حَقَن معلومات في رؤوس المشاركين، ولا هي تدريس وحفظ، بل هي قطعة من الحياة. مع أول يوم من الدورة ينشأ مجتمع جديد. ويقبل المشاركون عليه بوجل، وبملل، وبتوق لإثبات ذواتهم، وبشتى المخاوف والرغبات. يعيشونه. ومثلما تعلمت حفيدتي الكلام في المجتمع، فليتعلم المشاركون في مجتمعهم المؤقت هذا. اجعلهم يعيشون فيما بينهم، ومعك.. وليس معك فقط. لا تجعل العلاقة خطوطاً واصلةً بينك وبين كل متدرب، بل اجعلها خطوطاً أكثر تصل بين كل متدرب وزميله، بين الفتيان والفتيات، اترك لهم حيزاً ليكرهوا ويحبوا بعضهم بعضاً، وليشكلوا تحالفات خفية. فسحة القهوة مهمةٌ أهميةً دروسك وتمريناتك.

المتدرب يأتيك كي يتسلى، وإلا فما تظن أننا نفعل في هذه الدنيا الدنيئة؟ نحن نعيش ونحرص على نيل أكبر قدر من التسلية، نحن في حياتنا ننفق القسط الأكبر من الوقت ونحن نحاول نسيان الموت. فاجعل دورتك قطعة من الحياة.

ماذا تعطي المتدرب؟ تعطيه معلومات، هذه مفهومة. ولكنك أيضاً تريد أن تحوّل هذه المعلومات إلى مهارات، لهذا خلق الله التمرينات. نصنع لهم تمرينات تشبه الحقيقة، وقد نفلح في زجّهم في مواقف حقيقية. ثم نريد أن نتقل من طور تعزيز المهارة إلى طور أعلى.

التدريب ثلاثة أطوار: أولاً المعرفة، وثانياً المهارة، وثالثاً التّطبيع. وهذه الثالثة تعني أن تصبح المهارة كأنها طبع في المتدرب يمارسها دون

تفكير، ودون تردد. قليلة هي الدورات التي تنجح في تعزيز المهارات بالقدر الذي يُبقيها حيّة في النفس. على أن ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جُلّه، ومن المهم أن يسعى المدرب إلى فتح الأعين على المهارات، والبدء بتطوير ما تيسر منها.

تلك الأوراق التي يوزعها المدربون: خير هذه الأوراق ما كان خاصًا بالتمارين، بحيث يكتب المتدربون عليها أشياء، ثم إلى سلة المهملات قبل انقضاء اليوم. فأما المدرب الذي يعطي مشاركيه شتى الأوراق التي تحتوي على معلومات وفصول مصورة من كتب فهو يعرف، أو لا يعرف، أن هذه طريقة عقيمة في التعليم، ولكنها، ويا للسخرية، تجعل المتدربين يشعرون بأن الدورة «فيها شيء».. هناك شيء ملموس يأخذونه بأيديهم ويضعونه في محافظهم (بالطبع مصيرها إلى سلة المهملات طال الزمن أم قصر، ولن يقرأوها). ليكن للورقة التي توزعها على المشاركين علاقة بالجلسة التي توزع فيها الورقة. الدورة ليست سلسلة محاضرات يأتي في ختامها امتحان، وليست فيها واجبات بيتية. لكن، مسموح فيها بالهموم البيتية: أي أن تجعل المتدرب يفكر في المساء بالدورة وبما سيفعله، وبالمشروع الذي سيقوم به.

المدرب نبيا: فتحوا قلوبهم ليسمعوني، فتكلمت ثلاث ساعات متواصلة. أحسست أنني يسوع فوق جبله يكرز. وسرعان ما ندمت. فأغرقتهم بالتمارين، ثم اشتغلت معهم. كان ذلك في محطة تلفزيونية. جيء لي بمعظم العاملين فيها، فوعظتُ كثيرًا كما شاءوا، ولكنني قضيتُ ما تبقى من الأيام الثلاثة في شغل شاغل. في كل يوم اشتغلنا ثلاث عشرة ساعة. وانتهت الدورة التي هي من نوع «عقر الدار». كثيرة هذه الدورات

التي يغزو فيها المدرب الناس في عقر دارهم، فيعلّم كأنه السيد المسيح مثلما فعلت، ويعطي التمارين مثلما فعلت، ويشغل معهم مثلما فعلت. لكنني لا أنصح المدرب بأن يفعل مثلي ويقف على قدميه ثلاث ساعات واعظًا، حتى لو أبدوا له حسن الاستماع. وعمومًا فالله يغفر ما هو أسوأ من ذلك.

في تلك المحطة التلفزيونية كان ثمة تعطّش، وبدا ذلك واضحًا أكثر وأنا أشتغل معهم. وقد أكرموني حدّ الخجل، ليس لأنني كنتُ متبرعًا بالدورة، بل لأنهم كانوا معنيين بما يعملون، والمحطة كانت تصعد. نسيت إن كنت أعطيتهم أي أوراق. وأرجو ألا أكون فعلت.

في محطة أخرى كنت أبحث عن الناس في الممرات لكي أدرّبهم. ورزقني الله بفتى وفتاة التصقابي التصاقًا، وأخذنا مجموعة نصائح لا أدري إن كانت مفيدة أم لا. فرقٌ بين أن تذهب إلى محطة تريدك ومحطة تراك شرًا لا بد منه. في تدريب «عقر الدار» كن نبيًا، عش معهم واحدًا واحدًا وفريقًا فريقًا، وكن القدوة الحسنة، وتوقع أن يركبوك بالحجارة... غالبًا لأن الإدارة سيئة ومعنويات العاملين هابطة.

أول ما يميز التدريب في «عقر الدار» أن المتدربين غير متفرغين لك. فهم يتدربون في أوقات الفراغ فيما بين البرامج والنشرات. ويميز هذا التدريب أن كل متدرب يريدك أن تشهد له أمام رئيسه بأنه متفوق.

«جلسة التشريح» توفر مجالًا جيدًا للتدريب في «عقر الدار». آخر تدريب من هذا النوع مررت به كان قبل نحو ستة أشهر. المتدربون ستة أو سبعة، وهم يُنتجون برنامجًا إذاعيًا يوميًا طوله ساعتان، حيًا على

الهواء. كان التدريب مقسومًا على جلستين بينهما شغل، جلسة في الصباح أثناء الإعداد للبرنامج، ولا تخلو من بعض النقاش العام، ثم يذيعون برنامجهم وحدهم، وأنا أستمع بعيدًا. وفي جلسة التشريح كانوا يلتقطون أخطاءهم خطأ خطأ دون أدنى حاجة للمساعدة من جانبي. وما كنت أتكلم إلا لأن شهوة الحكيم كانت تغلبني. كانوا أعرف مني بأخطائهم.

مصارحة: المقال الذي فرغت لتوَّك من قراءته كان يملأ ٥٤ صفحة على حاسوبي، ورميت بثلاثه في عملية تحرير قاسية، فما قرأت إنما هو الثلث. كنت أريده كتيبًا عن التدريب الإعلامي، ثم عدلتُ عن ذلك ورميته في حاسوبي. فإن وجدت في المقال قفزات فهذا ليس بسبب عملية التحرير، إنما لأنني هكذا أكتب، بتحرير وبغير تحرير.

الصحفي الشامل

للتخصص مزاياء، وللموسوعية مزاياء.

يصدق هذا في الطب وفي علم اللغة، ويصدق في كل علم، وفي كل صناعة.

في الصحافة تجد المتخصص في جانب محدد لا يكاد يتجاوزه إلى غيره إما تقصيراً وإما لقلة الحاجة إلى ذلك، وتجد الذي جمع من كل روضة زهرة، إما لأن ظروف عمله اضطرته إلى أن يصنع أشياء مختلفة، وإما لأنه لا يحب أن يتخصص.

وقد انتقد أوائل الاشتراكيين الرأسمالية، من ناحية ميلها إلى التخصص، انتقاداً كان الباعث عليه إنسانياً. قالوا: إن مما يؤذي الإنسان أن يقوم بعمل رتيب متكرر طوال الوقت. وإن مما يزيد من إنسانيته وسروره أن يقوم بمراحل العمل المختلفة حتى يرى في ختامها ثمرة جهده فيشعر بتحقيق الذات. ولئن كان ذهن أولئك المنتقدين منصرفاً في الأساس إلى عُمال المصانع ممن يعملون حركة واحدة لا يُغيّرونها طوال نهارهم، فالنقد يصدق على مستويات أخرى.

عندما كان الأمريكي بنجامين فرانكلين يصدر جريدته، قبل نحو مائتي سنة، كان يكتبها ويصف حروفها ويطبّعها بيديه. الصحفي الشامل مطلوب في الدول المتخلفة والمتقدمة على حدّ سواء.

شهدت بنفسى موجة من المطالبة الإدارية بتدريب الصحفيين ليكونوا من نمط الصحفي الشامل فى دولة من دول الغرب الصناعي هى بريطانيا. كنت أعمل فى القسم العربى بهيئة الإذاعة البريطانية.

عندما بدأت عملى فى عام ١٩٨٨ كان مطلوباً أن أترجم من الإنجليزية إلى العربية، وأن أقدم بعض التقارير على الميكروفون. سارت الأمور على هذا النحو حيناً من الزمن. ثم أطلقت الإدارة شعار «الصحفى الشامل».

كان تفسير الشعار أشمل حتى من منطوقه. صار عليّ ألا أكتفى بالترجمة والقراءة، بل أن أجري المقابلات الإذاعية السياسية، الأمر الذى أخرجني من عالم المترجم والقارئ، الذى يفرض التزاماً بالنص، إلى عالم الصحفى الذى لا بُدَّ له من معرفة واسعة بالأحداث وبالتارىخ المعاصر لاثنتين وعشرين دولة عربية ولمؤسسات كثيرة، ليس أقلها أهمية الأمم المتحدة. غداً واجباً عليّ أيضاً أن أدير استديو المقابلات هندسيّاً، وأن أسجل موادّ فى الاستديو الذاتى التشغيل، وهنا دخلتُ إلى مهنة فنى الصوت. وطُلبَ منى أن أؤدي مهنة المذيع كاملة بما فيها من مراعاة للزمن وإعداد وتقديم عروض البرامج، وتقديم البرامج الإخبارية. ثم كان لا بد فى مرحلة لاحقة أن أكتسب مهارات كافية فى مجال الطباعة على الآلة الكاتبة الكهربائية، وسرعان ما حل الكمبيوتر محلها وغداً لزاماً عليّ أن أتعلم تشغيل الكمبيوتر.

رغم وجود نحو سبعين صحفىّاً فى القسم الذى كنت أعمل به، فقد اقتضى تطور التكنولوجيا، وطموحُ الإدارة إلى رفع مستوى الأداء،

التراجع عن شعار التخصص لصالح شعار «الموسوعية». والآن أنظر إلى تلك التجربة، مستفيدًا من مرور الزمن عليها، وأرى أن الموسوعية عززت قدرات العاملين، وجعلتهم صحفيين إذاعيين أفضل.

دواعي الموسوعية

إنّقان المرء علومًا وصنائع شتى يجعله أقرب إلى رؤية الصورة الأعم، ويجعله أكثر إنقائًا لموضوع تخصصه. ويتم التعبير عن ذلك عادة بأن فلانًا يملك «سعة الأفق». ولكن التوسع قد يفضي، أيضًا، إلى السطحية. وأرى هذا شبيهًا بالسفر؛ فكثرة الأسفار تجعل العاقل المفكر أعمق، وتجعل الأهوج السطحي أكثر سطحية.

تفرض الجامعات على طلبتها مساقات دراسية لا تتعلق بتخصصهم، وهي بهذا تعبّر عن يقينها بأن التوسع يخدم العمق أيضًا. لو أردت أن تحفر في حديقة بيتك حفرة عميقة فلن تستطيع تعميقها كثيرًا إلا إذا وسّعت فوهتها.

التخصص الزائف

يباهي بعض أصحاب المصالح الصحفية بارتفاع مستوى التخصص في مؤسساتهم مباهاةً ليست دائمًا في محلها؛ فهذا خبير في التركيبات الجرافية لا يصنع شيئًا سواها، وذاك مصور تلفزيوني ليس له معرفة بالإضاءة ولا بالسياسة ولا باللغة. ذلك ليس مبايهاً به. فالعقل الإنساني قادر على استيعاب الكثير، ومن قلة الحيلة ألا نطالبه بالتوسع مع التعمق. في كثير من المؤسسات الحكومية نشهد ظاهرة التخصص

الزائف؛ وهي تؤدي إلى توظيف أشخاص كثيرين لتسليك عمل دائرة معينة، مع أن عددًا أقل بكثير يمكن أن يقوم بالعمل لو كان لديهم المعرفة والمهارات اللازمة. التخصص الزائد قد يكون مفتاح الكسل، وعلامة على التبذير وسوء الإدارة. على أننا لا نغفل العكس.

الموسوعية الزائفة

قد يرى المرء محطة تلفزيونية يعمل بها عدد قليل من الأشخاص؛ كلهم يصور، ويجري الحوارات، ويشغل بالمونتاج، ويصلح أجهزة البث. ومن المؤكد أن مستوى الأداء في كل مهمة سيكون أقل مما لو توافر التخصص. ولعل الوصفة التي تحقق التوازن هي أن تتوافر الموسوعية مع وجود حقل اختصاص في الوقت نفسه، وعند كل شخص، كأن يكون الشخص متخصصًا في التصوير التلفزيوني، ولكنه قادرٌ على أداء أعمال أخرى وقت الحاجة.

في كل وضع وزمن هناك قياس مختلف لدرجة التخصص المطلوبة. في الماضي كان نيوتن وغاليليو موسوعيين، وفي زمننا لا نكاد نجد أحدًا من العلماء يصل إلى اختراع أو اكتشاف بمفرده. لقد زاد كثيرًا تطور العلم، ولكن اختفت أسماء مشاهير العلماء، فهم يعملون ضمن فرق كبيرة فيها تخصصات مختلفة.

وفي الصحافة، قد يحتاج المرء إلى أن يكون بارعًا جدًا في موضوع بعينه حتى يشتغل في جريدة كبيرة. ولكنه يجب أن يكون ملهمًا بمواضيع كثيرة إذا أراد أن يعمل في جريدة محلية صغيرة.

مهارات الصحفي الشامل

تُحدِّثنا النادرة، أو لعلها الأسطورة، أن يونس بحري -الإذاعي العراقي المشهور الذي كان يعمل في إذاعة برلين قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها موظفًا في الجهاز الدعائي لغوبلز وزير الدعاية النازي- كان إذا علقت أسطوانة القرآن في الفونوغراف رفع الإبرة برشاقة وأكمل التجويد بنفسه، فلا يشعر المستمع بأن شيئًا قد حدث. وهذا يقتضي أن بحري كان يحفظ القرآن، وأنه كان يقرؤه مجوِّدًا بإتقان يقرب من إتقان المقرئ.

هذه الحكاية، وقد سمعت إذاعيين يرددونها بإعجاب، تشير إلى الاحترام الذي يتمتع به المذيع الموسوعي. كان يونس بحري، بعيدًا عن الحكايات التي لا نملك لها توثيقًا، واسع الاطلاع مثقفًا حقًا. ولكن كما رأينا، فقد وضع كل هذه القدرات بين يدي نظام ديكتاتوري عنصري. إذن، فليكن «فهم الرسالة» أول ما نبدأ به ونحن نعدد مهارات الصحفي:

١ - فهم الرسالة: على الصحفي أن يعرف جمهوره، وأن يعرف واجبه إزاء هذا الجمهور. فالذي يوجِّه خطابًا إعلاميًا لعدوه، يختلف عمَّن يوجِّه كلامه لأبناء بلده، وعمَّن يخاطب جمهورًا مركَّبًا كمراسل الفضائية. وقد يضطر الصحفي إلى عدم الالتزام تمامًا بمبدأ «قل الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق». ترى أجهزة إعلام وطنية تمنع الصحفي العامل معها من تغطية بعض المشاكل في داخل البلد، فهو عندئذ لا يقول «كل الحق». لا بأس.. المهم ألا يكذب. هناك فرق بين مؤسسة صحفية تخدم الوطن، وأخرى تخدم الحكومة، وثالثة تخدم جناحًا معينًا داخل الحكومة. وأفضل مؤسسة رابعة وأقدمها حتى على التي تخدم الوطن: مؤسسة صحفية تلبّي حاجة المواطن للمعلومات والأخبار.

ومن أهم مشكلات صحافة الدول المتخلفة أنها لا تهتم كثيراً بمعرفة جمهورها وبمخاطبته بصدق وإعطائه ما يحتاج إليه من معلومات. وفهم الرسالة وتمثلها يحتاج إلى تدريب وإلى غير قليل من الجهد الأصلي في صياغة الرسالة.

٢- اللغة الأم: يحتاج الصحفي إلى إتقان لغته الأم بحيث يؤدي بها المعاني بدون خطأ، وبدون أن يضطر إلى تغيير ما يريد قوله فقط لأن اللغة لا تطاوعه. صاحب اللغة السليمة ترتفع مصداقيته. ويحتاج الإذاعي من النحو والصرف إلى أكثر مما يحتاج إليه الصحفي الكاتب. وقد يحتاج إتقان العربية إلى زمن طويل ممن لم يُنشأ على الفصحى، وقد رأيتُ صحفيين شاخوا في المهنة ولما تعتدل العربية على ألسنتهم أو على سنن قلمهم. لغتنا الفصحى لغة أجنبية نكتسبها في الأكثر تعليمًا لا فطرة. ومشكلتنا، نحن العرب، مع اللغة أكبر من مشكلة أقوام آخرين.

٣- اللغة الأجنبية: لم يعد الصحفي جديرًا بالترقي في مهنته ما لم يملك زمام لغة أخرى وأخص الإنجليزية، أو بدرجة ثانية الفرنسية. مهم أن تصبح اللغة الأجنبية مفيدة كمصدر للمعلومات. بلدنا في وسط العالم، وهو محط اهتمام العالم، ولا سبيل إلى التغاضي عن ضرورة إتقان اللغة الثانية. الوصول إلى «فوق» في مهنة الصحافة لن يتم بدون لغة أجنبية.

٤- الكتابة: ليس سهلاً أن يتعود المرء الكتابة السهلة التي ليس فيها تزويق ولا كليشيات. ليس سهلاً أن ينتقل المرء من موضوع الإنشاء -الذي تراه أكثر مدارسنا محض كتابة مزوقة فارغة من المعنى- إلى

الكتابة الصحفية الجيدة. أهم مُعلّم للكتابة الجيدة قلم رئيس التحرير الذي يشطب بلا هوادة.

٥- الثقافة العامة: الصحفي قد يعمل في الأخبار، أو في تحرير الصفحة الثقافية، أو في تقديم وإعداد البرنامج الصحي في الإذاعة. لا غنى عن الثقافة العامة، حتى لمن يعمل في الأخبار. الثقافة العامة تضم الموسيقى، وقد رأيت مذيعين يعملون في إعداد البرامج الموسيقية وهم لا يحبون الغناء ولا الموسيقى ولا يفقهون شيئاً في الموضوع، ورأيت كيف تخرج من بين أيديهم برامج سيئة. الفنون التشكيلية جزء من الثقافة. العلوم الطبيعية جزء من الثقافة. والجغرافيا فرع من الفروع لا غنى للصحفي بحال عنه. وفي الجغرافيا جانب بسيط يهم الصحفي كثيراً وهو تصور الخريطة في الذهن. معرفة الخريطة تمثل إطاراً يضع الصحفي فيه معلوماته عما يجري في العالم.

٦- معرفة البلد: على الصحفي أن يعرف ما بالبلد من مؤسسات وأفراد. وأن يتعمق في فهم دورها ونشاطاتها، وسليباتها. ففي الصحافة، إذا بُنيت عمارة فهذا ليس خبراً، أما إذا انهارت عمارة فهذا خبر. إن معرفة الصحفي بمواطن الخلل في بلدية أو وزارة يساعده في تغطية انهيار العمارة، أو استقالة الوزير، أو الفضيحة المالية ... إلخ.

٧- أساس المهنة: كيف يُجري الصحفي الإذاعي مقابلة ناجحة، وكيف يجعل سؤاله قصيراً واضحاً مفرداً منتهياً، لا طويلاً غامضاً مزدوجاً يجبر نفسه جراً حتى يتبرع الضيف بمقاطعة الصحفي السائل؟ هذه ليست موهبة. إنها مهارة قائمة على معرفة. يحتاج الصحفي إلى أن يتدرب،

وإلى أن يسمع نفسه، وأن يسمع انتقادات رؤسائه. عليه في مجالات شتى أن يصل إلى معرفة الأسس، ثم أن يُحوّل معارفه إلى مهارات، ثم أن يحول مهاراته إلى سلوك يأتي طبيعياً تلقائياً. ومن الأسس التي قد يجدها الصحفي في الكتب ما يتعلق بالموضوعية والحياد ونكران الذات، بحيث لا يعطي الصحفي رأيه هو، ومنها طريقة التعامل مع استطلاعات الرأي، وكيفية تغطية الانتخابات، وكيفية التعامل مع الأطفال، ومنها قانون التشهير وكيفية الالتزام به، لكن دون الخوف الذي يجعل الصحفي مشلولاً غير قادر على تغطية شيء. ومن قواعد المهنة معرفة كيفية الجمع بين المعلومة والخبر والتسلية جمعاً ناجحاً. هذه الأمور تُعلّمها كلية الإعلام الجيدة (هل هناك شيء كهذا؟)، ولكن خير من يُعلّمها المؤسسة الصحفية القوية المحترمة في خضمّ العمل. ولم أجد جامعات بلادنا تُعلّم أساس مهنة الصحافة جيداً، وأما عن مؤسساتنا الصحفية فلم أجد القوية المحترمة بعد.

٨- المهارات التقنية: إتقان العمل على الكمبيوتر والطباعة واستعمال الإنترنت غدت من أساسيات كل شيء. كاتب المقال الذي يأتي به إلى الجريدة كومة أوراقٍ شخصٍ انقرض.

٩- المتابعة: الشاعر الحالم الذي يقرأ الدواوين والروايات، ثم لا يعرف في الدنيا شيئاً آخر، مخلوق رأيناه يطرُق أبواب الصحف، ورأيناه يصرُّ على وجوب أن يحتلّ أرفع المناصب، ورأيناه أحياناً يطالب أن يكون محرر الصفحة الأدبية. لا ينفع. لا ينفع حتى للصفحة الأدبية. فالصفحة الأدبية -نعم حتى الصفحة الأدبية- هي خبر ومتابعة، وليست لمجرد نشر الأشعار والخواطر. على الصحفي أن يكون عارفاً بما يجري،

وأن يقرأ الجريدة كل يوم، وأن يتابع التطورات في كل العالم ولا سيما في بلده. وعليه أن يتابع الشائعات وهمس الكواليس، وهو مطالب طبعا بتجاهل كل ما لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، ولكن الشائعة قد تكون صادرة عن مكان فيه خبر ما.

١٠ - السرعة والإحساس بالزمن: ربما لا يرضى الصحفي عن تقريره، لا من ناحية الصياغة ولا المعلومات، ولكنه في النهاية مطالب بتسليمه في الموعد. التقرير إذا بات مات. قد يكون على الصحفي أن يحذف ما لم يتمكن من تأييده بالمصدر الملائم، وأن يقدم مادة غير مترابطة في صياغتها كل الترابط. لكنه دائما يجب أن يكون سريعا في العمل، وشديد الحساسية تجاه الموعد (موعد إذاعة البرنامج، أو موعد دفع المادة للمطبعة).

أخيرا: تلك كانت عشر مهارات. لكن لو كددت الذهن لكنت خرجت بثلاث أو أربع آخر. أن تصنع من نفسك صحفيا أمر يحتاج إلى جهد. وقد رأيت عددا من خريجي الصحافة يتحدثون عن أنفسهم وكأنهم صحفيون، ورأيتهم يشكون شكوى مرة؛ لأن أصحاب المؤسسات لا يوظفونهم. من أراد من الصحفيين الجدد أن يعرف قدر نفسه فلي نظر إلى المهارات العشر أعلاه.

المدير جهرة كبيرة

«أنا لا أشتغل بيديّ، أنا مدير»، و«الذين تحت يدي يقومون بالعمل»، و«أنا فقط أشرف عليهم»، ما رأيك بهذه الأقوال؟ صدّق أو لا تصدّق: فيها قدر كبير من التفكير السليم.

نحبُّ أن يكون المدير بيننا، وأن يوسِّخَ يديه بالعمل معنا أحياناً. لو أمسك مراقب العمال بيده المجرقة ذات يوم، وأخذ يسوّي الحصى «الملغمط» بالزفت أثناء تعبيد الشارع فإنه سيشعر شعور العامل. لكن، لو ظل المراقب يشتغل بيديه، ويساعد العمال كل يوم فإنه سيكون مخطئاً. سيتحول عندئذ إلى عامل، لا إلى مراقب عمال، وسيفقد التركيز على ضبط مستوى العمل وإتقانه في الورشة. مدير الإذاعة الذي يعشق الميكروفون مصيبةٌ من المصائب، إنه يزاحم المذيعين، وبالتدرّج تترسخ لديه قناعة بأن طريقته هي الطريقة المثلى؛ ويريد أن يحمل الآخرين على اتباع طريقته.

لا يجوز للمدير أن يشتغل كثيراً، ولا أن يصادر دور من يعملون معه. عليه أن يُديرهم، وهذه أفضل خدمة يقدمها لهم. المدير يحاسب بالثواب والعقاب، ويُشجّع، ويجعل سواعد العمال أو الموظفين الذين تحت يده تُقدِّم أكبر كمية من العمل. كثيراً ما يكون المدير الذي ينغمس في العمل بيديه ضعيفاً في الإدارة.

أشبه المدير بالجمرة الكبيرة في موقد رجل يدخن نار جيلة التنباك.
ورأس التنباك في هذه النارجيلة قبة مديبة تحمل فوق قمته جمرة صغيرة
أو اثنتين. أنت تأخذ لرأس النارجيلة الجَمَرَاتِ الصغار، وأما الجمرةُ
الكبيرة فلا تستعملُها. وتنتهي من نارجيلتك وتقوم ولمّا تستعملِ الجمرة
الكبيرة. لا تقل: يا للخسارة، ذهبت هذه الجمرة الرائعة سدى! لا، الواقع
أنّه لولاها لما استمرت الجَمَرَاتِ الصغار في الاتقاد.

الجمرةُ الكبيرة كالمدير: تعطي الطاقة والعزم والاستمرارية، ولكنها
لا تقوم بالعمل بنفسها. ولو وضعت المدير فوق رأس النارجيلة لأحرقت
التنباك، وأحرقت صدرك، وربما أيضًا السجّادة.

الوثائقي قصة

الوثائقي قصة. ويصوّر العرب على أنه قصيدة. الوثائقي العربي كومة من الأغراض الشعرية: من وقوفٍ على الأطلال ونسيب ووصف للناقة ونظرة للحياة وافتخار بالقبيلة ثم ... لا خاتمة. على الطريقة الجاهلية. وتراه دفقات شعورية هائلة، وموسيقى تقطّع القلب في بعض المواقف، ودراما مبالغاً فيها في مواضع، إلى أن يكون الختام بنواحٍ على الفردوس المفقود.

هذا ليس ناجحاً مع وجود الريموت كونترول. الناجح هو الوثائقي الذي يشدّك.

قد تكون القصة فيه مجرد تسلسل زمني للأحداث، فالمشاهد يترقب ما سيحدث في الدقائق القادمة، ويبقى يلحق الجزيرة إلى أن يصل إلى البيت فيأكلها ... أو لا يأكلها في النهاية المفتوحة.

وقد تكون القصة مجتلبة مقحمة. وهذا ينفع أيضاً. ومثاله عندي ذلك الوثائقي الأمريكي المسمّى صناعة جندي، وموضوعه محاولة القوات الأمريكية في العراق خلق جيش عراقي جديد. فنحن نتابع قصة جندي عراقي بعينه، ونتحفز لنرى كيف سيمر في مراحل الدورة. في الربع الأول من الفيلم نرى سيارة غربية قرب المعسكر تصطفُ بجانب منزل، وتثور الشكوك بشأنها. ونعود إلى قصة ذلك الشاب، ونراه في التدريب: مصارعة، وقفز ... إلخ. ودروس في

القاعة ينام خلالها بعض المجندين، وعراك بين عرب وأكراد، ونعود للسيارة فنراهم أحاطوها بنطاق، وبدأ خبراء المتفجرات يبحثون أمرها. ونعود للتدريب ولمشكلة الشاب المجند مع الأوامر الصارمة بحلق الشاربين، ومعاندته للحلاق وضحك زملائه من الأمر. ثم السيارة وقد اختلف الأمريكيان والعراقيون بشأنها: فالعراقيون يريدون استنفاذها ونزع الأسلاك المريبة المتدلية من أسفلها، والأمريكان يريدون مخابرة فرقة التفجير لتأتي من الموصل. ونعود للتدريب، والاستعدادات على قدم وساق للتخرج. ونعود للسيارة، ونراهم يؤكدون أن فيها أسطوانات متفجرة، وأنها في غاية الخطورة. ثم تقرر أن يتم تفجيرها، ونراها تتفجر. ونعود سريعاً إلى المعسكر فنشاهد حفل التخرج.

الغرض من الفيلم عرض عملية صناعة الجيش الجديد بمشكلاتها. ولكن القصة التي تشدني، وتشد حتى أي شخص ليس لديه اهتمام كبير بالعراق، هي قصة السيارة وقصة الشاب المجند.

والقصتان اللتان تنتظمان هذا الفيلم مقحمتان عليه. وأنا على شبه يقين من أنهم صوّروا السيارة وكل ما يتعلق بها في ساعتين، ثم فرقوا المشاهد على طول الفيلم. ولعلمهم تابعوا المجند بطل الوثائقي على مدى الأيام الخمسة الأخيرة من الدورة فقط، ولكنهم أعطونا إحياءاً بأننا حضرنا الدورة من أولها إلى آخرها.

الوثائقي قصة، فأما عرض الحالة المريبة لقرية عربية لم تصلها المياه ولا الكهرباء بأن نسمع أهلها يشتمون الحكومة، وعرض صور للقرية من

زوايا مختلفة، وبإضاءة بارعة فهذا كله حواشٍ. أين القصة التي ستجعلني أشاهد.

حتى حبة الدواء فإنهم يغلفونها بغلاف من السكر. والغلاف في حالة الوثائقي مهم أكثر. ليس صعبًا اختلاق قصة مقنعة ترافق الوثائقي. وخيرٌ من اختلاقها أن تكون حقيقية، والأفضل أن تكون القصة هي الموضوع. وهذه الأخيرة لا تتسنى كثيرًا.

الوثائقي يَمِيع

بعض مخرجي الفيلم الوثائقي استولت عليهم شهوة السينما، فأمعنوا في توسيع المنطقة الرمادية الفاصلة بين ما هو تسجيل للواقع، وما هو تمثيل.

وكما في كل فن من الفنون فإنه تأتي فترات تتميع فيها «الجناري» أو الأجناس الفنية. ذلك شيء يصنعه أهل الفن؛ إما ثورة على القيود، وإما عجزاً عن الإبداع ضمن القيود.

والفن قيد، والصناعة قيد.

وأوصل بعضهم الفيلم الوثائقي إلى أن يصبح تمثيلاً كله. وأوصل بعضهم الفيلم الروائي إلى أن يتعهد الالتزام بما حدث حقاً وفعلاً، حتى أنك صرتَ تحشره في زمرة الوثائقيات.

وأضرب مثلاً على كل فئة.

السلسلة الوثائقية التي أنتجتها البي بي سي بعنوان: أيام هزّت العالم في أربع وخمسين حلقة؛ إنها تعتمد الإثارة، والانتقاء من الواقع على نحو يحملك على أن تستبدل بالواقع الذي درسته في كتاب المدرسة الصورة الجديدة التي رسمها لك الوثائقي. حتى في وجوه الشخصيات المهمة فأنت مدعو إلى أن تمسحها من عقلك، وتضع بدلاً منها صور الممثلين الذين يقومون بالأدوار. ومع تعمّد الإثارة تضطرب أهمية

الأحداث في ذهن المشاهد، فلا يعود قادرًا على أن يزن قيمة الحدث بمرور. فربَّ حدث صغير يتم تكبيره، وحدث كبير يتم تجاهله، كي يصل المخرج إلى حجم الإثارة المنشود، وكي يجعل قصته حلوة. وليس هذا سرًّا كله: فالفيلم الوثائقي المصنوع بهذه الطريقة أمتع وأكثر جاذبية لمعظم مشاهدي التلفزيون. لكن المتعلمين تعليمًا جيدًا يشعرون بالملل سريعًا: يشعرون أن المخرج - حتى وإن بحث موضوعه بعمق - يريد تكثير قطيعه، لا تعميق الفهم لدى مشاهديه. وهو يستغل عمق بحثه، وتوافر مستشارين جديرين لديه في جانب المعلومات والحقائق، لكي يتجنب الوقوع في خطأ في التفاصيل. فأما الخطأ في الرؤية عمومًا فهو غارق فيه إلى أذنيه.

والمثال الثاني فيلم السقوط، وهو فيلم روائي ألماني نمساوي أخرجه أوليفر هيرشبيغل عن الأيام الأخيرة لأدولف هتلر. والفيلم مستند إلى تسعة كتب كبيرة. التزم المخرج بالحقائق التزامًا حرفيًا وجنَّد الباحثين وأنفق المال حتى يكون فيلمه صورة صادقة لما حدث. ولم يقدم تفسيرًا للتاريخ، ولم يُكثر من الانتقائية التي يراها كثيرون مرغوبة في الفيلم الروائي التاريخي.

أرى أن الفيلم الروائي يستطيع الاقتراب من الوثائقي بدون خطر كبير. وأما الوثائقي فهو أكثر هشاشة.

الفيلم الروائي التاريخي يظل فيلمًا روائيًا، يظل رواية، حتى لو صوِّر الواقع بتفاصيله الدقيقة؛ ذلك أنه قائم على الممثلين، ومحافظ على عموده الفقري الكبير: الحكاية. فهو محافظ على عنصرين أساسيين:

التمثيل والواقع. فأما الوثائقي فهو عندما يوظف عنصر الممثلين يصبح معرضاً لعدد من المشكلات: انخفاض تصديقنا بأنه نقل الحدث كما حدث. وتسريبه صورة بصرية مشوهة إلى الذهن مختلفة عن الواقع، وفي هذا تشويه لمعرفتنا بالحدث.

القصص الجميلة كثيرة، وأجملها ما كان له أساس في الواقع، ثم تعرّض للتحريف على يد قاصٍّ ماهر.

القصة أجمل من الواقع، وأكمل، وأشدُّ سلاسة ومنطقية من الواقع، وأحداثها مرتبة ترتيباً يساعد على التلذذ بمشاهدتها. والوثائقي يستعين بالقصة كي يصبح مسلياً. ولكنه قد يزداد اعتماداً عليها فيُزَوِّرُ الواقع بالانتقائية.

ليست هناك وصفة صحيحة للوثائقي وأخرى للروائي، وستظل الحدود بينهما رماديةً. ولكن اتساع الشريط الحدودي سيزيد من الوهم في هذه الدنيا، وسيكون مثار سخط الأكاديمي الحريص على الحقيقة التاريخية.

أسوأ ما في الخلط الحاضر بين الوثائقي والسينمائي تسلل مخرجين تلفزيونيين إلى مجال يقتضي رؤية فنية لا يملكونها. وقد صرّت ترى كثيراً من الوثائقيات الرديئة يحاول أصحابها تحسينها بإضافة بعض المشاهد التمثيلية إليها. ويعمد بعض هؤلاء إلى استخدام مصطلح «الدوكيومدrama» هراوة يقرعون بها رؤوس النقاد. وكأن توافر مصطلح يجمع الملح والسكر يجعل الشراب سائغاً.

سمُّوها «دوكيودراما»، أو أي اسم آخر، المهم أن تكون المادة جيدة. وكون التوجه ذا بعد عالمي لا يجعله جيدًا. فالأزمة المالية عالمية، والإيدز عالمي.

إذا استمر هذا التميُّع الذي يتعرض له الوثائقي، فقد نشهد ردَّة إلى الفيلم التوثيقي الصَّرف. وسوف نتقد هذه الردَّة، مثلما نتقد التميُّع الحاضر.

إيجابيات الوثائقي وسلبياته

الإيجابيات أولاً

- ١- معلومات وفيرة ومهمة وجديدة وسهلة على الفهم.
 - ٢- إبهار بصري ومونتاجي مريح للعين ومثير للانتباه في آن.
 - ٣- تأثير عاطفي: تعاطف مع شخصيات الفيلم وأحداثه أو ضدها.
 - ٤- وجود قصة: الفيلم يروي قصة.
 - ٥- القفزة الذكية: النص يخاطب الصورة بشكل فيه كوميديا سوداء أو بيضاء، والموسيقى تتكلم مع الصورة.
 - ٦- المصدقية العالية: الكاميرا في قلب الحدث، وكل شيء ترى مقدماته سترى تجلياته لاحقاً. يشعر صانع الفيلم أنه مُلِمٌّ بالموضوع، وأنه يجيب عن كل سؤال يخطر ببالك وأنت تشاهد. لا تكاد تفكر بشيء إلا وتراه ماثلاً أمامك.
 - ٧- خفة الظل: هذه من عند الله يؤتيها من يشاء.
- أخذ المريض قارورته إلى محلّل البول وهي طافحة. قال له المحلّل: تكفيني نقطة واحدة، ومنها أستطيع أن أخبرك بدقة متناهية عن السكرى والنقرس وعشرين علة أخرى. لكن عموماً أشكرك على هذا السخاء.

وجاء المخرج الوثائقي للمشاهد بفيلم عن حادثة «الانفجار»، وسمعنا في الفيلم خمس نساء يولولن، وخمسة رجال يلطمن (هكذا بصيغة المؤنث)، وصبية يشرحون ما حدث، وبدأ النص يعدد الإصابات فهناك ثلاثة أصيبوا في الصدر، وسبعة باختناق من الغاز، وعشرون أصيبوا بشظايا، وخمسون أصيبوا بصدمة. ونسمع شهودًا على الحدث بعضهم رأى فعلاً، وبعضهم سمع من ابن الجيران. ولا بد من تصوير لعبة طفل مرمية بين الزبالة (طبعًا وضعها المخرج بعناية وقال للمصور: صور لي هذه).

أيها المخرج نقطة البول تكفي، ووجه جهودك إلى التعمق في الحدث ودلالاته، واخرج منه بسرعة واترك «السيكوانس» أنيقًا مختصرًا في ثلاث دقائق، وامض بعد ذلك إلى «سيكوانس» آخر.

السليبات

١- مقدمة طويلة تُشعرك أنك ضائع، ولا تبدأ تفهم إلا بعد مرور عشر دقائق.

٢- الصور تلزيق: الصور قليلة العلاقة بالنص، والمشاهد بحاجة إلى شرح طويل كي يعرف لماذا جاءت هذه الصورة هنا.

٣- خذها لأنني تعبت في تحصيلها: استعمال صور ونصوص ومقتبسات لمجرد أننا تعبنا في الحصول عليها.

٤- بطء الإيقاع.

٥- المبالغة: مونتاج معقد، وموسيقى فاقعة، ونص متفجر على قضية لا تستحق كل هذا. الجنازة حامية والميت كلب.

٦- الإخراج المتحذلق: مشاهد تمثيلية لا ضرورة لها، وزوايا تصوير عجيبة ولكن لا تخدم شيئاً، وتقطيع المقتبسات وتوليفها بشكل مبالغ فيه لتسريع الإيقاع بصورة مصطنعة.

٧- ضعف التعمق في فهم الموضوع، والاكتفاء بعرض الظواهر.

٨- النص المتحذلق (سواء أقاله المذيع أم الضيف): كلام عن «الاستبطن المنكسر في ذاته».

٩- يلا يا شاطرين: كلام مدارس: «ولكي نتعرف إلى جوهر المشكلة لا بد لنا من التوجه إلى طنطا»، «وبما أن الصناعة من المقومات المهمة لحياة الأمة، فقد أدى ضعفها إلى تدني الدخل القومي». في الوثائقي الرديء يصر النص على أن يكون ثنائياً.

١٠- السلق: أن يكون الوثائقي مسلوفاً. ثمة تسع وعشرون طريقة لتحقيق هذا الهدف.

١١- السلام عليكم، عليكم السلام: أن يدور الوثائقي كله على قضية محسومة. مثال: «العشوائيات رديئة. إنها رديئة. إنها غير صحيحة، والذين يعيشون بها بشر، وبالمناسبة هم يملكون من الإنسانية ما يملكه كل الآخرين». طيب! موافقون. وبعدين. انتهى الفيلم، وليس هناك «بعدين». إذن لماذا الوثائقي أصلاً؟

١٢- التطويل بلا مسوّغ: لقطات كثيرة بالتصوير البطيء، حديث عن مقال في مجلة قديمة ثم صورة المجلة تقترب شيئاً فشيئاً، ثم خبط وضرب مفاجئ وموسيقى. ثم يلف الفيلم ويدور لكي يقنعنا بأن المقال كشف المُخَبِّأ، وبعد دقائق عديدة نفتنع كلنا بأن أهمية المقال هي فقط أن السيد المخرج حصل على صورة له.

١٣- استعمال الجرافكس للزينة، وعدم تنسيق المخرج بما يكفي مع فنان الجرافكس.

١٤- أخطاء في اللغة.

١٥- أخطاء في المعلومات. وأسوأ منها وجود معلومات لا تخدم الخط الأساسي للفيلم. والنصيحة للمنتج: إذا توافرت عندك كمية كبيرة من المعلومات عن موضوع ما، فخذ إجازة واكتب كتاباً. في الوثائقي نطالب المنتج بجمع كمية كبيرة من المعلومات ليكون على وعي بموضوعه، ونطالبه باستخدام الضروري فقط منها. قالت أدبية نسيت اسمها: «ثقل الدم أن تقول كل شيء».

١٦- كواد كالكندر: كادر معتم وصارم لموضوع بهيج، أو كادر غير مُرتَّب، أو كادر فيه عناصر كثيرة مشتتة مثل جهاز تلفزيون خلف الخبير الضيف ييث برامج معينة، ومع كل ظهور للسيد الضيف نشاهد برنامجاً مختلفاً. أو كادر مشغول جدّاً، ومليء بالافتعال.

١٧- التعويض عن الصوت الطبيعي بتخليط موسيقي.

١٨- الصورة تأكل النص: نصٌّ عن «القراءات المختلفة لمشروع القانون»، والصورة التي فوق النص صورة أحد النواب في الأردن

يعضُّ أذن زميله، وعركة طويلة. طبعًا لن نسمع النص مع قوة الصورة. إذا كانت الصورة قوية فاسكت. وصورة لوثيقة فيها نص نراها على الشاشة بحروفها المقروءة، لكن النص مختلف، فنحن في حيرة: أنقرأ الوثيقة أم نسمع النص المصاحب؟!

١٩- الصور غير مناسبة: حديث عن دور تشرشل (وعمره ٤٢ سنة) في سايكس-بيكو، بينما نستخدم صورة له وهو في الخامسة والثمانين.

٢٠- السيكوانس المبتور: صناعة الصابون التقليدية: نرى منظر مصنع الصابون من الخارج وتدخل الكاميرا، ونرى سائلًا يغلي والعامل يغترفه بسطل ضخيم، ويقول النص: إنها صناعة قديمة. وانتهى الأمر. هلا جعلنا العامل يسكب السائل المغلي على أرضية مستوية محددة بزناز خشبي، ثم يبرد، ثم في اليوم التالي يتم تقطيع الصابون بسكين عظيمة، ثم تخرج كل فلة صابون تسرُّ العيون؟ طبعًا المخرج ليس عنده وقت ليقضي بضع ساعات حتى تنضج فلة الصابون، وهو لا يملك أن يعود إلى مصنع الصابون في اليوم التالي (توفير وقت وجهد ومال). السيكوانس المبتور رديء. أحيانًا يكون الأمر متعلقًا بقلبي زر فلافل، ولا يصبر المخرج خمس دقائق ليخرج بسيكوانس مكتمل. يكفي أنه هو شاهد العملية كاملة، وليذهب المشاهد إلى الجحيم.

٢١- مسألة المَحاوَر: المشاهد لا يرى المَحاوَر الفكرية، بل يرى قصة، أو يلاحق تسلسلاً منطقيًا معينًا. لا يرى بالضرورة المَحاوَر

التي في عقل المخرج، إلا إذا حددها المخرجُ بصور قوية ومناسبة وبتقطيع بصري مقنع. تبقى سيدة الوثائقي: القصة. عقل الإنسان عقل كرونولوجي. وعقلنا في الطفولة يصحو على القصة: بداية ومشكلة ونهاية. البداية أميرة سعيدة، والمشكلة أنها أحبت فقيرًا، والنهاية أنهما تزوجا. أو بالأحرى: البداية نساء مخزونات في البيوت بغرض الاستيلاء تحت سطوة الإمام البدر، المشكلة دخولهن المدارس ثم دخول الإنترنت إلى غرف نومهن وتعقيدات هذا الوضع، والنهاية: يفاجئن العالم بدور ثوري مميز. ليست القصة ممكنة في كل وثائقي. لكن البحث عنها مجزٍ.

٢٢- الكتابة الرديئة: مثال: «أهي فريّة من النظام؟ هكذا يقول معارضوه، وهو يزعم أنه بريء من الطائفية، ويرمي أخصامه بهذه الوصمة، وأية وصمة! وتقول المعارضة الشعبية: أفلا تنظرون إلى شعاراتنا؟ وهي خلو من أي توجه طائفي». هذا إنشاء فارغ.

٢٣- الحيلة الرخيصة: أن تعرض صورتك وأنت تتصل بالهاتف مرارًا قبل أن تُسمعنا صوت المسؤول يرد على التهمة. يهمنّا أن نرى إنجازك لا جهدك.

المسألة، بعدُ، ليست علمًا مؤكدًا. كل إنسان يقيّم الوثائقي بعين مختلفة. فهناك شخص يستمتع بدقق المعلومات، وهناك شخص يحب الصورة المبهرة، وهناك ثالث يتلذذ بالنص الذكي ذي القفشات الذي يخاطب الصورة بخبث. وهناك من يستمتع بالوثائقي الحارق الذي يثير الشجون ويسيل الدموع.

إصلاح بعض الوثائقيات المختلة مثل إصلاح سيارة الفولفو التي كنت أمتلكها: قال لي الميكانيكي مرة: «تحتاج إلى محرك جديد، وبودي جديد، وفرش جديد... فقط».

جو المقال: هذه رسالة إلى شركات الإنتاج، بعثها يوم كنت مديرًا للبرامج في محطة تلفزة.

دردشة إعلامية (١)

- يأتي الزبائن إلى وسيلة الإعلام للحصول على: (١) الترفيه، و(٢) الأخبار، و(٣) المعرفة.

- من الجيد أن تجتمع العناصر الثلاثة في كل مادة نقدمها.

- الدقة: ذبابة في الطبق تجعلك تترك كل الوجبة. كذا الكذبة في نشرة الأخبار تجعلك تترك النشرة، وربما المحطة. والبعوضة كالذبابة، والمبالغة كالكذبة. باختصار: لا تكذب ولا تبالغ.

- المراسل المشحون يتقي المعلومات التي تصبُّ في اتجاه يريده. صف ببرود ما يصنعه المحتل لبلدك، فهذا أفضل من اللغة المنفعلة. مللنا من المراسل الذي تنتفخ أوداجه وهو يرصُّ الكلمات في شتم قوات الاحتلال.

- استخدام صور الأرشيف استخدامًا نزيهًا في الأخبار. المشاهدون لهم عين الصقر فيما يتعلق بالصور، ويتذكرونها. اكتب على الشاشة أن الصورة أرشيفية، واستعملها في سياق معقول. وفي الوثائقيات فإن صور الأرشيف في العادة مادة ثمينة، فاستعملها في مواضعها الصحيحة.

- الغلط النحوي يقلل المصداقية. هذا الوضع سيستمر بضعة عقود أخرى. أرح نفسك، وتعلم النحو.

(١) هذه الملحوظات مكتوبة خصيصًا لجلسة تدريبية في «مؤسسة وطن» بمرام الله.

- ضبط المعلومة: قد تضطر إلى عبارة مثل «قبل عدة أسابيع»، لا بأس. ولكن الأفضل أن تتأكد وأن تقول مثلاً: «قبل ثلاثة أسابيع». ومن الخير لك أن تجتنب التواريخ الثقيلة لأنها تعطل المتابعة، فأنت لا تريد أن تقول: «في الثالث عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي». ومع ذلك فالتواريخ مهمة في بعض الأحيان: «تقرر عقد القمة في الرابع من الشهر المقبل».

- المصدر: أفضل شيء المصدر الواضح، فإذا لم يكن متاحاً لك ذكره فكن متأكداً من الخبر، فإذا كان في الخبر ما قد يؤدي إلى تهمة تشهير فاعلم أن من حق القضاء في بعض الحالات أن يطالبك بكشف مصادرك، فإذا رفضت فعليك أن تثبت أن ما قلته حق. مثال: (محمد أبو المسامير سرق خمسة ملايين، وبصفقة مع الحكومة أعاد ثلاثة منها). قد تكون سمعت الكلام من أبي المسامير نفسه. فإذا كشفت مصادرك للقاضي بعد أن تكون تعهدت بالكتمان فقد انتهيت كصحفي؛ وإذا أذعت الخبر، وتمسكت بسرية مصادرك فعليك عبء الإثبات، وهيئات.

- إصدار الأحكام: إذا تحدثت عن مظاهر السلوك الاجتماعي المنحرف، وجئت فوق الكلام بصورة ناس يشربون الخمر في حانة فهذا من جانبك حكم عليهم. وما يدريك لعل سلوكهم هذا يعدّ عادياً في بيئتهم.

- الإعلام غير حيادي. كل الإعلام. فاقترب من الحياد ما استطعت. مثال على التوازن الزائف، والمثال حقيقي: (في يوم جمعة معين من ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، ضرب الفتحويون الحمسويين في

الخليل. وضرب الحمسويون الفتحوين في غزة). وقد أذاعت إحدى محطات التلفزيون تقرير الخليل الذي يدين فتح ١٣ مرة في ذلك النهار، وأذاعت تقرير غزة الذي يدين حماس مرة واحدة. والمحطة تقول: أنا عرضت للمسألتيين، وبمهنية تامة. فتأمل. (المحطة المقصودة هي الجزيرة). العبرة: لا يكفي الرأي والرأي الآخر... التوازن يكون أيضًا بكمية الضخ.

- هناك محطات لم تفهم بعد ما هو «الخبر». محطة تعرض لك في النشرة تقريرًا عن صناعة الخبز في ألمانيا. صور جميلة. تقنية الصورة رائعة حقًا. والزوايا، وكل شيء. والمذيع فصيحة. والنص فيه تلاعب جميل بالكلام. لكن، لماذا التقرير؟ لا سبب. وفروا هذا التقرير إلى حين قيام مهرجان الخبز السنوي بعد ثلاثة أشهر. وزوروا المهرجان، وستكتشفون هناك أن السبعين نوعًا من الخبز في ألمانيا قد أصبحت واحدًا وسبعين؛ لأن راينر شميدت الخباز من دسلدورف قد ابتدع نوعًا مميزًا، ونجح في تسويقه. وهنا يكمن الخبر. وحول هذا الخبر انسجوا تقريركم. (الدويتشه فيله صنعت أسوأ من ذلك: عرضت في مايو/ أيار ٢٠١٢ وثائقيًا طويلًا عن مخالفات السير البحرية في قنال كيل... الوثائقي استعرض نحو عشرين حالة من المخالفات، كلها يشبه بعضها بعضًا، وانتهى الوثائقي مثلما بدأ.. لا قصة ولا طرفة ولا عبرة). إلى متى سيبقى الإعلام الألماني نائمًا عن مسألة الخبر؟ الإنجليز بعيدون عنكم رمية حجر، تعلموا.

- الاعتراف بالخطأ فضيلة. وأن تتكرر «الفضائل» مصيبة. الأفضل أن نكف عن ارتكاب الأغلط.

- التهويل يُفقدك المصداقية. وشر التهاويل ما يأتي في العنوان.
العنوان جبل.. والخبر فأر.

- الانفعال سيئ: الطريف أن المذبة القاعدة في الاستديو تشعر أن «من واجبها» الانفعال لحدث وطني، ويبدو ذلك سخيًا. كل الناس خائفون من أن يُتَّهَمُوا بعدم الوطنية. الحق أن وطننا صاير مثل الزريبة، ونحن فيه نأكل ونشرب، وهمُّنا الأساسي المرتب في آخر الشهر. الصحفي الوطني يفقد قسطًا من المصداقية. (ترى الصحفي قاعدًا في مجلس اجتماعي، مثلاً تجلس بجانبه في بيت عزاء. وتسأله: «كيف الحال يا فلان؟» فيسبُّ الحكومة والسلطة والوطن، ويسبُّ رئيس التحرير، ويقول لك: «إنه يتمنى الهجرة إلى كندا». ثم بعد يومين تراه على التلفزيون يمجِّد السلطة وإنجازاتها، ويقدم لك مائدة أيديولوجية مفعمة بالوطنية).

- السرعة في الخبر: نتحدث عن الدقائق القليلة التي تفصلك عن منافسك. فعندما نفتح التلفزيون ونرى على الشريط الإخباري خبرًا صارخًا نبدأ بتقليب المحطات. والمحطة الأسرع تكسب. هناك محطة تشتغل تحريريًا أثناء البث الحي، وتكتب لنا على الشاشة ما فاتنا، وتتلفن لمراسليها في أماكن أخرى لكي ينشطوا ويوفروا ردود فعل من أماكن شتى. خبر رويتر مبذول للجميع.. ولكن التميز هو في الحصول على تفاصيل لا توردها رويتر، والدخول إلى الموضوع من زوايا جديدة. عندي عن السرعة الخبرية قصتان.

القصة الأولى: دُعيت إلى اجتماع لهيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية في مقر منظمة التحرير الكائن وراء المقاطعة في رام الله. ركبت التاكسي في التاسعة والثلاث. فإذا على محطة راديو محلية خبر حادث سير في جبع قرب رام الله راح ضحيته أطفال في باص مدرسي. رجوث السائق أن يحول المؤشر إلى صوت فلسطين. فأبى. فكررت رجائي. فقبل على مضض. وجدتهم يشون أغنية لإيهاب توفيق. وأراد السائق أن يعود بالمؤشر إلى المحطة المحلية، فمنعته بكثير من الجهد. واستمر إيهاب توفيق يغني حتى انتهت الأغنية. ثم بث راديو فلسطين أغنية وطنية. ثم طلعت علينا المذيعات ببعض التوصيات: كيف نسوق وكيف نحترس على الطرقات. ثم إنني وصلت إلى اجتماعي، ولم أقصر في تقرير الحاضرين في وجود مشرفهم العام آنذاك ياسر عبد ربه. الحقيقة أنني انفجرت في وجوههم، وكنت قاسياً لسببين: أولاً لأن الحادث كان قد وقع قبل أكثر من نصف ساعة من إيهاب توفيق، وكانت تلك المحطة المحلية قد واكبته منذ البداية، والمحطة الرسمية نائمة. والسبب الثاني شخصي جداً، ولكن لعل في الاستطراد إليه ما يفيد: كنت أحمل إلى ذلك الاجتماع كتاباً من منشورات بكندار «المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار»، ويضم بحثاً طويلاً كنت نشرته في انتقاد إذاعة فلسطين الرسمية. كنت سعيداً أن أشن ذلك الهجوم على هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية في عقر دارها.

القصة الثانية: تغيرت الوزارة الفلسطينية في مايو/ أيار ٢٠١٢. تعديل شامل صحبته عدة قضايا مثيرة للجدل. وكمواطن فلسطيني يدفع من دم قلبه معاشات السادة العاملين في التلفزيون الرسمي، فتحتُ على نشره

الأخبار الرئيسية في الساعة التاسعة، فوجدتها ملغاة، وفي مكانها لعبة فوتبول. بينما كانت كل الفضائيات تعزف سيمفونية الوزارة الفلسطينية الجديدة، تلفزيوننا الرسمي: كلما كان هناك «خبر» خبأ رأسه داخل العباءة.

- الثرثرة: هل تقول لك جدتك: «سأطعمك طبقاً فيه طعام، هو عبارة عن مجذرة»؟ ربما، لو كانت السيدة جدتك تشتغل في مؤسسة «إن جي أو»، فهوؤلاء القوم لغتهم خارجة من الفريزر. الأغلب أن تقول لك جدتك: «كل مجذرة» إن كانت راضية عنك، أو «اقعد وتسمم مجذرة» إن كانت غاضبة. قضيت نحو ٢٥ سنة من عمري أثرثر لإقناع الإعلاميين بعدم الثرثرة.

- المجتمع ليس مقصوراً على الفتيات الجميلات بشعورهن المسترسلة. ففيه محجبات وفيه شباب أيضاً. ولكن هناك اعتبار تسويقي. فالرجال والنساء يفضلون رؤية الشابة الصغيرة خرج الجيزة - أعني المناسبة للزواج - على الشاشة. النساء الكبيرات ينظرن إلى المذيعة بوصفها خطيبة محتملة للولد، والرجال يعيشون لحظات من أحلام اليقظة. واجب التلفزيون المسؤول اجتماعياً ألا يعرض مذيعاته كما تُعرض بائعاتُ الهوى.

خذ لك قصتين عن البي بي سي: ما زلتُ أرى زينب بدوي على شاشة البي بي سي. وهي مذيعة سودانية، وابنة زميل سابق لي هو محمد خير البدوي. وقد بلغت الآن الثالثة والخمسين. منذ أربع وعشرين سنة وهي مذيعة. ورأسمالها أنها متعلمة جيداً (في أكسفورد). ولئن تغير شكلها

كثيرًا، فهي لم تفقد علمها وخبرتها، ولم تفقد مكانتها عندنا، نحن المشاهدين، فالمذيع يصبح جزءًا من العائلة. ومثلما تكبر أختي وأ تعود عليها كذلك تكبر زينب بدوي.

خفق قلبي خفقة محبة للبي بي سي في مناسبة أخرى تتعلق بالمذيعين. والمذيعه التي أعنيها هذه المرة باكستانية. اسمها مشعل حسين، وهي في أواخر الثلاثينات من العمر. درست القانون (في كيمبردج هذه المرة). ولها كز ميلتها بدوي نصيب صالح من العربية؛ لأنها ربيت في أبو ظبي. وهي تعرف الأردية. فتحت التلفزيون لأتابع الهبل الذي يسمونه «زواج الأمير وليام». كغيري من الناس أريد أن أرى العريس والعروس والهيصة. فوجئت بأن البي بي سي (في بثها الموجه لبريطانيا) جعلت المذيعه الرئيسية في نقل وقائع الاحتفالات على مدى ساعات مذيعه باكستانية. وفي كاتدرائية وستمنستر شاهدت فرقة المنشدين الأطفال، وبينهم عدة أطفال سود. هذا تلفزيون مسؤول اجتماعيًا، وهذا مجتمع يسعى بكثير من الجهد نحو استيعاب مواطنيه.

- ثقافة المذيع: في الفقرة السابقة مذيعتان إحداهما متخرجة في أكسفورد والأخرى في كيمبردج. وكلتاها أكملت الدراسة بعد التخرج. فهل تراهما (وكلتاها تقدم برامج سياسية جادة) تتبرعان بسيل من المعلومات قبل كل سؤال؟ على العكس تمامًا. أسئلة قصيرة. إنهما تلقيان على الضيوف الأسئلة التي يتمنى المشاهد إلقاءها. تنوبان عن المشاهد. المذيع الضحل هو من يسرد كل معلوماته ضمن السؤال.

- الطريق إلى تطور الإعلام هو نفسه الطريق إلى تطور المجتمع. بعض المسؤولين الإعلاميين يقولون لي (وقد شابت الذوائب مني): «تعال زبّط لنا هالمحطة». والجواب: «لا تكتفوا بعقد دورة. تزيبط المحطات لا يكون بعضا سحرية».

- جميل أن نسمع شباب القرى يتكلمون، ونرى صورتهم في دكانة القرية، وبين الزيتون، وأن ندخل إلى بيوت المخيمات ونتناول وجبة عندهم. لكن، نريد عمق التغطية. أمّا أن نعرض صورهم «عالماشي»، ونسمع الواحد «يتأتى» كلمات لا معنى لها فهذا ليس من الإنصاف. الناس العاديون غير متعودين على الكاميرا، ويضطربون أمامها، فللمذيعه نقول: لا تشعرني بالتفوق يا سيدتي لأنك متعودة على الكاميرا، وتقودين العملية بسلاسة. الشطارة أن تتمكني (مع فريقك) من توظيف الوقت الكافي لتحضير الناس للمقابلة لكي يخرج منهم شيء حقيقي. الناس البسطاء عندهم مخزون كبير من الحكمة ومن الفهم. هؤلاء ناس عاديون ولكنهم أمام الكاميرا مساطيل، وواجبنا ألا نلتقطهم في حال المسطولية، بل أن نصبر وأن نأخذ حكمتهم. على المذيع والفريق أن يعيشوا في القرية وأن يعودوا بشيء حقيقي. تقولون لي: هذه جزئية، ولا نتوقع منك أن تعالج موضوع التغطية المجتمعية بهذا الشكل العامي المبذل! أها، تريدون مني أن أكتب بلغة المانحين وبلغة التقارير التي تقدمونها لهم؟ بش ما توقعتم! لست من يكتب هكذا. أنا أضرب الأمثال لعلكم تعقلون.

الصحفي الجيد، الذي يقف وراءه رئيس تحرير قدير (ويداوم حقًا)، يستطيع أن يعطينا تغطية في العمق لقضية تمس مجتمعنا. وهل عندنا واجب تنموي؟ بالتأكيد. ليس عن طريق بث برامج تنمية معلبة تشمئز

منها النفوس. ضخ المعلومات في هذه القوالب المدرسية غير مؤهل لانتحال صفة «إعلام». ولا حتى صفة «تعليم». يمكن إطلاق تسمية «تحفيظ الكتابات» على هذه المنتجات التلفزيونية الباهتة. الإعلام يجب أن تختلط فيه التنمية والتثقيف والتعليم بالخبر وبالتسلية اختلاطاً لا انفصام له.

أقول للإعلامي: احفر بأظفارك عن خبر. لا بد من خبر للمادة الإعلامية وإلا سنرسلها لقناة تعليمية.

- السيكونانس المكتمل: كنت دائماً أتخذ من بيت لابن الرومي مثلاً. يقول شاعرنا: «يلقي العجين لجيناً من أنامله» أي أن هذا الصنایعي يلقي بالعجين وهو كالفضة من يده في مقلی الزيت. هذا نصف البيت. والصورة غير صالحة تلفزيونياً. والنصف الثاني: «فيستحيل شبایكاً من الذهب». هنا اكتملت الصورة ورأينا النتيجة: خرج العجين من الزيت وهو على هيئة مشبك ذهبي اللون. ثم ساق لي الله فيلماً وثائقياً عن مدينة سمّود بمصر. وقد ارتكب فيه المخرجُ تلك الغلطة حرفياً. أراني صانع المشبك واقفاً وراء مقلاه، وهو يصنع أشكالاً عجيبة من العجين، ثم... طشش. ألقي بالعجين في الزيت. ثم انصرفت الكاميرا عنه فوراً. ورأيت نفسي أصرح ببراءة طفلية... ولكن ماذا صار للعجين؟ أريد أن أرى النتيجة. التلفزيون أيها السادة يملك قدرة عجيبة على الاختصار. نحن نصور العملية بكاملها، ثم نقص ونلرزق في المونتاج، وفي غضون عشر ثوان تُريك كل شيء.

- الخبر البروتوكولي مذموم في كل محفل إعلامي. لكن، اصبر! أقيم احتفالاً حضره محافظ نابلس لتكريم طلبة التوجيهي. وزّع المحافظ على أوليات الطالبات هدايا رمزية. خبر بروتوكولي، لكنه محلّي. الناس يحبون أن يروا أنفسهم. لنلتقط كلوزات لوجوه الطالبات فهذا مُعَبَّر أكثر. ولنأخذ كلمة من سيدة كبيرة في السنّ تتكلم عن شطارة حفيدتها. هذا يسلي أكثر من كلام المحافظ. هل يمكن أن يتضمن تقرير مُسرف في المحلية كهذا التقرير جانباً معرفياً؟ ربما. يجب البحث. إذا عرفنا أن هذه المدرسة «المدرسة العائشية» مشهورة بتخريج الأوليات (مؤنث أوائل)، وأنها من أقدم مدارس نابلس، وأن فدوى طوقان درست فيها. فهذه معلومات نحقق بها تقريرنا. وماذا يحدث لو أن المذيع مثقف، وعرف أن فدوى طوقان سمعت من معلّمتها في هذه المدرسة بالذات ملاحظات أطلقت موهبتها الشعرية، وأن هذه المعلّمة كانت تقرأ لشاعرتنا مقالات من «خارج المنهاج» من مجلة الرسالة المصرية. هذه عناصر معرفية فيها شيء مختلف. [في هذه المدرسة درست أشهر شاعرة فلسطينية، فدوى طوقان، وهي تقول في كتابها إن شعلة الشعر انطلقت من تشجيع معلّمتها، ومن التثقيف «خارج المنهاج»]. أرايت إلى هذه الكلمات الخمس والعشرين المحصورة بقوس مربع؟ ألا يمكن حشرها في التقرير؟ وفوقها صورة للشاعرة، وصورة لمبنى المدرسة؟ وبعد ذلك امضي في تقريرك، ودعنا نر الفتيات وحضرة المحافظ. وخلّ الكاميرا تمشي على الأهالي لكي يروا أنفسهم. ولا تنس الكلوز أب.

أقول: الخبر البروتوكولي المذموم إعلاميًا قد يجد له مكانًا في الإعلام المحلي، والمذيع الراعي والمثقف قد يضيف إليه عنصر التسلية وعنصر الثقيف.

- إعادة تذكير مهمة: الأساس في الإعلام كله الخبر. ونحقق في جسم الخبر عناصر التشويق، والمعرفة.

- في الإعلام لا مكان للفيلسوف الذي يجلس وراء كرسيه لكي يحدثك عن الحداثة وما بعد الحداثة، وعن شوبنهاور وأبي العلاء المعري. نريد الضيف عميقًا ومثقفًا، ولكن بثقافة معاصرة. ونريده واسع الاطلاع، ويعرف مجتمعه. صحيح أنه قد يفتقر إلى موهبة استعمال الهاتف، وقد يكون قليل الحيلة، وغير شاطر في اللوجستيات. لكن لا بد من السرعة في الفهم وفي التحرير. لنفترض أن مثل هذا الشخص محرر تلفزيوني، ويصدر التكيليفات بالتقارير التلفزيونية، ويراقبها تحريريًا. عليه بسرعة البرق أن يلاحظ موطن الخبر في الموضوع، وأن يوجه الصحفي (أو المذيع) لكي يقتنص الخبر، وعليه أن يوجهه إلى توفير عناصر التشويق والمعرفة داخل الخبر. ويجب أن يكون عارفًا بمبادئ الصورة والمونتاج والتصوير.

- كيف تريد من مذيع مدلل، صغير السن، شكله حلو، ولكنه لم يُتَمَّ قراءة كتاب في حياته، ولم يدخل قرية ولا مخيمًا، وتنحصر معارفه في الموبايلات وأنواع السيارات، كيف تريده أن ينتج تقارير عميقة؟

ومحرر عجوز يشتغل على طريقة الجرائد في الستينيات، كيف تريد أن تجعل منه محررًا تلفزيونيًا قديرًا؟ هل هو مُقبل على التعلم؟ ويدخل

غرفة المونتاج، ومستعد لتغيير ثوابته التحريرية العتيقة؟ قد تجد فيه هذه الحيوية. ولكن إذا أصرَّ على عدم الدخول في عالم الإنترنت والتلفزة فخير له وللمؤسسة أن ينصرف.

العجائز المتقاعدون - من أمثالي - يصلحون فقط لكتابة المقالات المطولة، وتوزيع المواعظ. والإعلام بحاجة إلى أناس من نوع مختلف. عند هذا الحدِّ أقف.

٢٠١٢/٨/٢٥

كيف «الحال»؟

كلمة «أريد» أقوى كثيرًا من كلمة «بُدِّي»، مع أنك حين ترى طفلًا يشد ثوب أمه ويصرخ ويبكي ويقول: «بدي اياها»، وهو يشير إلى لعبة في بترينة الدكان، تظن أن كلمة (بدي) أقوى كلمة في العالم. لكن بُدِّي مشتقة من الكلمة الفصحى «بُوْدِي». والود والرغبة أقل من «أريد» والإرادة.

اجتمع ذات يوم جماعة يريدون إنشاء صحيفة. كانوا بدُّهم ذلك. اجتمعوا عدة اجتماعات، ووضعوا خططًا، وجربوا تجارب مسترخية، ونال منهم التعب كل منال. كانوا أهل رؤية وخبرة. كان ما في رؤوسهم من شعر أبيض يكفي لنسج «فانيلا» بأكمام. لكنهم افتقروا إلى إرادة التنفيذ.

رسموا المشروع على الورق، ووضعوا قائمة بالعراقيل والمثبطات، ووضعوا لها، على الورق أيضًا، الحلول. وعند ما جاء وقت القفزة خذلتهم سيقانهم.

ما أجمل الترتيب والتنظيم. ثمة قصة عن فيلسوف إنجليزي فكّر في أن يهاجر إلى أيسلندا، وكان صاحبنا منظمًا جدًّا وعاقلاً؛ فوضع قائمة بالأسباب المؤيدة لهجرته، فكانت سبعين سببًا. ثم راح يحلم بالهجرة طويلًا، لكنه بقي في إنجلترا حتى مات !!! لقد عِدِمَ الإرادة.

الإرادة هي أن تحمل القأس وتنزل إلى الحقل، وتشتغل طوال النهار.

ليست الإرادة أن تمارس أحلام اليقظة، وتخيّل سنابل القمح نموّج مع النسيم خضراء يانعة، ثم صفراء لامعة، بل أن تخرج لكي تستخرج هذه السنابل بالقوة من بطن الأرض.

نعود إلى قصة القوم الذين أرادوا إنشاء صحيفة. لقد خططوا كثيرًا، ولكنهم لم يحملوا الفأس. وجاءتهم فتاة تصغرهم سنًا وخبرة، فقالت: «هيا نحمل الفأس ونخرج إلى الحقل». كان اسم هذه الفتاة «الإرادة». فجمعوا خبرتهم وانطلقوا وراءها: بعضهم ساهم متفكرًا، وبعضهم مشفق متوجّس. وأصبحت مديرةً للتحريّر ثم رئيسةً له، وأعتقد أنها ما زالت. ونجحت الجريدة في أن تكون نموذجًا للصحافة النابضة بالحياة. واشترطت أن يكون طول المقال ٣٠٠ كلمة. ولعل المؤسسين صنعوا خيرًا أن سموا صحيفتهم اسمًا محايدًا. سمّوها الحال، من «كيف الحال». وبعد خمسين عددًا أصبح «الحال عال الحال».

جؤ المقال: هذا مقال نشر في جريدة الحال عن جريدة الحال. كنتُ ضمن لجنة المخضرمين الذين فشلوا في التوصل إلى شيء عملي. وكنت مدير معهد الإعلام بجامعة بيرزيت. فجمعتُ زملائي من موظفي المعهد بعيدًا عن فريق المخضرمين، قلت لهم: «هل نباشر وحدنا بدون المخضرمين؟» فتصدّت نبال ثوابنة وقالت: «نباشر». فكنتُ رئيس التحرير سنة كاملة، تُعاونني نبال. ثم رحلتُ عن البلاد فتولّت نبال رئاسة التحرير بضع سنين.

كيف نقرأ نشرة الأخبار في الإذاعة؟

نقرأ نشرات الأخبار بالفصحى، بلغة بعيدة إلى حد كبير عن لغتنا الأم، وتحتاج منا إلى جهد مضاعف.

وهناك مشكلة أخرى هي الوتيرة الميكانيكية المنتشرة في مدارسنا؛ فنحن نقرأ النصوص في دروس القراءة في المدارس بطريقة معينة فيها تكرار لنغمة وحيدة. وقراءة الأخبار تحتاج إلى «التلوين». وهنا توجد مشكلة إضافية: التلوين الزائد مزعج، ويصرف الذهن عن المعنى.

وهناك مشكلة رابعة: ضبط التشكيل. بالطبع يمكن للمذيع أن يُسَكِّنَ أواخر الكلمات في مواضع عديدة، ولكنه إذا بالغ في التسيكين أصبحت نشرته قريبة من العامية.

وثمة مشكلة خامسة: مخارج الحروف. ففي فلسطين عندنا أصناف من القافات تتراوح بين الكاف والقاف القرآنية، وكثيرون يخطفون أحرف العلة فيقولون «سيِّرات» بدل سيارات؛ تبعاً للهجته العامية. وبعضهم يرقق الخاء في كلمة مثل «خالد»، وحقُّها التفتخيم. وبعضهم يهمل الحرف القمري فيقول «أجبل» بدل الجبل.

وحل كل هذه المشكلات يكون بالتمرين المتواصل وبالاستماع إلى اللغة العربية الفصحى من أفواه قُرَّاء القرآن، والمذيعين الجيدين. ومن عاش طفولته في بيئة عامية محضة، أو تلقى دروسه في مدرسة أجنبية سيصعب عليه إتقان النطق السليم بالفصحى.

لا بُدَّ من إتقان القواعد. بعضهم يكتفي بتشكيل الكلمات «على السمع»، ولكن هناك مواضع تحتاج إلى معرفة بالقاعدة النحوية.

النشرة الجيدة يسمعها المستمع فيفهم. طريقة إلقاء المذيع تجعله يفهم. والواقع أن المذيع الذي يلقي الخبر فاهمًا يستطيع إفهام المستمع. ومن المهارات المطلوبة في المذيع أن يكون محررًا جيدًا. أن يتمكن من صياغة الأخبار بلغة سليمة وسلسة، وأن يكون واسع الاطلاع على الأحداث. قارئ النشرة يجب أن يكون قادرًا على كتابتها. لكنه قد يأخذها جاهزةً من زميله المحرر، وفي الحالين يجب أن يلقيها بفهم عميق.

التلعثم في الإلقاء سببه الضعف في اللغة، أو شرود الذهن، أو الارتباك، أو الإرهاق. والتلعثم يُفقدك قدرًا من المصداقية، ومثله الوقفات الخطأ.

الصوت الجميل نعمة، والصوت الجيد صناعة. يمكن للمرء أن يجعل صوته جيدًا بإتقان اللغة والانغماس في المعنى الذي يقدمه. الصوت الجميل وحده لا يصنع نشرة جيدة، فإذا اجتمع جمال الصوت وحسن الإلقاء فهذا غاية المني.

فيما يلي ورقة تقييم افتراضية لمذيع/ أو مذيعة على قراءة نشرة من خمس دقائق:

- هناك ثقة في صوت المذيع - الوقفات في مكانها الصحيح - تسكين
أواخر الكلمات محدود - الخطأ النحوي قليل - المذيع غير متوتر -
المذيع ليس مسترخيًا بل متحفز - الصوت عذب - الصوت قوي - مخارج
الحروف سليمة - المذيع يلقي بفهم - المذيع بعيد عن النغمة المدرسية

الرتيبة- المذيع يلون التلوين المعتدل- المذيع لا يمثل بل يلقي - في صوت المذيع حزمٌ وجديّة- المذيع يتحدّث إلينا ولا يلقي خطبة.

لو وضعنا هذه المعايير نصب أعيننا، ووضعنا للمذيع - في الإذاعة - علامة من خمس على كل نقطة فقد نضع أصبعنا على مواطن القوة والضعف.

جو المقال: كُتِبَ لمنفعة «راديو أجيال» برام الله-فلسطين وذلك في سياق مسابقة «الميكروفون الذهبي» في قراءة الأخبار. وقبل هذه المسابقة بسنوات عرفت «راديو أجيال» وعملت معه، وكان راديو ترفيهياً فقط. وازدادت الحاجة إلى الخبر المحلي مع الاجتياح الإسرائيلي للمدن في الضفة الغربية، فعرضتُ على المحطة تبرعاً بثمانمئة دولار لكي تجرّب تحرير وبت الأخبار. رُفِضَ العرض المالي، ولكن المحطة بدأت فوراً بنشرات الأخبار؛ فعوضت نقصاً فادحاً؛ لأن الإذاعة الرسمية فاشلة إخبارياً. ومنذ عشرين عاماً والأخبار جزء مهم من «راديو أجيال»، أهم محطة إذاعية في فلسطين بلا منازع.

كيف تنجح الإذاعة الرسمية؟

المدرّب الذي يزور محطة إذاعة يلتقي أولاً بالمدير، ويشرب عنده الشاي. قد يريد المدير منك أن تتجسس على المتدربين، وأن تضع له تقييمات بأدائهم ممهورة بتوقيعك. هذا النوع من المُدراء لا يملك من السلطة ما يؤدي به نملة، هو فقط يريد تهديد الناس وإخضاع الشامس منهم. سوف تتركه يهذي إلى أن تنهي كوب شايك ثم تنطلق إلى عملك، وفي نهاية الدورة لا تقدّم له ما أراد. وبعضهم يريد منك أن تخبره بشكل عام كيف يجعل مؤسسته أفضل. وهذا جدير بالاحترام. قد صنعتُ الأمرين مرتين، وفي الإذاعة نفسها. وهي إذاعة «صوت فلسطين» الإذاعة الرسمية للسلطة الفلسطينية. وبين المرة الأولى والثانية نحو من ثمانية عشر عامًا. ومن الطريف أنني فيما بين المرة الأولى والثانية عملت مديرًا للبرامج مدة أسبوعين في «تلفزيون فلسطين» (الرسمي)، ورفضت توقيع عقد، وتركت العمل. وعملت رئيسًا لتحرير صحيفة الحياة الجديدة الرسمية الناطقة باسم السلطة الفلسطينية ستة أشهر، قدّمتُ بعدها استقالتني. وبما أن مجموع استقالاتي في المهن المختلفة يكاد يبلغ العشرين، فقد أفكر في إصدار نصوصها في كتاب برأسه، فهذا ليس مكانها.

أما التقرير الأول الذي كتبته عن إذاعة «صوت فلسطين» فقد نشرته ضمن كتاب أصدرته مؤسسة «بكدار»، وأما التقرير الثاني فقد أرسلته إلى مدير الإذاعة الذي لمست أنه كان حريصًا بحق على تطوير إذاعته. لم

يطلب مني لا تجسّسا ولا حتى تقريرًا، غير أنني كتبت التقرير وبعثته إليه بعد انتهاء مهمتي بنحو شهر. وبالطبع لم أسمع منه ردًا. ها هو نص التقرير:

كي تصبح «صوت فلسطين» إذاعةً «مختلفةً»

حضرة الأستاذ...، مدير إذاعة «صوت فلسطين» المحترم،

فيما يلي تقرير عن تجربتي مع إذاعتكم. وفيه مقترحات أرجو أن يكون فيها ما يفيد.

قالت لي زميلتي صباح اليوم: إنها ذكرت اسمي لحميها -أبي زوجها- فقال لها: «إنه كان يسمعني على راديو البي بي سي قبل عشرين سنة». قلت في نفسي: «هذه بداية طيبة لمقالي الطويل هذا». أبدأ من لندن:

كنت أجلس في مطعم إنجليزي مع رجل خليجي. لفتت نظركم عبارة «مطعم إنجليزي»؟ في لندن يندر أن تجد مطعمًا إنجليزيًا، فأما المطاعم الهندية فهي مثورة في شوارع لندن كورق الشجر على رصيف خريفي. اجتهدت ووجدت مطعمًا إنجليزيًا، فالرجل الخليجي زائر رسمي لهيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي، ولا بد لنا من أن نثبت له أن في البلد شيئًا إنجليزيًا. لن أحدثكم عن الوجبة حتى لا أسدّ نفسكم.

سألت الرجل عن المستمعين للإذاعة التي يديرها، وهي إذاعة رسمية. لم يفهم سؤالي. قلت له بصريح العبارة: «الإذاعات تُجري إحصاءات عن عدد المستمعين». فكان جوابه صريحًا ولذيذًا: «حِثَّ تَرى على ميزانية الدولة». وانتهى النقاش.

نحن في البي بي سي كنا أيضًا على ميزانية الدولة، وبالتحديد وزارة الخارجية. ولكننا كنا حريصين على معرفة أثرنا في المستمعين، وعندما أجرينا إحصاءً كبيراً ذات سنة اكتشفنا أن ١٤ مليون إنسان يستمعون إلينا (مرة في الأسبوع على الأقل). وكنا أجرينا بالتوازي إحصاءً نوعيًا، يقوم على عقد لقاءات مع مجموعات من الناس: شباب، ونساء، ومتقاعدين ... إلخ. وشاركتُ شخصيًا في لقاءين من هذا القبيل في المغرب.

ثم إنني عملتُ بضعة أشهر في إذاعة «صوت فلسطين» قبل ١٨ سنة. وملخص التجربة: إذاعة رسمية كذلك الإذاعة الخليجية. لكن الناس أقبلوا عليها عندما بدأت بثها؛ لأن صوتها هو صوتنا، فهي ليست آتية من بعيد كالبي بي سي، ولا من قريب كإذاعة إسرائيل، بل هي قادمة من داخلنا. ونال «صوت فلسطين» نسبة استماع بلغت ٧٠٪.

وجاءت أحداث النفق ١٩٩٦، فأمر الساسة الإذاعة بتوليع الناس، فولّعتهم. وبعد أسابيع أمروها بالتهذبة، ففعلت، وفي الحالين بثت جملةً من الأكاذيب. وبعد أشهر تراجعَت الإذاعة إلى ١٩٪. هذا انهيار لا خسارة.

إذا استعملتُ إذاعتك عودَ كبريت لإشعال الرأي العام فلن تستطيع استعمالها مرة أخرى.

في أحداث النفق استمعت إلى الضخّ التهييجي لصوت فلسطين، وكنتُ سنتذ مبعوثًا من البي بي سي لتغطية تلك الأحداث. سألتُ: «طيب يا إخوان، أنتم تبثون في ساعات التهييج والشحن العاطفي أغاني الثورة الفلسطينية القديمة، وعندما تكبسون الزر وينتهي التهييج تعودون

إلى نجوى كرم. لماذا لا تبثون أغاني فلسطينية جديدة؟ ففي البلد فِرَقٌ تغني وتصدر السيديّات، وهناك أغان كثيرة في العالم العربي ذات مغزى جميل؟» لم أجد جوابًا.

كانت إذاعة «صوت فلسطين» تنتهج خطأ تحريريًا بسيطًا: أولاً، نحن بوق للسلطة، نحن إذاعة رسمية. وثانيًا، على مجتمع غزة والضفة أن يعرف أن «م. ت. ف.» [منظمة التحرير الفلسطينية] هي فلسطين.

والنتيجة: فشلت الإذاعة في أن تخدم الحكومة؛ لأن الناس انصرفوا عنها، ولم تستطع فلسطين أن تحشر نفسها داخل قنينة «م. ت. ف.». حدث العكس.

الإذاعة الأردنية قبل الـ ٦٧ كانت تؤكد أن البلد اسمه الأردن، وكانت تبثُ أغاني توفيق النمرى وسميرة توفيق وعبد الله موسى وسلوى وجميل العاص صباح مساء؛ لتعزيز الهوية الأردنية. وحققت الغرض: غرست في وجدان الناس هويةً أردنيةً واضحة المعالم. وإذاعة فلسطين ناصبت الأغنية الفلسطينية الجديدة العداء.

في فلسطين اليوم ٨٥ إذاعة، وهناك ١٢ فضائية ترفع علم فلسطين. وهناك الفيس بوك واليوتيوب.

أبدأ بالجرائد: الباقي وجه الله، وصفحة الوفيات في جريدة القدس.

والتلفزيونات: هذا ليس موضوعنا.

والإذاعات: هذا موضوعنا.

لن تموت الإذاعة؛ لأن الكيف والخطاط والخياط وربّة المنزل والسائق والراكب سيظلون يسمعون. وهناك شيء آخر: أغنية الإذاعة فيها

عنصر المشاركة والمفاجأة، أسمعها عارفاً أن كثيرين يشتركون معي في الاستماع، والأغنية تأتيني على نحو مفاجئ دون أن يكون لي خيار. أشعر مع الإذاعة بأن هناك مديعاً يُحدّثني، ويعرض عليّ البرامج المختلفة والأغاني، ويخوض على مسمعي حوارات مع الناس على الهاتف، ويستضيف لي أشخاصاً ويسألهم بالنيابة عني. الإذاعة تؤنسني. وسيظل البشر يحبون أن يُخلدوا إلى الراحة مع إغماض العينين عن صور التلفزيون التي صارت «تشقّل» بشكل مثير للأعصاب. الإذاعة باقية. ولكن وجود ٨٥ إذاعة في فلسطين يفتح باباً للكلام.

لا أنسى أن موضوعي هو «صوت فلسطين»، الإذاعة الرسمية. كنت دائماً أسمّيها «إذاعة الوطن». وكان المسؤولون فيها يغضبون كلما استخدمت هذا التعبير. يعرفون أنني أشير به إلى فشلهم في أن يكونوا إذاعة الوطن، ولكنهم ربما كانوا يشعرون أنني أريدها أن تكون إذاعة الوطن.

واليوم مع نفث الأثير، يمكن للمرء أن يقول: «راحت علينا، فلم يعد هناك مجال لأن تستولي «صوت فلسطين» على قلوب الناس». ولكنني أقول شيئاً آخر.

نفث الأثير نقمة، ولكنه أيضاً فرصة.

الإذاعات التجارية انغمست في نجوى كرم، وصارت الوصفة سهلة: في الصباح فيروز، ثم مجال للناس لكي يطالبوا بفتح المجاري المغلقة وسدّ المجاري المفتوحة، ويأتي المسؤول فيغرقهم بالوعود. ثم نجوى كرم، ثم نشرة أخبار مأخوذة من الإنترنت، ثم نجوى كرم.

كان التحدي الذي طرحه المسؤولون في صوت فلسطين في آخر لقاء لي معهم قبل نحو شهر: «كيف نكون جادّين ولكن بإيقاع سريع؟ وكيف يكون عندنا ترفيه لكن ليس رخيصاً؟ وكيف نكون إذاعة الوطن؟»

وقدّمْتُ بعض الآراء. وفكّرْتُ في الأمر مليّاً على مدى الشهر المنصرم.

وكي أتجنب الفقرات الطويلة فإنني سأبدأ ببعض الصراخ.

عندما ينام مهندس الصوت بين الأغنية والأغنية وينقطع البثُّ عشر ثوان، فهذا معناه أن المستمعين قد انصرفوا إلى إذاعة أخرى. سؤال: هذا شيء يحدث عندكم دائماً، فهل حدث أن عاقبتم مهندس صوت على هذه الفعلة الشنيعة؟ هل عندكم نظام حاسوبي محترم لبثّ الأغنيات؟ هل انتبهتم إلى هذا الأمر البسيط الذي يعتبر من بديهيات العمل الإذاعي؟ هل أجهزتكم مزبوبة؟ وإذا لم تكن مزبوبة فاشتروا أجهزة رخيصة من تلك الموجودة في الإذاعات التجارية التي لا ترتكب مثل هذا الغلط.

صرخة أخرى: هل عندكم مدير يقف ويصرخ؟ يقف وقفة حازمة ويطلب من القائمين على البث أن يتقوا الله. أم أنكم تتصرفون كعائلة، وكلكم إخوة في الله والوطن؟ هل الإدارة قوية؟ وهل تعرف الإدارة ماذا تريد؟ هل هناك خطة.. أجندة.. هدف؟

«صوت فلسطين» ليست إذاعة متميزة في الإحصاءات الكثيرة التي تجريها الشركات المُعلنة. والشركات المُعلنة خير من يقيس مدى الانتشار.

صرخة: هل هناك تقييم حقيقي للبرامج؟ هل يجرؤ أحد في الإذاعة على نزع برنامج من مذيع يتربع فيه على مدى السنوات العشر الأخيرة؟ بعيدًا عن الصراخ، لدى صوت فلسطين كادر ضخم، وهذا سلبي وإيجابي. الترهل الوظيفي يعني أن عشرة يشتغلون وعشرين يتفرون عليهم ويحاولون تعطيلهم. والثبات الوظيفي يعني عدم تجديد الدم. وبما أن صوت فلسطين مؤسسة رسمية، فلن يكون هناك علاج سريع للترهل الوظيفي. فكيف نصنع؟

بعضهم، في بعض البلاد، رأى المؤسسة الرسمية جامدة، ورأى فيها مقاومة قوية للتغيير، فقرر أن يفتح إذاعة موازية، واشترط أن يكون كل موظفيها «على عقود» أي أنهم خارج الميري، خارج الوظيفة الدائمة. هذا حل ممكن، وستزعمون أن ميزانية الوطن لا تحتمله. حسنًا: اقسّموا موظفيكم قسمين بإذاعتين وليكن تنافس! وهذه نصائح:

أولاً: يتعهد كل موظف في الإذاعة أمام نفسه ألا يشتد مؤسسته التي يعمل بها، وأن يكون كل انتقاد يفوه به انتقادًا علنيًا. هذا أساس أخلاقي. فماذا لو كان الوضع لا يعجبني أبدًا؟ الحل: الباب يسع جملاً. فإن كنت قاعدًا في الإذاعة فقط من أجل المرتب فاقعد ساكنًا. (أقول هذا لأنني لا أسمع من موظفيكم سوى الشكوى.. وشتم المؤسسة).

ثانيًا: أنا أعمل في مكاني، فإذا رأى مسؤولي أن ينقلني فهذا أمر إداري، وعليّ أن أطيعه. وأما أن أشنّ حملةً عليه فهذا ليس مما يُصنع في مؤسسة.

ثالثاً: يصرُّ بعض فنِّي الصوت على أن يعصروا الجهاز عصرًا حتى يصل إلى لحظة الوفاة على الهواء. هناك فكرة يعرفها كثيرون: لكل جهاز عمر، والأجهزة أرخص شيء. ميزانية الإذاعة المثالية: ٨٠٪ مرتبات، و١٥٪ إنتاج، و٥٪ أجهزة.

رابعاً: من المشكلات أن المذيع يصبح صاحب البرنامج الأوحد، يتربع فيه كما يتربع في إيوان بيته. فماذا لو كان المذيع قصير الباع في موضوع البرنامج؟ صحيح أن الإذاعات المحترمة تحتفظ بمذيعيها ولا تبدلهم كما يبدل المرء قمصانه، والمذيع صديق المستمع، إنه الشخص الذي أعود عليه وعلى نبرات صوته وعلى حضوره. إذن، هذه ليست دعوة للتخلص من المذيعين، بل دعوة لدعمهم. وفي الوقت نفسه دعوة لكي يتناوبوا على البرامج. المذيعون رأسمال الإذاعة، وهم مشكلتها الكبرى في الوقت نفسه. لتكن هناك دورات وورش وعمل دؤوب لرفع مستوى اللغة. وعندي مثال أود أن أرويه حتى لو اتهمني بعضهم بأنني أسرف في الحديث عن إذاعة لندن: جاءتنا مذيعة جديدة يوماً، واكتشفنا من تقريرها الأول الذي سجلته بصوتها أنها خاوية الفواض من النحو والصرف. ونظر بعضنا إلى بعض، نظرة معناها أن فلانة لن تبقى معنا طويلاً، وأنها ستعود إلى بلدها بعد الأشهر التجريبية المنصوص عليها في العقد. وبعد شهر -تصغير شهر- كانت المذيدة تتقن النحو والصرف. ليس لأننا أنفقنا في تعليمها الساعات الطوال؛ فهذا لم يحدث. كل ما في الأمر أنها رأت كل من حولها يتقنون النحو، وسمعت ملاحظة من هنا وملاحظة من هناك. وكان بعضنا يقرأ معها التقرير قبل التسجيل بتأنٍّ، ويُرشدها بودٍّ إلى الأغلاط. والمذيدة المذكورة لم تزل تعمل في إذاعة لندن، ومضت عليها عشرون سنة.

معيار النحو فـج. وما يزيده فـجاجة أنه يصبح أحياناً المعيار الوحيد. فمن السهل على مدير أخبار متمرس أن يلتقط بأذنه الغلط النحوي، ومن السهل عليه أن يشهّر بالمذيع الذي ارتكبه. ويصاب المذيع بهوس اسمه التشكيل والنحو والصرف. المطلوب قدر صالح من الصحة اللغوية. لكن هذا أهون ما نطلبه من المذيع.

المذيع يعرض أعماق شخصيته أمام المستمعين. ومن كلامه سأعرف الكثير عنه. إن كان شخصاً عامياً ضحلاً سأعرف ذلك، وإن كان شخصاً مغناً متيناً سأعرف ذلك، وإن كان ممتلئاً بموضوعه محباً له سأعرف ذلك. وإن كان يلغ بالراء أو بالجيم أو بالسين سأنسى ذلك.. لكن بشرط: أن يقنعني بخفة روحه وبمعرفته الطيبة، وببراعته في إلقاء الأسئلة واستجواب الضيف. ليس من شرط المذيع أن يكون خطيباً. ولا نشترط عليه أن يكون من كبار المثقفين. ربما عبّرنا عن كل ما نشترط في المذيع بكلمتي: الحضور والقبول.

خامساً: نشرة الأخبار. يمكن للنشرة أن تكون دسمة عامرة باللقطات الصوتية ويمكن أن تكون ممتعة ودسمة حتى وإن خلت من اللقطات الصوتية. ثمة طرق للاختصار تعلمناها من تويتر. وثمة طرق للتخفّف من الأخبار البروتوكولية. هناك نشرات أخبار في إذاعات تجارية أجنبية لا يتعدى طولها الأربعين ثانية، ومع ذلك يكون فيها بعض اللقطات الصوتية.. تكون سريعة كالبرق ويشعر المستمع بأنها دسمة. اللغة العربية ليست قاصرة عن تحقيق سرعة الإيقاع مع الإفادة. نحتاج إلى بعض التواضع لتقبّل حقيقة أن في العالم أساليب أخرى. يمكن إدخال تحسين كبير على نشرات الأخبار دون أدنى مساس بتوجهها التحريري والسياسي.

سادساً: الأغاني. إذا كان مسؤول المكتبة الموسيقية هو وحده من يقرر أي الأغاني ستبث فسوف نستمع إلى الأغاني نفسها تتكرر كثيراً. ليس هناك شخص يملك ذائقة مطلقة التنوع. وتركيب قوائم الأغاني مسألة بحاجة إلى شغل. الأغاني التي تعكس روح البلد وتاريخه مطلوبة، ولكن ذوق الجمهور أوسع من ذلك. الأغنية الجديدة هي بذاتها خبر، والمستمعون يريدونها. مثلما انتبهت الصحف الأجنبية إلى ضرورة الاهتمام بالصور، وبدأت تُعَيِّنُ «محرر صور»، فعلى الإذاعات أن تهتم بالأغاني. ننسى أنفسنا.. نكبر.. ونظل نعتقد أن أغنية «دخلك يا طير الوروار» جديدة. لماذا؟ لأننا سمعناها أول ظهورها، وسُررنا بها. ونسى أن كثيرين من المستمعين ولدوا بعد الوروار. التعامل مع الأغنية كخبر معناه ببساطة أن نتابع الجديد.

سابعاً: البرامج الإخبارية. التلفزيونات جعلت نشراتها برامج إخبارية. فالنشرة التلفزيونية تحتوي على الخبر مرفقاً بمقابلة أو بتقرير مراسل أو بكليهما حسب أهميته. ولكن الإذاعة تظل أحرص على سرعة الإيقاع.

ثامناً: اللغة الشعرية. فيما بين البرامج تجبها فقرة عن الوطن «مضمخة بعبير السوسن البري الذي يتموسق في أذن الفضاءات الموغلة في البوح». هذا ما كنا نكتبه في الصف العاشر. وهذا يرد على لسان المذيعين والمراسلين كثيراً. ولكن.. ثمة ما هو أسوأ! في تاسعاً..

تاسعاً: نحن الوطن. ثمة عبارات صارت كليشيهات باهتة. مثل «ودائماً من صوت فلسطين»، ومثل «والله تعالى أعلى وأعلم».. ليس فقط لأن «تعالى» و«أعلى» من نفس الجذر، ولكن أيضاً لأن من الاعتذارية

المموجة أن نلحق كل ما نقول بشرط إلهي. هذا عن العبارات المكرورة. ولكن المسألة أسوأ حقًا. هناك خط فكري خفي في «صوت فلسطين» هو أن المسموح له بالحديث عن فلسطين هو نحن فقط. هناك عصا غليظة مسلطة على الجمهور هي أن حدود التفكير في الوطن هي هذه التي نرسمها نحن. من هذا الخط تتفرع برامج كثيرة تمجد فلسطين تمجيدًا لا داعي له، وتضفي رومنسية مقحمة على الألم الفلسطيني بشكل صارف للمستمع. فلنقرر بأن هذه الإذاعة الرسمية لا تخرج عن خط السلطة، ومنظمة التحرير، ولنحاول ضمن هذه الحدود أن نتصرف بشكل طبيعي. إن إزجاء التحايا «الوطنية» لمن نُجري معهم مقابلات شيء يذكّر المرء بوسائل الإعلام الحزبية. هذا ليس جميلًا، وهو اعتذاري، بمعنى أنه يمثل غطاءً للإعلامي الضعيف الذي يبالغ في التشدق بالوطن والوطنية فكأنما هو يقول لمسؤوليه ولستمعيه وللمسؤولين السياسيين: لا يتهمني أحدُ بشيء فأنا وطني حتى النخاع، ولا مجال للطعن في مهنتي ولا في خفة ظلي لأنني.. وطني. في الواقع أننا جميعًا وطنيون، وفي الواقع أيضًا أن المرء يمكن أن يكون وطنيًا جدًّا وذائبًا في حب فلسطين ومنظمة التحرير، ولكنه مع ذلك مذيع فاشل. المطلوب أن تكون وطنيًا وإعلاميًا جيدًا.

عاشرًا: فُكّر في المستمع. المذيع الذي يفكر في المستمع لا يقطع الأغنية قبل القفلة. ببساطة يجب أن يستمتع المذيع بما يذيع على الناس، ويعايش استماعهم، ويسمع معهم. حتى في المقابلة فقد يمضي الضيف في جوابه ويبدأ يكرّر نفسه. المذيع الجيد يصغي للضيف وينقذه بسؤال جديد عندما يبدأ بالتكرار. والمذيع السيئ لا يصغي بل يفكر فقط في أسئلته ويرميها في وجه الضيف كيفما اتفق.

حادي عشر: هذه مجموعة من البرامج الممكنة.

أ- نحن والعالم: في كل حلقة نستضيف سفيرنا في بلد معين، مثلاً ماليزيا، فيحدثنا عن طبيعة علاقاتنا كدولة بهذا البلد، وطبيعة الجالية الفلسطينية وعدد أفرادها. ثم نستمع في البرنامج إلى أغنية ماليزية، ثم مختصر عن ماليزيا: موقعها وسكانها ... إلخ.

ب- أخبار العالم: نشرة إخبارية متنوعة عما يجري في العالم كله. وتأتي ضمن برنامج إخباري موسع في المساء مثلاً. العالم مليء بالأخبار العلمية، والناس مهتمون بما تنتجه آي فون وسامسونج، وبانقلاب حدث في كمبوديا. مدة النشرة ثلاث دقائق، نعود بعدها للتقارير المحلية.

ج- هاشتاج: من الممكن تلخيص الاتجاهات العامة في العالم العربي من خلال النشاط على تويتر. هذا شيء سهل على من هو متابع للمشهد. هاشتاج يمكن أن يتطرق أيضاً إلى الفيس بوك، وسائر تلك الوسائل، ويمكن أن يوضع له خط تحريري محترم يمنعه من الانزلاق في المهاترات.

د- أغاني العالم: مجموعة من أجمل الأغاني من البرازيل وتركيا والسنگال وغانغام ستايل، وآخر ما خرج من الكنتري ميوزيك، والجاز، والراب ... إلخ. هذه النصف ساعة قد تصبح نقطة جذب للشباب.

هـ- امسك حرامي: برنامج عن السرقات. في الشعر العربي القديم أُلِّفت كتب كثيرة عن السرقات الشعرية. ويمكن أن يحتوي

البرنامج على سرقات الألحان أيضًا... بقليل من البحث يمكن للمعد أن يصنع حلقات كثيرة بطلها محمد عبد الوهاب والرحابنة. برنامج كهذا بحاجة إلى إعداد جيد. ويمكن أن يكون طريقًا بحق، ولعله متخصص من حيث الإعداد، فأما من حيث المادة فهو ممتع وترفيهي وثقفي أيضًا.

و- فنان من بلدي: برنامج ليس بحاجة إلى شرح.

ز- أغنية لها قصة: برنامج قصير يسيطر عليه الغناء القديم. المراجع: هناك على الإنترنت آلاف الصفحات في هذا السياق. المطلوب فقط الشخص الغاوي لكي يصنع هذا البرنامج الذي طوله أربع دقائق: للقصة دقيقة وللأغنية ثلاث دقائق.

ح- الأغاني الجديدة... هذا ليس برنامجًا.. الأغاني الجديدة يجب أن تتسلل إلى مواضع شتى في البث. ولكن المذيعين الذين لا يسمعون الجديد قد يسقطون في فخ استعمال أغان عتيقة مرارًا وتكرارًا... ولا ننس أن مذيعي «صوت فلسطين» من فئة عمرية متقدمة مقارنة بمذيعي الإذاعات الخاصة، ويحتاجون إلى بذل جهد لمواكبة الأغاني الجديدة.

ط- مسابقات: هنا يتجلى عنصران، الثقافة العامة، ومتعة السباق. يمكن عقد حلقة في كل مدرسة بين طلبة يختارهم مُعلّموهم (مستوى الثانوي مثلاً)، ويتم اختيار طالب فائز وسط تصفيق جمهور الطلبة. وعلى مدى العام تجري الحلقات أسبوعيًا. مثل هذا الأمر بحاجة إلى كثير من التخطيط والتعاون مع وزارة التربية

والتعليم. ولكن برنامجًا كهذا يمثل عنوانًا للإذاعة الكبيرة التي هي إذاعة الوطن بحق. يتجول البرنامج بين مدارس مختلفة ويظل يتجول. الركائز الأساسية لنجاح مثل هذا البرنامج: * الأسئلة الحقيقية وليس أسئلة التحزير، وهذا يستدعي وجود فريق إعداد جيد، * سرعة الإيقاع وخفة ظل المذبة أو المذبة، * وجود جوائز مناسبة وغير نقدية، * رعاية مناسبة تقدم الميزانية والجوائز، * وجود جمهور في الاستديو، * وجود هندسة صوتية قوية تضمن توازنًا صوتيًا وقاعة جيدة أكوستيًا بحيث يتم التحكم جيدًا في الصدى. وبالنسبة للمذبة أو المذبة ففي حال تم ضبط البرنامج بتخطيط مستوفى وضبط مسألة فريق الإعداد، فإن تغيير المذبة بحسب المنطقة سيكون أمرًا عاديًا. (عندما غيروا مذبة برنامج هارد توك تيم سباستيان قال بعضهم: إن البرنامج سيسقط، ولكن ستيفن ساكر جاء ونجح، وزينب بدوي جاءت ونجحت ... لأن الإعداد ... جيد).

ي- قصة قصيرة: الأدب لا يدخل الإذاعة بسهولة. قراءة الشعر لم نقتربها كبرنامج لأن المذبةين يكسرون كسرًا فاضحًا حتى في شعر محمود درويش. لكن القصة القصيرة ممتعة، وهناك آلاف القصص القصيرة العربية والمترجمة التي يمكن حشرها في سبع دقائق. ومن ذا الذي قال: إن تشيخوف، ومحمود شقير، ويوسف إدريس لا يملكون أن يرفهوا عن المستمع؟ هذا ترفيه راق وجميل، وكل ما يحتاجه الأمر مذبة يحب الأدب ويتقن لغته.

ما بعد الصواميل

هناك أشياء مهمة في تدريس الإعلام في الجامعة، وهناك شيء قليل الأهمية.. شيء واحد. ونبدأ بالشيء القليل الأهمية ولسبب وجيه، فهو الشيء الذي يركزون عليه أكثر من غيره في جامعاتنا. وهذا الشيء هو الصواميل.

الصواميل: يضعون بين البرغي والصامولة حلقة مستديرة نسميها نحن بالاسم الأجنبي رونديلا، ويسميها المصريون اسمًا أجمل؛ يسمونها وردة. وهدف هذه الحلقة توزيع الضغط وخلق حالي رصٍّ وفصل تمنعان البرغي من التحلل عن صامولته، أو هكذا أفهم دورها. وصبي السمكري يعرف كل شيء عن البراغي والصواميل والوردات.

وبالنسبة للإعلام فالصواميل هي عبارات المسجل والكاميرا، وبرامج تقطيع الصوت والصورة على الحاسوب، والأسئلة الستة المطلوب الإجابة عنها لدى كتابة الخبر، والهزم المقلوب، والوصايا السبع: لا تكذب، لا تبالغ، لا تسرق.. معروفة.

هذه الصواميل الإعلامية يمكن تدريسها للطالب في يومين. فإذا أنفقنا في تدريسها عامين -كما نفعل الآن- فسوف يخرج الطالب حافظًا لها، ولكنه لن يتقنها كما يتقنها مصور محترف ليست معه شهادة، أو كما يتقنها محرر صحفي محترف لم يدخل جامعة.

صبي السمكري سيظل الأشطر في الصواميل؛ لأن الصواميل صواميل.

فإذا كان الغرض من تدريس الإعلام أن يصبح الطالب بارعاً في «تقنيات» الإعلام، فخير له أن يذهب إلى معهد ليأخذ دبلوماً في ثلاثة أشهر.

بالمثل فإذا كنا سنعلّم طالب الحاسوب كيف يستعمل الكمبيوتر فخير له أن يجلس في البيت؛ لأن «استعمال الكمبيوتر» صار -حرفياً- لعبة أطفال.

الجامعة تركز جهدها في منح طالب الحاسوب آفاقاً برمجية، وتعمقاً في مفاهيم الحوسبة، وفي تفكيك الظواهر ثم تركيبها رقمياً.

في الإعلام الأمر أعقد. فطالب الحاسوب غير مطالب بمعرفة القضية الفلسطينية، ولكن طالب الإعلام مطالب بمعرفة القضية الفلسطينية والكونغولية أيضاً. وطالب الحاسوب يكتفي من الإنجليزية بقدر معين، وعلى طالب الإعلام إتقان أكثر من ذلك. وطالب الحاسوب ليس مطالباً بعربية فصحي، ولا بمعارف جغرافية وتاريخية كثيرة، وطالب الإعلام مطالب بهذا.

هدف هذه الورقة: أن تجيب عن السؤال: كيف لطالب إعلام أن يصبح مميزاً في سوق الإعلام المحلي والعربي والعالمي؟

أولاً: الصواميل، قليل منها ضروري. لا بُدّ للصحفي من بعض المهارات اليدوية الحاسوبية، ولا بُدّ له من بعض التصوير وبعض التسجيل على جهاز جيد. ولا بد له من معرفة الأسئلة الستة والهرم المقلوب. وكما قلنا -ولن نغير كلامنا- فإن دراسة الصواميل تستغرق يومين. ومن طريف ما مرّ بي أن دائرة الإعلام ومركز الإعلام بجامعة بيرزيت قعدا يلهثان

ثلاث سنين للحصول على كاميرات، وبعد طول اللهاث حصلنا على كاميرات «هاي إيت»، وحصلنا من ممول أجنبي على كاميرتين ثمن الواحدة خمسون ألف دولار، ثم كان لي بعد سنوات قلائل أن أدرب صحفيين محترفين في مؤسسة ميزانيتها تبلغ عدة مليارات من الدولارات سنوياً، وكانت الكاميرات المستعملة في التدريب تلفونات. فالمطلوب من الصحفي أن يلتقط الحدث لا أن يصبح مصوراً محترفاً.

في الجامعة يكتسب المرء المهارة وسعة الأفق والمعرفة والقدرة على رؤية الصورة الواسعة. وبهذا يتميز عن حامل دبلوم المعهد الصناعي. بعض المهارات أصعب من بعض. فطالبٌ جاء من مدرسة أجنبية سيكون نصيبه من الإنجليزية وفيراً، وطالبٌ محبٌ للمطالعة لن يلقى نفس الصعوبة في العربية الفصحى، وطالبٌ ذو خلفية علمية سيتميز، وطالبٌ تعرض في صباه لوسائل إعلام جيدة سيكون متميزاً. سيكون الطريق مفروشاً بالأشواك لطالب يحلم بأن يكون مراسلاً للسي إن إن وهو خريج مدرسة حكومية وأفقهُ الإعلامي هو فقط الإعلام المحلي. وسيكون الطريق مفروشاً بأشواك مختلفة لطالب يحلم بأن يكون مذياعاً بالعربية، وهو قد درس في مدرسة أجنبية تحتقر اللغة العربية. لكل امرئ أن يحلم بما شاء، والأفضل توجيهه لتصبح أحلامه قابلة للتحقق. وجيد أن يكون تخصص الإعلام عامراً بالخيارات، بحيث يأخذ كل طالب حاجاته الأساسية بيسر.

علينا ألا نركز على الجانب التقني؛ لأن الكاميرات تتغير وبرامج مونتاج الصوت والصورة تتغير، ولأن الهدف ليس تخريج فنيين بل

صحفيين. ولو قرر أحد طلبتنا بعد التخرج أن يكون فنيًا فسوف يكون فنيًا متميزًا لأنه واسع الفهم للصحافة، وكل ما يحتاجه بعد التخرج أن يعزز مهارته في مونتاج الفيديو مثلاً بدورة قصيرة.

الهدف من دائرة الإعلام في الجامعة بناء العقل الصحفي. وهذا فيه القليل من الدراسة النظرية والكثير من الممارسة. ممارسة الصحافة.. وليس ممارسة فكّ الصواميل.

هذه ثلاث نقاط:

١- المناخ الاجتماعي في جامعة بيرزيت فرصة موجودة وتُسهم في تحقيق الهدف. والهدف -تذكيرًا- أن يكون خريجين في الإعلام مميزًا في سوق الإعلام المحلي والعربي والعالمي.

٢- المطالعة: أهم مطالعة هي ما «يرتكبه» المرء في الطفولة والصبا. هناك يكون التشكّل. فإذا جاء إلى الجامعة فالجو الطلابي، والاختلاط مع الجنس الآخر، والتفكير المتعاطف في المستقبل والوظيفة تشغله جميعًا عن استهلاك عدد كبير من الصفحات. كان حلمًا أن نفرض على الطلبة قراءة خمسين رواية وخمسين كتابًا في التاريخ والسياسة والاقتصاد قبل التخرج. حلم نعتذر عنه. فلتكن المناهج مصحوبة بقراءات معقولة. لقد تخرج المئات دون قراءة كتاب واحد، ولا نريد ذلك. فليكن الهدف أن يقرأ الطالب خمس روايات وعشرة كتب في سنتي التخصص جميعًا. يحتاج الطالب إلى أن يخلو بنفسه مع الكتاب يقرؤه ويرتقي فكريًا، ومثلما جربنا ذات سنة برنامجًا للمطالعة نجح نجاحًا متوسطًا يمكننا أن نطور التجربة، لتنجح نجاحًا أكبر.

٣- المنهج والأساتذة: الأساتذة الموجودون بعضهم مشرب بروح جامعة بيرزيت التحررية، وبعضهم ممن يعمل بالقطعة وفيه من هذه الروح القليل أو الكثير. وحرية الأستاذ يجب الحفاظ عليها في كل حال.

وصف المرشح لتخصص الإعلام: شخص يجيد العربية، ويقرأ الخبر بالإنجليزية يفهمه بمساعدة قاموس، ويتمتع بثقافة عامة جيدة. ولإجازة ترشيحه يقدم اختبارًا مدته ٥٠ دقيقة.

وصف خريج الإعلام: شخص يعرف الخريطة السياسية الفلسطينية معرفة جيدة، والعربية بشكل طيب، ويمكنه أن يستعمل مصدرًا إنجليزيًا لاستقاء الأخبار وقراءة بعض التحليلات، ويستطيع كتابة خبر بعربية صحيحة مع استيفاء عناصر الخبر، ويعرف البيئة الإعلامية الفلسطينية والعربية، ويستطيع إجراء مقابلة ناجحة لبرنامج إخباري وآخر اجتماعي. ثم يضاف إليها واحدة أو اثنتان من المسائل الحرفية مثل تصميم وإنتاج برنامج إذاعي، أو تحضير تقرير تلفزيوني جيد، أو قراءة نشرة أخبار قراءة سليمة، أو الإتقان التطبيقي لقواعد اللغة العربية.

لا نسعى إلى صناعة الصحفي الشامل. فهذا يتكوّن في الممارسة أو لا يتكوّن.

الدمج: الجرائد تتلاشى، وأخذت مواقع الإنترنت تسود. وصحفي الإنترنت مطالب برفع ملفات صوتية، وبالتعامل مع الفيديو. وكل هذه الأنشطة في السوق تقتضي القدرة على التعامل مع الصورة والصوت والمادة التحريرية واللغة. ولذا أصبح ضروريًا دمج التخصصات

الإعلامية. وما يمنع الدمج هو فقط مخاوف بعض الأساتذة من البقع العمياء في مهاراتهم، وهذه البقع العمياء موجودة عندنا جميعًا، وليس أستاذ الإعلام مطالبًا بتدريس كل شيء، وكذلك -وبالمثل- ليس كل طالب إعلام مطالبًا بدراسة كل مساق. لكن من الظلم المبين أن نرغم الطالب على الاختيار بين «صحافة الجرائد» وبين «الإذاعة والتلفزة». فطالب الصحافة محتاجٌ لبعض مهارات الصوت والصورة، وطالب الإذاعة والتلفزة محتاج لبعض مهارات التحرير. ومن الخطأ في هذا العصر أن نضع (الجرائد) في كوم مقابل (الإنترنت والتلفزيون والراديو) في كوم آخر. الدمج سيعطي كل طالب كثيرًا من مهارات التحرير واللغة والصورة والصوت، ثم يتاح له بعد ذلك أن يختار بحرية بعض المساقات كالتمثيل الفوتوغرافي، والإلقاء الإذاعي، وفنيات الصورة، والوثائقي، والنظريات الإعلامية. هذه كلها خيارات، بجانب مجموعة المساقات المفروضة على الجميع.

بعض النماذج: طالب متميز في الحركة والتشبيك ومعرفة القضايا الحساسة سياسيًا واجتماعيًا، ولكنه لا يملك جهاز نطق جيدًا وحروفه مكسّرة ومخارجه رديئة، ولا يريد أن يأخذ مساق الإلقاء. هذا الشخص له مجال مهم في الإعلام، ولكنه ليس مذيّعًا. وطالب يعشق الإلقاء والحوار ولا يريد أن يأخذ مساق التصوير الفوتوغرافي. وطالب اهتمامه الأساسي الأخبار، ولا يريد مساق الوثائقي.

كل هؤلاء الطلبة يحتاجون حتمًا إلى فهم التحرير وإلى اللغة، وإلى معرفة كيفية كتابة الخبر والتقرير، وإلى معرفة آفاق الإعلام الجديد. كلهم

سيأخذون المسابقات الإجبارية التي تضمن خروجهم صحفيين، وينتقي كل طالب من المسابقات الاختيارية ما يناسب هواه.

جو المقال: هو ورقة فكرية كتبها لتطوير الدراسة الإعلامية في جامعة بيرزيت بفلسطين. وكان في الورقة - قبل تحريرها هنا - وصف للمسابقات وتفصيلات أخرى. عمومًا: كان مصير الورقة سلة المهملات. وأنشرها اليوم أملًا في أن تكون فيها فكرة مفيدة مع أن صناعة الإعلام تغيرت في السنين الثماني عشرة المنصرمة.

عن المذيعين

- خير ما يوصف به المذيع أنه إعلامي جيد. أما أن يكون الانطباع عنه أنه نصير الحق أو حامي الوطنية أو مُسكت السّاسة فهذا مَنقصة لا مَحَمدة.
- السؤال الطويل رديء، وأردأ منه السؤال الذي يبدأ بمجموعة معلومات، ثم يتسكع المذيع في أروقة الكلام بحثًا عن سؤال، ثم ينتهي قائلًا: «فماذا تقولون في ذلك؟»
- السؤال المزدوج رديء دائمًا. وأردأ منه سلسلة الأسئلة المتعاقبة التي يبدأها المذيع بسؤال ركيك يُدرك ركاكته فور الفراغ منه فيُردفه بسؤال آخر يوضحه، ثم ثالث يجمع شتاتهما والنتيجة أن يسأل المذيع عن شيء مختلف تمامًا عما بدأ به.
- حتى لو كان السؤال مكوّنًا من كلمتين فقد يدل على حصافة المذيع وعمقه ومتابعته، ذلك أنه يأتي في مكانه بالضبط وينبئ عن جُسن إصغاء ومتابعة.
- المقابلة التلفزيونية - طالت أم قصرت - هي سؤال وجواب. وليس للمذيع أن يقدم تعليقًا أو تقريرًا ضمن المقابلة، قصارى المذيع أن يسأل ويأجيز وتركيز.

- إذا اشتبك ضيفان في مساجلة تفضح نقاط القوة والضعف في حجج كل منهما فخير ما يصنعه المذيع أن يحسن الإصغاء إلى أن يخرج أحدهما عن الموضوع فيردّه إليه ثم يسكت. المشاهد يدرك بغريزة شديدة الحساسية أن المذيع لم يصنع ذلك عن ضعف بل عن فضل اقتدار.
- ما أكثر ما يستطيع السؤال أن يحمل من أغلاط: السؤال الغلط للضيف الغلط آتيا في الموقع الغلط منطوقا بالنبرة الغلط. ليس نادرا أن يكون عدد الأغلاط الصحفية في السؤال أكثر من عدد كلماته.
- ما يريده المذيع من الضيف إنما هو المعلومات أو الآراء أو كلاهما، فليقصد إلى مبتغاه بترتيب يريح الضيف والمُشاهد.
- المذيع الجيد يبدو مرتاحا غير منفعل، وليس به من التوتر إلا القدر المحدود الذي تستدعيه الكاميرا. الانفعال والتشدد دليلا ضعف.
- ليس من حق المذيع أن يسدد اتهامًا مباشرًا للضيف بالمرأوخة، فهو أصلاً لا يملك الحق بالإدلاء برأي. حسب المذيع أن يكشف في أقصر وقت ممكن عن عدم وجود جواب حرصاً على وقت المشاهدين وعلى إيقاع البرنامج. ليس له أن يقول للضيف: «إذن فأنت لم تجبني على السؤال»، وأسوأ من ذلك أن يقطع المذيع المقابلة بتوجيه الشكر فوراً بعد اتهام كهذا.

• فرق شاسع بين أن يدرس المذيع ملف القضية ويُلمَّ بجوانبها ويكون فوق ذلك متابعًا للأحداث والتيارات المختلفة، فينطلق في أسئلته من أرض صلبة واثقًا مستخبرًا عن معلومات ومواقف جديدة، وبين أن يرتل أسئلة مرصوفة منتظرًا الفرج من الملقان المدسوس في أذنه.

• للضيف أن يكسب بعض الوقت للتفكير متكئًا إما على البسملة والتحميد -وهل نملك بإزاء ذلك شيئًا- وإما على عبارات جوفاء من قبيل «في الواقع أنه يجب في البداية العودة إلى أصل القضية». وللمذيع أن يُنظره إلى أن يزول ما بنفسه من وحشة. ولكن المذيع الذي عالج القضية موضع البحث علاجًا عميقًا سيحس عاجلاً بسؤال مُلحٍّ وحقيقي. وهذا ينقذ الطرفين من المراوغة.

• مقاطعة الضيف شرًّا لا بد منه. ليقاطع المذيع ضيفه الذي خرج عن الموضوع بسؤال قصير واضح.

• السؤال الذي يجتلب نعم أو لا رديء عمومًا. وهو يخلق ميلًا لدى الضيف للخروج إلى أي موضوع يريده، أو أن يجيب الضيف إجابة قصيرة مما يستدعي من المذيع أن يتبع سؤاله بذيول تفتح باب القول للضيف، وفي الذبول آفات. وإذا اضطّر المذيع لسؤال بـ «هل»، فليتهياً بسؤال آخر بعد تلقّي الجواب القصير.

• ليست «يعني» و «إذن» و «في واقع الحال» قبيحة بنفسها، ولكنها تأتي في مواضع تكشف أن المذيع ضلَّ طريقه. فقُبِّحها قُبِّح مستمد لا أصيل.

- أسلوب «التنعيم» في آخر المقابلة (أن يكرر المذيع كلمة نعم لإنهاء المقابلة) كالكي. والمذيع الذي يكوي كل ضيوفه حقيقاً بالبحث عن وسائل علاج أخرى.
- قلّ مذيع -أو إنسان- يخلو من التذاكي والتعالم والتفاصيل والتفاهق. إنما يميز المذيع الجيد قلة حظه منها.
- أيسر ما يحتاجه المذيع عربية سلسة، وسليقة تعصمه من اللحن بأقل مجهود حتى يشغل نفسه بموضوعه لا بالفتحة والضمّة. لكن حاجة المذيع إلى النباهة التحريرية والثقافة العامة والمتابعة السياسية والمعرفة المعمّقة بالملفات السياسية والاجتماعية الراهنة مأسّة. وليس صعباً قياس ما يملكه المذيع.. بضع مقابلات كفيلة بفضح بضاعته من كل أولئك.
- صناعة مذيع: عندما نشأت الإذاعة أخذت مذييعها من المسرح وظلت في أسر الإرث الخطابي زمناً، ثم برز المذيع الهامس على أمواج الإف إم. وأخذت التلفزيونات العربية مذييعها من الإذاعات العربية قبل أن تدخل تلك الإذاعات عصر المذيع الهامس. فهناك نمط المذيع الخطيب وهناك نمط المذيع القارئ. وفرضت المقابلات، وهي بدعة جديدة على صناعة المذيع، مستوى آخر من الثقافة والوعي. ولكن التلفزيونات العربية تأخرت في تغيير مواصفات المذيع، وظلت الطلّة والتخشب أمام الكاميرا في هيئة مسرحية والتلوين الصوتي من المستحبات. وقد آن أن ندرك مدى

أثر الثقافة والوعي السياسي في إعطاء المذيع هيئة مطمئنة وإطلالة
أنيسة على الشاشة.

- مفيد للمذيعين الانخراط في ندوات داخلية تعالج ملفات سياسية
واقتصادية وبيئية وعلمية خبرية. هذا نشاط داخلي لحض المذيعين
على التعمق. لو طُلب من مذيع أن يقدم لزملائه عرضاً مدته نصف
ساعة بعنوان: «النفط والغاز في العالم اليوم»، وأُتيح للمذيعين
نصف ساعة نقاش لكان في ذلك فائدة كبيرة. ولو تكرر هذا
«السيمنار» أسبوعياً، مع تنوع الموضوعات، لصنع فرقاً في
المحطة.

جو المقال: قُرى المقال في اجتماع لجنة التحرير لقناة الجزيرة.

ورطة المذيع، وورطتنا معه

هذه مسألة مركبة، ولشرحها أحتاج إلى ضرب المثال بعد المثال. وأحتاج إلى التبسيط في الكلام، فمن لم يكن لديه الوقت لمتابعة كلامي فلينصرف راشداً.

ثمة عنصر لمسته في كثيرين من المذيعين الذين تعاملت معهم: عنصر الإعناق. ومن رأى هند رستم وقد لُفَّت على كفليها «الملاية اللف» وأعنقت في مشيها (يعني رفعت رأسها وتعاجبت، وصارت تمشي ببطء متمائلة، يتحرك جسمها حركتين محورهما خصرها: حركة للردفين بطيئة، وحركة معاكسة لها للصدر وللرأس المرفوع المشرب الممعق إعناقاً)، من رآها فقد رآها، ومن لم يرها فقد أريته صورة مشيتها، هذه الهند رستم ينطلق جسمها من منطلق عقلي وشعوري، فالجسم لا يتحرك على البطارية. هي تقول: «يا أرض اشتدي، ما حدا قدي».

وقد رأيت في فيلم وثائقي لهويدا طه كيف يدرّبون رجال الشرطة في كلية الشرطة: يقول لهم المدرب: «امشي وتعاجب. رأسك فوق فوق، واجعل الكل تحتك». هذا المفهوم الشرقي لرجل الشرطة موجود بقوة. وقد سمعت مدير شرطة نابلس بعد أشهر قليلة من قدوم السلطة الفلسطينية، في محاضرة لعدد من الصحفيين، يقول: «إن الشرطة يجب ألا تكون من المدينة نفسها، فهي تأتي لكي تحكم الناس لا لكي تتعامل معهم». ورأيت أساليب الشرطة البريطانية في زيارة لمخفر شرطة في

ببرمنغهام كنت فيها ضمن مجموعة من الصحفيين الملتحقين بهيئة الإذاعة البريطانية. حدّثونا عن اللهجة القاسية التي يتعاملون بها مع المشتبه فيه، مع الحفاظ على حقوقه القانونية وتنبهه إلى أن من حقه ألا يقول شيئاً إلا في تحقيق رسمي إلخ.

وأعود إلى المذيع: مُعِنِّقاً مثل ليلي رستم، أم قاسياً جافياً مثل شرطي نابلس وبرمنغهام، أم شخصاً ذكياً قوي الشخصية، ممسكاً بزمام الأمور؟ عندما توفي نزار قباني، أجرت محطة تلفزيون مقابلات في الشارع مع الناس. أحد المواطنين شدَّ الميكروفون من يد المذيع وأمسكه، وراح يؤبّن الفقيد بحرارة. لا أدري إن كنت أقفلت التلفزيون بالفعل، أم أقفلت عقلي دونه. لكن موقفني كان الأشمئزاز من المذيع. لا أرى المذيع يترك ميكروفونه ويظلّ مذيعاً. هذا كالسائق الذي يترك عجلة القيادة للعجوز الجالسة بجانبه التي تحذره من العطفة المقبلة، يقول لها: «خذي يا ستي سوقي السيارة». هذا ليس سائقاً أطمئنُ إليه. أريد للمذيع أن يكون قوي الشخصية عارفاً موضوعه.

فإن قل محصول المذيع من المعرفة عوّض ذلك بالوقاحة، والتعدي. والعناصر لا يحل أحدها محل الآخر. هذه معادلة كيميائية مزبوبة: ملعقتان من قوة الشخصية وأربع ملاعق من المعرفة، وملعقتان من حضور الذهن، وأربع ملاعق من الدرس والتحضير، وملعقتان من التواضع والأنس واللفظ. وملعقة من الضعف الإنساني الذي لا يتجرد منه شخص إلا كان مجرداً من إنسانيته. الوقاحة ليست ضمن المعادلة.

لا ينفع أن يغيب عنك التحضير الجيد فتستعيز عنه بمزيد من الشراسة (كلمة شراسة يجب أن أتذكرها لفقرة لاحقة).

تكون شاهدت في صغرك الإعلام الحكومي، ورأيت المذيع مستخدماً أمام الوزير في المقابلة، وتراه يُجري مقابلة مع وزير التربية والتعليم: مقابلة محنطة في أسئلتها. لا يقول كلمة جارحة، وإلا سيفقد وظيفته. ثم إنك بعد سنوات من عمرك تطلُّ إطلالة بسيطة على الإعلام الغربي، فتفغر فاك دهشةً. تلاحظ عنصرًا جديدًا. هو التحدي، (تسالنج بلغتهم). ترى المذيع يواجه المسؤول بحقائق، وأسئلة صعبة. ويتهرب المسؤول ويلاحقه المذيع بتكرار السؤال إما بصيغة أخرى، وإما بنفس الصيغة إن كان تهرب المسؤول مفضوحًا.

وكرر فعل من جانبك، بعد رؤيتك الإعلام الغربي، تكفر بصورة المذيع التي عرفت في صغرك. وتستبدل بهذه الصورة استبدالاً المذيع الغربي المتحدي الشرس. هذا من خطلك يا أخطل.

نقول لك: توازن. اعتدل. الأمر ليس مسألة استبدال، ولا هو مسألة اقتباس لخصيصة واحدة. من حَقك أن تنبذ أسلوب المقابلات «الحكومي». ولكن ليس من حَقك أن تفهم الطريقة الغربية فهمًا مبسطًا مختلاً، ولا أن تطبقها بشكل اعتباطي. ضيوفك العرب في المقابلات التي تُجرىها ليسوا كضيوف المذيع الأجنبي، ومشاهدوك العرب لهم مذاقهم وطريقتهم في التقبل والمتابعة.

نعود إلى لفظة شراسة.

المذيع الذي يتلقى الكثير من معلوماته وأسئلته تلقينًا من زميله الجالس في غرفة التحكم يميل إلى تعويض ضعفه وضحالة مادته عن طريق زيادة عنصر الشراسة.

والجمهور هو المذنب الأكبر. يقولون للمذيع عندما يروونه في بهو الفندق أو في المحل التجاري: «كنت بطلاً، لقد قضيت عليه، وأخرسته وأفحمته. ذلك الوزير فعلاً كان مثل اللعبة بيدك. برافو عليك».

وسلامة عقلك أيها المذيع وأنت تسمع هذا الإطراء. تصير تعتقد أن إخراس الضيف هو واجبك الأول.

كنت أظن مهمة المذيع إنطاق الضيف لا إخراسه.

الجمهور ليس خبيثاً، لكنه يكره المسؤولين. والجمهور أقرب إلى الجهل منه إلى التنور. والجمهور يكذب على المذيع عندما يراه: يجامله.

أحد المذيعين قال لي: «ألا ترى لاري كينغ كيف يتحدى ضيوفه، وكيف يفعل ويفعل». وأنا أقول له الآن: «نعم، لاري كينغ يفعل ذلك، وبغاية اللطف. ولاري كينغ يخدم جمهوره. ولاري كينغ مذيع كبير. وأنت يا عزيزي لست مثله. أنت أقل بكثير. أنت تدخل مع ضيفك مباراة لكي تلقية أرضاً، ولاري كينغ ينصت إلى ضيفه بأذنيه، وبعينيه، ويعطيه الفرصة الوافية، ويساعده في عرض وجهة نظره. ولا يرضى لنفسه أن يفوز بالضربة القاضية عن طريق ترهيب الضيف. رُخ رُخ تفرّج على لاري كينغ جيداً. أنت لست به».

أوقع مذيع رأيته جيريمي باكسمان في برنامج نيوز نايت. سأل نائباً بريطانيّ زميله: «هل تبكسمت؟» (هاف يو بين باكسماند). يعني: «هل

مررت بمحنة باكسمان؟» اشتقوا لتلك المحنة فعلاً من اسم الرجل .
ولست من معجبي باكسمان، على أنني رأيته في مبنى التلفزيون في وايت
سيتي بلندن (وكنت هناك في شأن عارض) واقفاً يشاهد التقارير مع
مُنتِجه ويسمع ملاحظات المُنتِج برأس مطأطئ. كان الوقت عصرًا،
وبرنامجه في الحادية عشرة ليلاً. فعرفت أن الرجل يحضر برنامجه
تحضيرًا سريعًا. وتلك فضيلة. وتذكرت زميلًا لي مذيّعًا كان يدخل
المحطة قبل البرنامج بنصف ساعة، ويفتح ديوانًا مع الناس ويمازحهم،
ويرجئ أي تحضير للمادة حتى قبل الهواء بدقائق إدلالًا وإشعارًا للقاصي
والداني بأنه لا يحتاج إلى أي تحضير. كان -رحمه الله- يستعيض عن
التحضير بقوة صوته وبذراية لسانه.

المذيع العربي في الفضائيات -وخصوصًا المشهورة- لا يجد له
مُعينًا ولا موجهًا. هذا محرر جيد حاول مرة أن يوجه مذيّعًا بغاية اللباقة،
فحدجه المذيع بنظرة قاسية جافة مستقيمة، نظرة في وسط بؤبؤ العين،
وقال له: «خذها من قصيرها، أمس تعشيت مع الباشا فلان، وفي الأسبوع
الماضي دعاني إلى مزرعته الوزير فلان. ولم أسمع منهما هذا الذي
أسمعه منك». فما كان من المحرر إلا أن خفض عينيه، وقال في قلبه:
«لنربط الحمار في المكان الذي يريده صاحبه». حقًا في موقف كهذا
رضي المذيع أن يكون حمارًا يُربط. في المرة المقبلة دخل المذيع الحمار
نفسه على مُحَرَّره، وكان أول ما قاله المذيع: «اطلب لي شايًا لو سمحت».
(هذا يحدث في التلفزيونات الرسمية).

ومضى هذا المذيع في عمله يوافق بعض الضيوف، ويسلق بعض
الضيوف، ويحاول جاهدًا أن يقنع الناس أنه مناضل. يناضل عندما يُسمح

له، ويسكت عندما يشعر أن الجو لا يسمح بالنضال. ويرى أن مهمته أن يصنع الرأي العام، لا أن يساعد الناس في الوصول إلى قناعات عن طريق ما يقدمه لهم من معلومات. وظل متألقاً.

في الغرب يتعرض المذيعون لما يتعرض له مذيعونا من مرض نفسي اسمه الشهرة الزائفة. مساكين كل مذيعي الكرة الأرضية. إنهم يعيشون حالة خوف دائمة. فالمجتمع يُقنعهم أنهم عظام لمجرد أنهم يظهرون على الشاشة. فماذا لو انتهى ظهورهم؟ يخافون من التقدم في السن، يخافون من التجاعيد، رجالاً ونساء. يخافون من المذيع الجديد المنافس، ويسعون لإفشاله. المذيع في الغرب يعاني من هذا المرض لكن ليس بنفس الحدة. والسبب وعيه ووعي الجمهور بحدود هذه الشهرة، وبزيفها. أقول: إن الشهرة زائفة، ولكنني لا أقول: إن مهارات المذيع الحقيقية في الفهم وفي اللباقة زائفة، ولا مواهبه الربانية في الصوت والشكل زائفة.

التلفزيون الذي يفشل في التحكم بمذيعيه تحريراً تتكون فيه مراكز نرجسية. وفيها فوائد. فالمذيع الحريص على شهرته يسعى في استضافة المشاهير وكبار رجال ونساء السياسة والفن والأدب، وهذا جيد للمحطة. وهذا سيئ أيضاً؛ إذ يأخذ المذيع الأمر مأخذاً شخصياً، ويبني علاقات شخصية مع المشاهير، وهذا ضارٌّ بمصداقيته. وتدخل هذه العلاقة، بل تتسلل، إلى كل سؤال يسأله. ويصبح المذيع مُدلاً على المشاهير من ضيوفه، وتنشأ علاقة هي غير علاقة المذيع بالضيف. ويشعر المتفرج مرة بعد مرة بأنه يرى مسرحية لا مقابلة. وقيام المذيع ببناء هذه العلاقة مع

ضيوفه يسحب من المحطة بُعْدها المؤسسي والتحريري، ويحولها إلى مجرد شقة مفروشة يتم تأجيرها بالساعة، وبالليلة.

إن مثل هذه المضاجعات بين المذيع والضيف مألوفة في الغرب والشرق. ولا نجلد أنفسنا، ولا نعفي الآخر من اللوم. ونراها في حوض البحر الأبيض المتوسط فاشيةً. فقط ألقى نظرة على إعلام بيرلسكوني، وانظر في الإعلام التلفزيوني الخاص في لبنان ومصر.

المشكلة يعزها الجمهور. الجمهور يرى المذيع بطله، ويرى الضيف شرير الشاشة محمود المليجي. الجمهور الجاهل يصنع ذلك كثيرًا، والجمهور الواعي يصنعه بدرجة أقل. نحن بشر. نرى المذيع كل يوم، ويصبح كأنه فرد من أفراد الأسرة.

رأيت مايكل بيرك كثيرًا في نشرته الإخبارية. ذات مساء بدأ النشرة بدون كلمته المعهودة «مساء الخير». رفعت صوت التلفزيون. قال: «مقتل كذا وكذا في قرية لوكربي باسكتلنده». كان محتقنًا يظهر في وجهه التأثير. ربما تمثيلًا. لكنه بموقفه ذاك أصر على أن يكون من أفراد الأسرة. بنى لنفسه هذا الموقع. لكنني على العموم أرى القاعدة الذهبية في المقابلات: المشاهد يريد أن يسمع الضيف، وإذا طال سؤال المذيع، صرخ به المشاهد: «اسكت، أريد أن أسمع الضيف»، وإذا لعب المذيع دور السائل والمجيب في الوقت نفسه صرخ به المشاهد: «يا أخي، أرجوك، اكتفِ بالسؤال واجعله قصيرًا». حتى لو كان المذيع من أفراد الأسرة، وحتى لو كان محبوبًا، فنحن لا نريده أن يتجاوز دوره.

لا يجوز أن تتحول المحطة التلفزيونية إلى عمارة شقق مفروشة. ولكي تحافظ على نفسها بنيةً متماسكةً لا بد من توظيف محررين كبار ومترسين، ومذيعين ذوي خلق وتربية حسنة ومعرفة جيدة وشخصية قوية. قد يكون المذيع شرسًا سيئ الخلق لرداءة بيئته وضعف تربيته، فإذا حسب ذلك في حسناته فثمة مشكلة هنا. لست أشك في أن انطلاق المذيع من بيئة فقيرة أمر يساعده في أن يكون صلبًا وأن يخوض معمعان الحياة بقوة ويصمم على النجاح. ولكنني أتخوف كثيرًا على استناد المذيع إلى «عصاميته» ليمارس سوء الخلق.

الشعب يحب القادة سيئي الخلق. حسبي الله على الشعب.

الصيغة الأفضل عندي صيغة هيتشكوك: يتعب كثيرًا في النص. ويتعب كثيرًا في رسم المشاهد. ويضع للممثلين حدودهم، ويقبل منهم الاجتهاد بحدود ضيقة. ثم ينفذ الفيلم باحترافية عالية، وهو سيد الفيلم. ولا بأس في أن يصبح الممثل مشهورًا، ولكن في الاستديو هو مطيع طاعة عمياء، محترف كل الاحتراف. كان هيتشكوك يسمي الممثلين «الخراف».

إذا لم يكن عندك محررون في قوة هيتشكوك فسيصبح عندك مذيعون شبيهون بالممثل الذي يفتح شركة إنتاج، ويصبح هو المنتج والمخرج والممثل، ويرمي المشاهد بتفاهاته. المحطة التي توظف إمعات ليقيموا بدور المحررين ينتهي بها الأمر إلى أن يصبح المحرر صبي الشاي، والمذيع تحية كاريوكا.

عن التعليم

التعليم الناجح في ثلاث حكايات

عمال الحفر جاهزون، والكرة الأرضية أصبحت صلبة ليس في جوفها حمم بل صخور جامدة. هيّا احفروا. بعد عمل شاق حفرنا نفقًا في الكرة الأرضية يمرُّ بمركزها. ثقب طوله ١٣ ألف كيلومتر. وفجأة سقط أحد العمال في النفق. فماذا سيحدث؟

سيظل هابطًا بفعل الجاذبية ليصل إلى مركز الجاذبية الأرضية وهو مركز الأرض، ثم بفعل سرعته سيستمر في الهبوط حتى الطرف الآخر للنفق. ثم سيجذبه مركز الجاذبية فيعود.. وسيظل يتأرجح من فم النفق إلى نهايته، وفي كل مرة تقل المسافة بفعل احتكاكه بالهواء واصطدامه بجدران النفق.. وأخيرًا سيستقر العامل المسكين في مركز الأرض. فماذا لو لم يكن هناك هواء، ولا اصطدام بجدران النفق؟ عندئذ سيظل صاحبنا يروح ويحيى في النفق بلا نهاية.

صبرًا فما هذا بدرس في العلوم، بل كلام في التعليم. (والمثال مأخوذ من كتاب الفيزياء المسلية لياكوف بيريلمان). طبعًا التلميذ في الصف السابع سيحفظ القصة. وسيتعلم القانون الأول لنيوتن (الساكن يبقى ساكنًا، والمتحرك يظل يتحرك بنفس السرعة ما لم تؤثر عليه قوة). وسيعرف عن الجاذبية الأرضية ومركزها. وسيعرف قطر الأرض. فقط من هذه القصة. هناك ألف قصة أخرى تحتوي على مفاهيم علمية.

معظمنا يخرج من المدرسة وقد نسي كل شيء. الكتاب المدرسي مُصمَّم ليكون هراوة تقرع رأس التلميذ قرعًا فيحفظ المعلومات ويكتبها في الامتحان، ثم يفيق من أثر الضرب على رأسه وينسى كل شيء.

هي ذي قصة أخرى: جاءت المعلِّمة إلى الصفِّ ومعها قارورتان: واحدة فارغة، وأخرى فيها قطعة جبن. قالت: لن أفتح القارورة الفارغة أبدًا، فهي ليست فارغة.. فيها غاز الكلور، وهو خائق. وانظرنَ إلى هذا الجبن في القارورة الثانية؟ إياكن أن تضعنه في أفواهكن.. إنه سام، هذا ليس جبناً، هذا صوديوم. فماذا لو تفاعل غاز الكلور السام مع الصوديوم السام؟ سيُنتج من التفاعل كلوريد الصوديوم.. وهو ملح الطعام. وأخرجت المعلمة من حقيبتها مملحة صغيرة ورشت منها على راحتها وتذوقت بلسانها. وقالت: مادتان سامتان اتحدتا وكونتا مادة غير سامة. اتحدتا ذَرَيًّا، وليس عن طريق الخلط.

هل ستُنسى التلميذات كلوريد الصوديوم بعد هذه المسرحية؟

نريد معلمًا يفهم أثر القصة، وكتابًا مدرسيًا جيدًا. مؤلف الكتاب المدرسي يجب أن يكون قد تزوَّد بعلم غزير، وأن يكون عاشقًا للعلم. (أين نجده! قولة المثل الإنجليزي: هؤلاء لا تُثمر بهم الأشجار). أَيْنه هذا المؤلف الخفيف الروح، المحب للأطفال، الذي يعرف يكتب، ويرسم، ويتسلسل في إيراد المعلومات، والذي يكون قارئًا، وعارفًا لغةً أجنبيةً، ومرتاحًا في حياته.

يستحيل العثور على هذا الشخص. فلتكن إذن لجنة. وليكن أفرادها متنوعين في مهاراتهم، ووجداناتهم. وليكن فيهم شخص اسمه الدينامو..

شخص يقود ولديه رؤية. هذه اللجنة ليست مستحيلة.. هي موجودة إذا كان البلد يتمتع بالحرية. وإذا كان لدى حكام البلد أولوية «ثانية» هي النهوض بجيل المستقبل. (بالطبع أولويتهم الأولى أن يستمروا في الحكم).

هل يستحيل على بلد عربي قارع للناس أن يشكّل لجنة كهذه؟ نعم يستحيل. الحرية شرط. الحرية تعني أن المواطن يشمخ ويحس بأنه مهم.

قصة أخرى لكنها ليست الثالثة: في المدرسة الصناعية ثمة منظر جميل ... سيارة مفككة على أرض المشغل، والطلبة وأستاذهم يتعلمون فكّ المحرك وتركيبه من جديد، ويتعلمون وظائف الفرامل ومشكلاتها، ويتخرجون بعد سنتين عمالاً فنيين في الميكانيكا. إن الدراسة الصناعية مطلوبة أيتها الشعوب التي تعشق الدراسة الأكاديمية.

لكننا نريد أكثر، نريد أن نبتكر محرك سيارة يعمل بكفاءة أعلى، وأن نبتكر خلايا ضوئية تصنع كذا وكذا. المدرسة الصناعية جيدة. وكلية الحاسوب جيدة. والطلبة يتخرجون قادرين على «الصيانة» وعلى «تشغيل» الأجهزة. لكن الابتكار شيء يحتاج إلى أكثر من ذلك. يحتاج إلى الخيال، وإلى العلم الغزير. مصانع الأدوية جيدة اقتصاديًا، تأتي بالوصفة من ألمانيا وتخلط الكميات وتصنع منها أقراصًا. لكن البحث العلمي العميق يجعلها تستنبط أدوية جديدة. الأمر يحتاج إلى بحث كثير، وإلى خيال.

وهذا يفضي بنا إلى قصة ثالثة: قصة السيد تشارلز غودير. ليس سيدًا في الواقع. لم يتعلم تشارلز في جامعة، ولم يكمل المدرسة. كان يساعد

أباه في عمله، وتزوج باكراً وكان له ستة أطفال، وراح يجرب. وأفلس
وسُجن، وفي سجنه واصل تجاربه. رأى المطاط دَبَقاً سريع الاهتراء.
و«تخيل» صاحبنا غير المتعلم مطاطاً صلباً لكنه لَيِّن، ولَيِّن ولكنه ليس
دَبَقاً لم يكتف بالخيال، فظل يجرب ويبحث. وخرج من السجن،
واقترض المال من كل من يعرفه. جاع أولاده وهو يجرب. وأخيراً نجح
في أن يحول خياله إلى حقيقة. لو أن لإطارات السيارات وللشبابش
السنة لنطقت بالشكر لهذا الرجل. مسكين تشارلز غودير، مات حزيناً
فقيراً، وشركة غودير التي أسسها وسماها باسمه تربح الآن المليارات
من إطارات السيارات.

يتميز الإنسان عن الحيوان بأنه يرى غير المرئي. بأنه ... يتخيل.

في صدره ١٢ لغة

هذا كلام في المديح الصّرف، في رجل لا أظنه مشهورًا. هذا الرجل في الثامنة والثمانين من العمر. شيخ جليل.. يشرف على الترجمات في مركز المصحف الشريف بالسعودية. يجب أن تراه يتكلم لتعرف حقيقة كأنها من بديهيات الرياضيات: العلم الغزير يرافقه تواضعٌ كبيرٌ.

قضى الدكتور عبد الرحيم في السعودية خمسين سنة يشرف على ترجمات القرآن، ويعلم الأجانب اللغة العربية ويكتب لهم الكتب جزءًا بعد جزء. عرفته قبل ثلاثين سنة في كتاب حقّقه، وهو المُعَرَّب لموهوب الجواليقي. ورأيت في الهوامش يكتب لك الأصل اليوناني بالحرف اليوناني، والأصل العبري بالحرف العبري، والأصل الآري بالحرف السنسكريتي، وبالسرياني يكتب، ويستعمل الفرنسية والإنجليزية والألمانية. فإن عرضت له كلمةً أصلها فارسي أعادها إلى الفارسية العتيقة (الفهلوية). تحقيقه ذاك كان رسالة الدكتوراه، وكتبه بمصر.

عبد الرحيم فانيامبادي، هندي مولود في مقاطعة تاميل نادو. لغته الأم الأردية. وتعلم غيرها إحدى عشرة لغة. المهم أنه يجيد هذه اللغات إجادة عالم متبحر. يتكلم ساعة بلا ورقة ولا يغلط في النحو غلطة. ويجيد اللهجة المصرية والسودانية والشامية والفلسطينية، وبالطبع السعودية. وتراه يقضي وقتًا على الإنترنت يعلم الناس اللغة العربية.

الدكتور الجليل عبد الرحيم، يكتب العربية ليس كأهلها، بل أحسنَ من أهلها.

عندما أراد دراسة العربية في مصر بعث من الهند رسالة إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وجاءه الجواب بالقبول، وبدأ من الأزهر رحلته مع العربية.

كتب فانيا مبادي عبد الرحيم كتابًا عن أصول الكلمات الدخيلة في اللغة العربية، وههنا يحسن الوقوف.

هذا الكتاب هو أحسن كتاب في بابهِ. تعرفون لماذا؟ لأن وراءه علمًا وعقلًا وحبًا. العلم عرفتموه. والعقل أن الدكتور عبد الرحيم فانيا مبادي يستطيع أن يكبح انحيازاته، فإن وصل إلى المعلومة قالها، وإن شك ذكر شكّه، ولا يغادر موضعًا رجع فيه إلى مصدر إلا ذكر المصدر، فإن كان سمع المعلومة من صديق ذكر اسمه. وأما الحب فلأن صاحبنا - فيما يظهر لي - ينشر كتبه صدقةً لوجه الله. هو كمن يتصدق بألف ريال وينسى في الليل أنه تصدّق. وهو بعدُ رجلٌ دينٍ كتب في الحديث والقرآن. له في مزايا الإسلام كتابٌ ألفه بالإنجليزية: فخور بأثني مسلم.

في آخر دقيقة من مقابلة تلفزيونية امتدت ساعةً سأله المذيع إن كان حصل على الجنسية السعودية. فقال: «لا. يبدو أن عندهم في السعودية آلاف الأشخاص الذين يتقنون اثنتي عشرة لغة».

الهبة المحظوة

تكون الهبة الضخمة من اللحم معلقة في دكان اللحام بالشص وهي تنظر إلى ماكينة القرم وتشتهي أن تدخلها. ويتناول اللحام هذه الهبة ويضعها في فم الماكينة. عندما تصل الهبة إلى فم الماكينة فالخروج من الطرف الآخر مضمون. ويمكنك أن تقول للهبة: «مبروك»، حتى قبل أن تخرج. لا مجال للبقاء في الداخل، ولا بد للهبة من «التخرج». الدخول إلى الماكينة مجرد احتمال، أما «التخرج» منها فهو محتم.

هل سمعني أقول التخرج؟ لعلك تريد أن تتهمني بأنني أشبه الجامعات بماكينة فرم اللحم؟ والطلبة بالهبرات؟

الطالب يضع رجله في الجامعة، ويمشي أربع سنوات كما يمشي النائم، ثم يجد نفسه في النهاية واقفاً تحت طاوية مربعة تتدلى شراشيها على أرنبة أنفه.

قصة أستاذ وطالب: عندما أكتب مقالاً قصيراً يحلو لي أن أضع عناوين فرعية، فأما إذا كان المقال من عشرة آلاف كلمة، فهو كلام متدفق لا أضع فيها عناوين فرعية. والآن إلى قصة الأستاذ والطالب. الأستاذ كسلان والطالب خائب. الأستاذ يحضر حصة ويغيب حصة. والطالب يحضر حصة ويغيب حصة، وعندما يلتقيان فهذه مصادفة سعيدة كخسوف القمر. لكن الطالب يتخرج وينشر صورته على الفيسبوك.

كل بلاد الدنيا فيها جامعات تفرم وترمي في سوق العمل. لكن ما يحمي البلد هو وجود بعض الجامعات الحقيقية.

في بلدنا مدارس متميزة تأخذ من الطالب المال الكثير، وفيه مدارس حكومية بالمجان. فماذا عن الجامعات: الوزارة وحثت الأقساط بين كل الجامعات. وزارة التعليم العالي - والحديث عن فلسطين - تُشدُّ الجامعة المتميزة إلى أسفل لتصبح مثل الأخريات، ولا تُشدُّ الجامعة الرديئة إلى الأعلى. هذه الوزارة صمَّامٌ يسمح بالرداءة ويمنع التميُّز.

تأملات في التعليم والمدارس

النهر يسير في طريقه ويروي الحقول، ويُلقِي فيها الطين، ويحمل القوراب من مكان إلى آخر. مجرد سيره في الأرض هو المنفعة الكبرى. النهر لا يهتم بمصبّه، فالماء الذي يصل إلى المصبّ هو الفائض الذي لم تحتاج إليه الأرض؛ فليذهب إلى جحيم الملح.

ونتمنى أن تكون سنوات الدراسة الاثنتي عشرة في المدارس مثل النهر، نتمنى أن يستمتع الفتية والفتيات بالسنوات كلها، وأن يكون الامتحان النهائي مصممًا بشكل ينفع المجتمع عندما يصبّ فيه الطلبة.

«اختبارات الوزارة» ضوابط مطلوبة وموجودة في كل البلدان. وعندما أصف هذه الامتحانات الرسمية فأنا بالضرورة سأصف الوضع التعليمي كله لأنه يُفضي إليها.

لَمَّا كان نظر الطالب والمعلم مسدّدًا خلال السنوات المدرسية -وخصوصًا الأخيرة- إلى الامتحان النهائي، فإن كل العملية التدريسية ستكون مشنوقة بحبل امتحان الوزارة النهائي. منذ السنة المدرسية السادسة والسابعة وما بعدهما يبدأ المعلم يقول للطلاب: هذا الدرس مهم لأنه سيكون واردًا بعد عدة سنوات في منهاج السنة الختامية؛ وما إن يصل الطلبة إلى الصف الحادي عشر حتى يصبح كل شيء في المنهاج مهملاً إلا ما كان متعلقًا بمنهاج الصف الثاني عشر المختوم بامتحان الوزارة.

يجدر بالوزارة تخفيفُ الضغط على الجبل الوحيد بعدة وسائل:
بالغاء علامة الـ ١٠٠٪، وإلغاء مفهوم الساقط والناجح؛ إذ ما الذي
يستفيده المجتمع من تصنيف الطلبة إلى ناجحين وساقطين؟

أريد للطلاب في السنة الختامية أن يختار ما يريد من المواد. وهذا
مثالٌ على بعض المواد المطروحة: (عربي متقدم/ عربي فرعي/ إنجليزي
متقدم/ إنجليزي فرعي/ فيزياء متقدم/ فيزياء فرعي... إلخ). الطالب
المتفوق يختار ثمانية مواد معظمها في المستوى المتقدم، ويحقق في
معظمها درجات عالية. والطالب الضعيف قد يختار مادتين من المستوى
المتقدم ومادتين من المستوى الفرعي فقط، ويحقق في معظمها درجات
منخفضة. ومع ذلك لا ناجح ولا ساقط.

وكل طالب ستزغرد أُمّه وتقول لجاراتها: «ابني اجتاز الامتحان
النهائي». ولكن الطالب الضعيف لن يستطيع الالتحاق بجامعة. هذا
الطالب لا يرغب في الكتاب ولا في التحصيل العلمي ولا في العلوم
الإنسانية. إنه مُغرم بالكمبيوتر. سيتجه إلى معهد ليأخذ دورة حاسوب.
وسيعمل في دكان بيع الحواسيب. ثم سيفتح محلًا، وفرعًا ثانيًا وثالثًا.
ثمة مهارات لا تستطيع امتحانات الوزارة أن تقيسها، فهذا الطالب
الضعيف أكاديميًا ربما كان في السوق دينامو علاقات، وكان يتمتع بذاكرة
ممتازة، ويحب عمله.

التحصيل المدرسي ليس كل شيء.

أدعو إلى تفكيك امتحان الوزارة إلى عناصر ومستويات عديدة. وإلى
جعل الطلبة يسبحون في هذا البحر المعلوماتي بحرية. وإلى إحاطة

حكاية ناجح وساقط بضباب كثيف، كي تتمكن الأمهات من تلقى التهاني في كل الأحوال.

هناك طلبة كثر لا يصلون إلى السنة الختامية. ومنهم توماس أديسون، وعبد الحميد شومان الأب منشئ «البنك العربي»، وجورج برنارد شو، وعباس العقاد. ومن حق الطالب الذي يترك المدرسة بعد انقضاء مرحلة التعليم الإلزامي أن يجد مكانًا لائقًا في المجتمع. كل إنسان عنده ولع بموضوع معين. هناك سائقو سيارة مولعون بمهنتهم، وهناك عمال تنظيف يحبون مهنتهم، وهناك ليفنهوك بائع القماش الهولندي الذي اخترع المجهر، وكتب رسائل مفصلة عن الجراثيم والخلايا جعلته من كبار العلماء، ولم يكن قضى على مقاعد الدراسة سوى سنوات قليلة. وليس له أي كتاب، لكن رسائله للجمعية العلمية الملكية البريطانية تحمل وصفًا بالغ الدقة لما شاهده في مجاهره التي صنعها.

النظام المدرسي ليس الدواء الشافي لكل علة. المجتمع نفسه مُطالبٌ بابتداع مساحات يطور فيها كل الناس مهاراتهم، ويلبون رغباتهم المعرفية والمهارية. لكننا هنا معنيون بالنظام المدرسي وحسب.

لماذا ينتحر بعض الطلبة بعد ظهور نتائج الثانوية العامة؟ لأن المجتمع غسل أدمغتهم ووضع فيها فكرة واحدة: «النجاح المدرسي مسألة حياة أو موت».

قد يكون عقد امتحان في ختام السنة التاسعة أمرًا جيدًا. فهذا سيتيح للطلبة التعرف على مواضع الضعف والقوة في تحصيلهم وفي رغباتهم. هذا الامتحان يحثُّ بعض الطلبة على التوجه إلى مدارس الصناعة

والزراعة ومعاهد الحاسوب. فمن الممل لطالب مُدبر عن الأكاديميات أن نصدع رأسه لسنوات ثلاث مقبلة بأشعار أو بتجارب كيميائية ونظريات فيزيائية. فماذا لو أصر الطالب الضعيف على المضي في الخط الأكاديمي، لا بأس، قد يفلح لاحقًا.

من أهم الأسس في النظام المدرسي أن يكون متنوعًا، وأن يحتوي على منافذ عديدة؛ ذلك أن الناس مختلفون، ولكل امرئ طريقة في اكتساب المهارات والمعلومات. ونشوء مختلف أنواع المدارس شيء طيب. وعلى الوزارة ألا تتمسك باختبارها النهائي كطريق وحيد للدخول إلى التعليم الأكاديمي العالي. من الواجب ترك مساحة من الحرية للجامعات. والضابط الذي يضبطها هو أن الحكومة تستطيع الامتناع عن توظيف حَمَلة شهادة جامعة من الجامعات إذا رأت أن هذه الجامعة منخفضة المستوى، وكذلك الشركات والمكاتب المختلفة، فيأمكن كل منها وضع ما تشاء من شروط على توظيف حملة شهادات جامعات معينة. هذه حرية مجتمعية لا يجوز الاعتداء عليها: حرية الشركات والمكاتب الهندسية والمستشفيات ومؤسسات البحث، وحتى المدارس ومؤسسات الدولة، في توظيف الناس بشروطها، وحريتها في رفض شهادات بعض الجامعات، أو في إجراء امتحانات التوظيف.

لقد بلغ سيل الشهادات المزيفة في بلدنا حدًا المهزلة. هناك حَمَلة شهادات دكتوراه منحطون أكاديميًا عن حملة البكالوريوس، وهناك فيضٌ من حَمَلة شهادة الماجستير ممن اشتروا شهاداتهم شراءً. وهذا الوضع سيبقى معنا إلى أن يموت كلُّ هؤلاء الذين اشتروا شهاداتهم، أو الذين حصلوا عليها بحقٍّ ولكن من جامعات رديئة تجعلهم يحفظون ما لا فائدة

منه. إذن، وفي ظل هذا الوضع الذي لن ينتهي غداً، فليكن للجامعات حريةُ القبول وتحديد شروطه، وليكن للشركات وللوزارات حرية القبول وتحديد شروطه. فأما نظام «القوى العاملة»، وهو ذلك النظام المشهور في مصر الذي يلزم الدولة إلزاماً بتوظيف كل من تقيته الجامعات، فنظام يفضي إلى الكسل ورداءة المستوى. هذا نظام ميري سيئ لا يبنّي مصنعاً ولا يُعَمِّر مستشفى. نظامي الذي أدعو إليه نظام مفكك، فيه فوضى خلّاقة. ليتعلم من شاء ما شاء وأينما شاء، وليبحث عن فرصته. وإذا قرر مدير مستشفى ما أن يوظف طبيباً تخرج من جامعة رديئة، فقد تحمّل له نقابة الأطباء العصا.

شهدت المدارس الحكومية في فلسطين منافسةً من برنامج دراسي اسمه «البكالوريا الدولية» اتخذ منهاج الوزارة وامتحان الوزارة وراءه ظهرياً. كان أفضل من المنهاج الحكومي من عدة أوجه. وصادقت الوزارة على شهاداته. ولا يمر الطلبة المنتسبون إلى البكالوريا الدولية بامتحان الوزارة الختامي على الإطلاق. ونجحوا أكاديمياً وعملياً. هذا مثال حي على منظومة مدرسية ناجحة.

كل علم من العلوم مغلق في غياب الحافز على تعلّمه. الرغبة قد تكون موجودة في قلب الطالب بدون حاجة إلى حفزها، غير أنها في الغالب دفينّة، وبحاجة إلى بعض الحفز. بحضور الرغبة يتعلم المرء أي شيء، وفي غيابها لا يتعلّم شيئاً.

أسئلة الامتحانات: السؤال الفعّال مثل الإنسان الفعّال. إنه السؤال الذي يعرف ما يريد. هل يريد السؤال أن يختبر الذاكرة؟ أم المهارة؟ أم

الفحص عن وجود منطق ذكي؟ أم ماذا؟ مهمٌ في السؤال ألا يضلّل الطالب تضليلًا عمديًا. فمثل هذا السؤال قد يجيب عليه الطالب المتمكن والطالب غير المتمكن إجابةً صحيحةً: الأول بعد اكتشافه التضليل والثاني، بالصدفة. وأما الطالب المتوسط فيقع في الشُّرك. لا يجوز أن تكون الأسئلة شراكًا. وبالطبع في أسئلة «اختر الجواب الصحيح» لا بد من بعض الشراك البسيطة المنطقية الهادفة. لكن يجب تصميمها بحيث يكون المقصود منها اختبار دقة الطالب، ويجب ألا تكون هي الغالبة. أسئلة الامتحانات ليست أحاجي وألغازًا. وما أسوأ أن يضع الأسئلة شخص معقد مقيت منكّد العيش، ذاتُ زوج أناني، أو ذو زوجة سيئة الخلق. لكن هذا لا مفر منه. سيضع الأسئلة أشخاص بهذه المواصفات، وإجراء عملية «تحكيم» للأسئلة يُصلح الخلل. وضع الأسئلة موضوع تخصصي. ومن الغبن ما نصنعه في بلدنا إذ ننفق قليلًا من الوقت، وقليلًا جدًّا من الخبرة، على وضع الأسئلة، لكننا نشحذ كل حواسنا في التصحيح الذي يقوم به جيش من المصححين والمدققين يكفلون أن يكون عادةً ودقيقًا، وبشكل يدعو إلى الإعجاب في الواقع. هذا شبيه بأن تحرص على تحريك ما في القدر جيدًا وبلا توقف، وقدرك ملأى بالحصى.

أعرف عن مركز في مدينة كارديف في بريطانيا أنه يستقطب بعض المتخصصين من بقاع الدنيا لتعليمهم آليات وضع الأسئلة ومحاذيرها. اجعل بعض الأسئلة اختبارًا للذاكرة، وبعضها اختبارًا للربط المنطقي بين الأشياء.

وليكن لدى واضع الأسئلة فهمٌ جيّد لمسألة الحفظ، والمقصود منها. هل نطالبه بحفظ الآيات الخمسة المطلوب حفظها من قصيدة

أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) «انشر على لهب القصيد» بالترتيب؟ أم هل نساعده بذكر الكلمتين الأوليين من كل بيت؟ وبهذا نوفر له الترتيب من عندنا ونعطي ذاكرته بعض المساعدة؟ ولماذا نريده أن يستظهر تلك الأبيات الخمسة؟ بالطبع نريد من لسانه الفصيح أن يكون سلساً عارفاً بأسلوب اللغة، ونريد منه أن يكون إحساساً بإيقاع الشعر، ونريد منه أن يحفظ قطعة من مشاعر قومه ومن آلامهم. حسنٌ جداً أن نطالبه بحفظ خمسة أبيات من هذه القصيدة. وفيها يأتي البيت: (قوموا انظروا الوطن الذبيح من الوريد إلى الوريد) قبل البيت: (إيه شعوب العرب أتم مبعث الأمل الوحيد). ولكن لا بأس بعكس الترتيب. فهذه القصيدة دقاتٌ، وليست قصةً. ومثلها كثير من شعرنا العربي. فلماذا نُصرُّ على الترتيب؟

ليكن للحفظ مكانٌ في المناهج، وليكن محدوداً، فالتكنولوجيا أعفتنا من كثير من الحفظ. لكن التربوي يعرف أن العقل البشري ما زال أعظم حاسوب، وهذا العقل بحاجة إلى كميات كبيرة من المعلومات يتم «تخزينها» فيه أي حفظها، كي يستدعيها فور الحاجة. لذلك سيظل حفظ كثير من المعلومات مطلوباً. لن أقدم فتوى بشأن جدول الضرب هنا. وأترك الأمر للسادة التربويين. لكنني كنت أستمتع بمنظر الخضري الشاب وهو يرقُّ على آله الحاسبة والعرق يكاد يتصبب من جبينه، ثم يقول لي: «سبعة وثمانون». ويجدني قد مددتُ له يدي بالمبلغ الصحيح قبل انتهائه من العملية الشاقة. والآن اخترعوا موازين تزن وتجمع في الوقت نفسه فلم أعد أستمتع.

وضع الأسئلة فنٌ وعلم وارتياح نفسي، وفهم عميق للمطلوب حقاً من وراء السؤال، وتعمق حقيقي في المادة العلمية التي يجري الامتحان

عليها. والشخص القليل العلم يضع أسئلة صعبة وتافهة، والشخص العميق العلم بالمادة والناظر إلى الزبدة يضع أسئلة متوازنة ومنطقية، وسهلة وصعبة.

لماذا ندرس أولادنا وبناتنا في المدارس أصلاً؟

كي نخلد الوضع القائم، ونشحنهم بأخلاقياته، فلا يتغير علينا الحال عندما نكبر، ولا تعود الفجوة كبيرة بيننا وبين الجيل الجديد. نريدهم أن يتذوقوا الخط العربي الكلاسيكي كما تركه هاشم محمد وسيد إبراهيم، كي نحس أنهم مثلنا. هذا شيء نريده. ولكن، هل يريدونه؟ وهل ينفعهم؟ ونريد أن يحملوا القيم التي توارثناها عن آبائنا، كي يبقى مجتمعنا متماسكاً. ونريد أن يطيعوا القانون لكي لا تحدث جرائم كثيرة. ونريد أن يصبحوا مهندسين أكفاء. ونريد أن يغزبوا عن وجوهنا بضع ساعات كل يوم كي نخلو إلى أعمالنا. ونريد أن يهجروا القيم القديمة التي توارثناها عن آبائنا (نعم هنا ثم تناقض). نرى خط سير المجتمع ونريد لأطفالنا أن يكونوا ناجحين. وعلى هذا فمن يرسل ابنته إلى مدرسة أجنبية لا تُعَلِّم شيئاً باللغة العربية إلا «العربي والدين»، ومن يقول لولده: «اترك العود وتعلم العزف على الجيتار»؛ ثم يشتري له جيتاراً، إنما يضع ولده على طريق الثقافة التي يعتقد أنها ستساعده في مستقبله كوسيط للأجانب الذين يريدون امتصاص خيراتنا. ومعه حق، فمن الأفضل لولده أن يشتغل وسيطاً للأجنبي على أن يشتغل موظفاً حكومياً أو معلماً للغة العربية.

صنعت اليابان شيئاً من هذا في سعيها إلى الانعتاق من ثقافة الساموراي المعيقة للتصنيع. اليابان تغربت كثيراً، ولكنها ظلت تنظر بأعين مفتوحة

إلى شخصيتها، ظلت تحترم الماضي بقدر يساعد في إنتاج أجيال جديدة
منتمية إلى اليابان.

وقد لمست في مذكرات يوكيتشي فوكوزاوا، أحد كبار دعاة النهضة
والتغريب، حرصًا قويًا على ثقافة اليابان، واعتدالاً مدهشًا افتقدته في
كتابات عبد العزيز فهمي وطه حسين وحسين فوزي. لمست عند
فوكوزاوا -الذي سبق دعاة الأوربة المصريين بنحو خمسين سنة- ميلًا
قويًا لفهم الغرض من دعوته. فهو لا يريد أن تذوب اليابان في أمم أخرى
وتخلع جلدها، بل أن تنهض.

النظام المدرسي ليس من يُقرّر للأمة مستقبلها، بل هو الأداة التي
تستعملها الأمة. فإذا كانت الأمة حائرة: بعضها يريد مجتمعًا مماثلًا
لمجتمع الخلفاء الراشدين، وبعضها يريد نفس الماضي ونسيان كل
شيء لصالح تبني هوية جديدة، فسوف ينعكس ذلك في نظمها المدرسية.
وأنت ترى ذلك أمام عينيك. لنأخذ الرجوعيين الذين يطمحون إلى
مجتمع نقي. ثم لنأخذ بعدهم العدمين الذين يظنون أن الطريقة المثلى
هي -بحسب ما قالها أحدهم- جرف قطاع غزة بالكامل بالجرافات
والقاؤه في البحر ثم بناؤه من جديد ليكون سنغافورة الشرق الأوسط.

الرجوعيون لديهم مشكلة الغفلة التاريخية، فهم -وبسوء نية-
يشطبون من التاريخ ما يحلو لهم، ولا يقرأون تاريخ الطبري بل نسخة
مهذبة منه. هم يريدون التشبه بمجتمع نقي تمامًا، ويرسمون صورة هذا
المجتمع بالريشة ويرفضون تصويره بالكاميرا، ويرفضون رؤيته
كمجتمع، بل يرونه فردوسًا. ثم إنهم يعانون من ضعف الخيال.

يحزّمون الآلات الموسيقية، ويسمحون بالأناشيد والطبول. وبعضهم يتنازل ويسمح بالآلات الموسيقية مع وضع شروط. ومن تنازلاتهم أنك ترى المثري منهم يبعث بطفله إلى مدرسة أجنبية، ثم يرهقه في البيت بحفظ النصوص الدينية. لقد فشل هذا الاتجاه في خلق نُظم مدرسية ذات أثر. لهؤلاء القوم الرجوعيين مدارس، وهي تعلّم الطلبة العلوم الحديثة وبانضباط مدهش، وتعلّمهم من القديم كل ما هو مزور ومحسّن، وغير نافع. وهذه المدارس تخرّج طلبة مرعوبين من الأفكار، لا يتعد الواحد منهم شبرًا على طريق التفكير إلا ويكرّر راجعًا إلى حُسن الأفكار الموروثة المعلّبة جيدًا في صناديق التزييف. خرّيجو هذه النظم التعليمية قد يصبحون مهندسين وأطباء جيدين، ولكنهم، إبداعيًا، دون المستوى. يمكنهم أن يكونوا فعلة ماهرين في أطر مرسومة لهم، ولكنهم يعيشون والمخاوف تسيطر عليهم. وللهرب من أسر القيود الفكرية ترى عديدًا من خرّيجي هذا النمط يستريحون إلى الكذب. لقد أصبحت عبارة «إن شاء الله» عنوانًا على التهرب من الالتزام، وترى خرّيجي هذا النمط المدرسي والفكري يُكثرون من عبارات من قبيل «خلينا نشوف»، «ياذن الله»، «ما نصير إلا كل خير»، «ستكون راضيًا بحول الله». وهم يستعملون الحديث الشريف والآيات بِقَحّة عجيبة، ويوظفونها في خدمة التملص من الحسم، ولا يتورعون عن إزجاء عبارات غامضة غائمة حتى لا يتعهدوا بشيء، وحتى ينفذوا ما يوافق مصالحهم. مثل هذه الثقافة الرخوة سببها السعي إلى تحقيق نموذج غير موجود أصلًا في الواقع. نموذج مكذوب.

فالاتجاه الرجوعي في التربية والتعليم محكوم عليه بنصف نجاح،
ينجح في تخريج المهندسين، ويفشل في إنتاج عقول صريحة. والإبداع
يحتاج إلى حدة ذهن، وإلى صدق.

وأصحاب الاتجاه العدمي، الذين يريدون نسف الماضي ينجحون في
تخريج شباب وفتيات نصف متعلمين، يتقنون بعضًا من اللغة الإنجليزية،
ويتقنون فن السمسة والعلاقات العامة. وهم ينسون أن ثقافة الإنسان
عميقة جدًا في نفسه. ولا يمكن تجريف غزاة وإلقاؤها في البحر. ولا
يمكن نزع اللغة العربية من نفوسنا. ولا سبيل إلى «التأورب». ها هو
سعيد عقل وقد خنق المئة عام من عمره. هل استطاع أن يحملنا على
الحرف اللاتيني، وهل استطاع أن يقتل الفصحى؟ جيد أن يخوض المرء
مناظرة يعرض فيها مشكلات الحرف العربي ومحاسن الحرف اللاتيني،
ومن واجبه أيضًا أن يرى إيجابيات الحرف العربي. فأما أن يكون صاحب
دعوة جارفة ينقصها التمهيص، فسوف ينال الشهرة والتصفيق من
المؤيدين واللعنات من المعارضين، ويجد مكانه في صفوف العدميين.

العدميون يخدمون مرحلة معينة، ومدارسهم ناجحة فقط في خدمة
هذه المرحلة. ولكنها لا تزود الطلبة بأدوات لبناء انتماء متين، بل بالعكس
تشجعهم على هدم انتماء موجود لمصلحة الجلوس بين كرسيين ...
فخريج المدارس «المتنجلزة» يظل عربيًا في كثير من أفكاره وقيمه،
ولكنه لا ينتمي إلى المصلحة العليا لبلده. ويكون فوق ذلك ذيلًا للأجنبي
من حيث الثقافة والعمق العلمي. فهو قد نشأ يتلقى نصوصًا مدرسية
مختصرة ويدرسها ويفهمها، ولكنه لم يُبحر في ثقافة لغته الأم قارئًا نهمًا.
فإذا ما جلس في مجلس أدب لم يعرف نجيب محفوظ ولا الغزالي ولا

الكواكبي ولا الجاحظ ولا المتنبي ولا إبراهيم طوقان، تراه يهز رأسه بغباء. فإذا ما جالس مثقفين إنجليز أخذ يردد قولاً حفظه من مسرحية ماكبث، فينظر إليه أولئك المثقفون بإعجاب كما ينظرون إلى قرد يقلّد حركات الإنسان. ثم تراهم يخوضون في موضوعاتهم السياسية والأدبية والفكرية خوضاً عنيفاً وصاحبنا جالس كالأبله. وبالمقابل: قد رأيت مثقفاً عربي الثقافة يُحسن الإنجليزية بمستوى معقول يناقش عدداً من الأوروبيين، ورأيتهم يفيض عليهم من علمه فيضاً، وفيهم المؤرخ والسياسي. اللغة الأم هي فقط الطريق إلى صنع مثقف. والعدميون ليسوا طلاب ثقافة من الأساس: هم قوم يريدون لبلادهم أن تكون مستعمرات للبلاد الغنية.

كوريا الجنوبية موصوفة بمتانة نظامها التعليمي، وقد شربت العلوم الغربية شرباً، وجددت جلدها وتخففت من كثير من الذبول التراثية، ولكنها نهضت وأصبحت من الدول المتقدمة اعتماداً على اللغة الكورية. والأتراك! نهضتهم الحاضرة قائمة على اللغة التركية. والصين تنهض اليوم بلغتها. واليابان التي ترجمت عشرات آلاف الكتب عن الهولندية ثم الإنجليزية، ولا تزال تترجم، ظلت محتفظة بلغتها.

نحن، الناطقين بالعربية، نريد من نظامنا التعليمي المدرسي أن يوفر أشخاصاً يننون البلد، ويعيشون فيها. ونريد من الناطقين بغير العربية كالأكرد والأمازيغ أن يتعلموا بلغاتهم، وأن يتعلموا ما يكفي من العربية كي يتعاملوا مع النظام الرسمي وكي يوسّعوا آفاقهم الثقافية وكي يعيشوا في بلدانهم أيضاً.

التناقض قوي بين التعليم المتميز والبقاء في البلد. فالذي يصبح متميزاً يهاجر إلى مراتب كبيرة في الغرب والشرق. كيف يمكننا حبس طيب ماهر في البلد؟ سيهرب. فهل نمتنع عن التعليم الجيد، ونرضى بالتوسط حتى لا يهرب أصحاب الكفاءات العالية؟ المسألة ذات أشواك. وقد ناقشتها مع نفسي طويلاً. ومن حسن حظ القارئ أنني سأستر هذا النقاش كيلا يطول الكلام. لكنني سأعطيك النتيجة: لنصنع الكفاءات الممتازة ولنزودها بالانتماء للوطن، ثم لنذهب أينما شاءت، وغالبًا ستعود.

الدوام المدرسي: ثمة عبارة أرددها كثيرًا: «فلان قلقٌ كأنه هاربٌ من المدرسة». فقد تربيتُ في مدارس الحكومة ذات النظام الموروث عن الانتداب البريطاني. وكان الضبط كبيرًا. كان المهم الدوام، المهم ألا تنفلت. وأفضل ما صنعه النظام الانتدابي أنه لم يتشدد في تعليم الطلبة -من جيل والدي- اللغة الإنجليزية. فهو يريد المتفوقين منهم لتنفيذ سياساته ولضبط البلد، ولا يريد لهم أن يتشبعوا بالثقافة الإنجليزية. ومن شروعه التعليمية أنه حاول تعليمنا الإنجليزية بنفس الطريقة التي يعلمونها بها في بريطانيا لذلك العهد، وهي طريقةٌ سقيمةٌ تقوم على حفظ القواعد واستظهار الأشعار. ولئن كانت هذه الطريقة سقيمةً وسيئةً لبلاد الإنجليز -ولهذا تخلّوا عنها تمامًا الآن- فقد كانت أسوأً بالنسبة لنا. والأسوأ أننا تمسكنا بها إلى يوم الناس هذا.

لقد تشدّد النظام التعليمي الانتدابي -والنظام الذي نشأ فيه كان النظام التعليمي الأردني المستند إلى النظام الانتدابي- في التركيز على

الدوام. وصادف هذا هوى في نفوس كثيرين لأنه يضبط أبناءهم ويسيئهم التجوال في الأزقة.

لا شك في أن هذا مفيد. من الفوائد غير المنكورة لكل مدرسة أنها تُؤوي الضبية، وتجعلهم يختلطون بأقرانهم حينًا وبالكبار حينًا في لعبة مسرحها غرفة الدرس وساحة المدرسة. ولكن لماذا جعلوا فسحة الساعة العاشرة نصف ساعة فقط؟ طبعًا لكي يحشروا درسًا جديدًا في الرياضيات ودرسًا آخر في اللغة الإنجليزية وثالثًا في الدين. فالسادة في وزارة التربية لمسوا أن الطلبة قليلو التحصيل في امتحان التوجيهي (امتحان ختام الدراسة المدرسية/ امتحان تمزيق الكتب إلى الأبد) في هذه المواد، فلم يخطر ببالهم أن المشكلة إنما هي في طريقة التعليم وفي مواد التعليم وفي طريقة الامتحان، ولم يخطر ببالهم أن يُلغوا بعض المقررات الرديئة.

ثم يأتينا معلم الكيمياء المتحمس للعلم، ويستدعينا إلى غرفة الدرس في السابعة والربع، قبل بدء الدوام الصباحي، من أجل حصة إضافية كل أسبوع لتقويتنا. يكتب المعادلة على اللوح، ويجب أن يحفظ الطالب، ليس فقط رمز برمغنيات البوتاسيوم، بل يجب أن يحفظ لون محلولها في الماء: قرمزي؛ ولون البلورات الناشئة عن عملية التبخير: قرمزية سوداء. وإذا كتبت في امتحان الوزارة قرمزية فقط ونسيت سوداء لن تحتسب لك العلامة. «فاهمين! قرمزية سوداء، والبرمغنيات.. قرمزي فقط». لم يكن في زمننا إنترنت لكي نفحص طبيعة اللون القرمزي، ولم ندخل المختبر لنراه. فامتحان الوزارة لا يعبأ بالتجارب المخبرية، احفظ فقط. لن أحدثك عن الكيمياء العضوية حفظًا لبقائك معي، فاحفظ لي هذا الجميل.

يوم السبت: هو يوم الرحلات والنشاطات. رحلات إلى قرية قريبة، وإلى مدينة بعيدة. وإلى الجبال لجني فوائد في النباتات وفي الجغرافيا. كثيرون لا يعرفون شكل نبتة السمس، ولا كيف يتم جني محصولها، وكثيرون لم يشهدوا قطف الزيتون ولا عصره. وكثيرون لم يدخلوا مصنعاً للأدوية... إلخ. ورحلة إلى مرصد الأحوال الجوية. ونشاطات في المدرسة: تحرير جريدة المدرسة، والرسم، والرياضة. بعضهم عضو في نادي علم الأحياء، وبعضهم عضو في نادي «الفصحى»، وبعضهم يتدرب على الصولفيج، أي الغناء المنضبط أو يتمرن على العزف.

هذا ليس حلماً. قد حضرت ابتدائي المدرسة في لندن أربع سنين وخمس سنين بخلاف سنوات الحضانة. كانا تستيقظان صباحاً بنشاط وتذهبان إلى المدرسة بفرح، وتعودان منها ممتلئتين حيوية وقصصاً جميلة عن التفاعل مع الأقران ومع المعلمين والمعلمات. ثم أكملتا في مدارس فلسطين، وكان الكابوس.

وبما أن ضمير التذكير غالب على كلامي يلزمني التذكير بأنني أعني الفتية والفتيات جميعاً. وأني أؤيد بلا مواربة التعليم المختلط في كل المراحل. كنت أعلم فتيات وفتية في تخصص الإعلام بالجامعة. سمعت طالبة قادمة من مجتمع متزمت يقول في غرفة الدرس: «إن الإناث أقل ذكاء وقدرة... إلخ». وولت به زميلاته اللاتي تصدين له بروح فكهة، وبطريقة فيها عبث وأخوية. فالتالبات أدهى من أن ينطحن الصخرة برؤوسهن، وأقدر على خوض معركة طويلة الأمد. وهذا الطالب -وهو إن قرأني سيعرف نفسه فوراً- تخرج بشهادة دكتوراه من جامعة أوروبية. وقد ذكرني بقولته القديمة في مكالمة هاتفية وضحكنا معاً.

لا أرى في الاختلاط في المدارس أي سلبية. الأهل يغضون الطرف عن الاختلاط في المدارس الأجنبية، فكل شيء يأتي من الأجانب حلوا. وعندما يتعلق الأمر بمدارس الحكومة يتذكر القوم أن مجتمعنا العظيم يرفض الاختلاط. وبالنسبة إليّ فقد قضيتُ سنوات المدرسة الاثنتي عشرة في مدارس البنين. والآن أحمد ربي أن تعلمت في جامعة مختلطة، فقد ساعدني ذلك على رؤية المرأة بشراً سوياً.

عندنا اليوم في مدينة رام الله الفلسطينية مدارس أجنبية مختلطة، فهل نسمع عن أي مشكلات؟ بل بالعكس نرى طلبتها جميعاً يتمتعون بصحة نفسية وعقلية أفضل.

وفي بلدنا هناك جامعات يمتنع فيها الاختلاط. ذلك ممجوج حقاً. ولن أنفق بعض الجهد الدبلوماسي في مجاملة المتزمتين.

فهل أطالب -وما أكثر مطالباتي- بأن نلغي حصص الفقه في المدارس؟ أود ذلك. لأن الدين فيما أرى أمر روحاني وجداني لا مسألة معلومات. والفقه القديم (والأحكام المعقدة لزكاة الزروع والثمار والصيد) بحاجة إلى مراجعة صادقة ستمضي مئة سنة قبل أن نجد من يقوم بها. والقرآن جدير بأن يدرّس في المدارس. ومن الحصيف أن يكون ضمن الدروس الاجتماعية تعريف بعدد من الأديان.

بكل وضوح: لا أرى أي فائدة في الكتب المقررة ضمن منهاج الدين في مدارسنا. ومن المستحسن جداً أن يتم في حصص التربية المجتمعية التعرض للأخلاق الحسنة وللقيم المرغوب في تعزيزها سواء أكانت تجد لها ركيزة قوية في الدين أم لم تكن. وأما أن يكون مُقرّر الدين مكوّناً

من عدة كتب لكل سنة دراسية فهذا ما ينقّر الناس من الدين. وقد رأت حكوماتنا العلمانية الفاسدة أن خير وسيلة لقطع حجج الإسلاميين تكثيف مقررات الدين في المدارس، فرضي الإسلاميون. وراح كبار موظفي الحكومة وكبار الأثرياء الإسلاميين على حدّ سواء يرسلون أولادهم إلى مدارس أجنبية، وتركوا الدين للفقراء.

مدارسنا تقمع كل انحراف: تقمع الجريمة وتقمع العبقرية. وليس صعبًا أن تحتفظ المدارس بوظيفة قمع الجريمة، لكنها ستظل تقمع الإبداع ما لم نبذل جهدًا كبيرًا.

إبريل / نيسان ٢٠١٢

تعيش الكرتونة

رغبتُ صبيًا في تعلُّم الموسيقى. تخيلتُ، مغرورًا، أن كل المطلوب هو أن يركّز المرءُ تفكيره في هذه الرغبة، ثم ينام ليلته، ثم يصحو في الصباح وقد أتقن الموسيقى. تخيلتُ أن الأمر لا يأخذ من الجهد إلا سويعات قليلة، ثم تتكفل الرغبة بالباقي، ويهبط الوحي عليّ.

وعلمتني الدنيا أن في تفكيري المراهق ذاك قدرًا من الصحة غير قليل.

لا، لم أتعلَّم الموسيقى بطريقة الوحي، ولا أنا أكملت السير في ذلك الدرب. لكنني تعلمتُ مهارات أخرى أعاشتني، وكفتني مئة الشهادة العليا.

بداية التعلم نحتٌ في الصخر؛ يفرح المرء بالقليل الذي تعلمه، ويظن أنه أتقن العلم كله. ثم يتعلم أكثر فيعرف مقدار جهله بتلك المهارة. ثم أكثر، فيدرك أنه جويهل صغير. وما زال يتعلم ويزداد إدراكًا لجهله. فالتعلم خير طريقة لتعرف مقدار جهلك.

أصحاب الشهادات لا يفعلون ذلك. فالشهادة هي خاتمة العلم. «يجيب» أحدهم الدكتوراه، ويقعد - لا قعد - في إحدى الجامعات، وينتظر أن يحمله الحزام الناقل من مرحلة إلى مرحلة حتى يخرج من شرح الماكينة بروفسورًا كاملاً. ونكتشف في حفل تأبينه أنه كتب عشرين كتابًا، ثم نكتشف بعد سنتين أن كتبه تلك كانت تلاخيص رديئة.

المحرّك الحقيقي للتعلّم هو الرغبة. هي ذلك الشبق المعرفي الذي لا يخبو. وبالرغبة يرتقي المرء في علمه. والعلم لا ينتهي. تلك لذّته، ومشكلتنا معه.

الرغبة هي ذلك الوحي.

كان أبي خياطًا ماهرًا، أمسك بالمقصّ صغيرًا وتجراً على قطعة جوخ، ثم ظل يتعلّم. قصّ عليّ أنه رأى على رجل بذلة مَخِيطة خياطة مبتكرة، وعرف منه أنه خاطها عند خياط معروف في يافا. ولم يستطع أبي أن يفكّ سر تلك التفصيلة. ثم اتفق له أن كان في يافا لبعض شأنه فذهب إلى مشغل ذلك الخياط، وأخذ يتسكّع هنيهة على الرصيف، والخياط يفضّل. ثم إن الخياط انتبه، فخرج من دكانه وقال لأبي: «تعال! أنت خياط». فاعترف أبي بأنه خياط. وقال له المعلم: «عرفتُ مرادك». وفي ثوان معدودات علّمه تلك القَصّة المبتكرة.

وحتى لا تسارع جريدة الحال، التي أكتب لها هذا المقال، باحتساب إعلان تجاري عليّ أصرح بأن أبي انتقل إلى رحمة الله، وأنه لم يعلم أيّا من أبنائه الصنعة. كان دائماً يقول لنا: «إن هذه الصنعة ماتت». وقد صدق. وكان يقول لنا: «إن أهم شيء في الدنيا الشهادة الجامعية». وفي هذه أيضًا صدق.

سيحتاج مجتمعنا إلى وقت ليأخذ بكلمة الإمام عليّ: «قيمة كل امرئ ما يُحسنه». وإلى أن نصل إلى هناك: تعيش الكرتونة.

$$9 \times 8 = ?$$

يقول أحدهم: بارك الله في غوغل، فلماذا نحفظ تاريخ قيام الثورة الفرنسية، ولماذا نحفظ:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وعلى هذا، ففي المستقبل سيقف الإمام في محرابه ووراءه المصلون وأمامه «اللاب توب»، فينقر عليه نقرة ويقرأ الفاتحة، ثم ينقر أخرى ويقول: «سمع الله لمن حمده».

ازدراء الحفظ موضحة العصر.

الحفظ جيد، بل جيد جدًا. ومخ الإنسان له سعة مثل «رام» الحاسوب. وكما أن الحاسوب لا يشتغل بدون «رام»، فكذلك الإنسان، فهو بدون الذاكرة حمار.

نحتاج إلى حفظ معلومات كثيرة لنتمكن من تشغيل عقولنا. ونحتاج إلى حفظ القرآن والشعر ومآثر أسلافنا كي نشغل قلوبنا. ونحتاج إلى حفظ جدول الضرب.

مؤلفو كتب المدارس أخطأوا بتكليفهم التلاميذ بحفظ الكثير النافل، وهم الآن يخطئون لأن موضحة احتقار الحفظ أفقدتهم توازنهم.

حتى التلقين جيد. وهل يتعلم الطفل الحروف الهجائية إلا تلقينًا! اترك الطفل «يفكر» في الجيم والبال تفكيرًا وستجد لكل طفل أبجدية خاصة يكاتب بها نفسه في مستشفى المجانين.

يحلوا للكثيرين أن يتجملوا بالقول: «إنهم لا يحفظون شيئاً، وإن ذاكرتهم رديئة جداً». هذا يصلح للاعتذار عن نسيان اسم صديق، ولكنه ليس مدعاة فخر.

لا بد لنا من حفظ معلومات كثيرة لتكون رؤوس موضوعات نستعملها لإثارة معلومات أخرى. يجب أن نحفظ كثيراً من مفردات اللغة لنقرأ ونفهم بعمق، وكثيراً من التواريخ لتشكيل هيكل زمني ذهني للوقائع. ويجب أن نحفظ جدول الضرب، وفي سن مبكرة. لا تفعل كما فعل ذلك الرجل الذي وقف في طفولته عند ثمانية في تسعة وتركها وذهب يلعب، ثم ظل طول عمره لا يعرف كم ثمانية في تسعة. إنه يشعر بالندم حتى وهو يختم مقاله سعيداً بالتخلص منه.

سأفتح جامعة.. قريباً

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وفي اليوم السابع وقبل أن يستوي على العرش خلق نظام الساعات المعتمدة.

هذا النظام الذي تهافت عليه جامعاتنا تهافت الذباب على جيفة لا يوازيه في الدقة إلا نظام المخبز الآلي الذي يقذف أقراصاً تشبه الخبز وليست به.

ورغم الرداءة الأساسية لنظام الساعات المعتمدة، فإنه قد يصلح بعض الصلاح في بعض الجامعات التي توظف أساتذة عباقرة؛ ذلك أنهم يتجاهلون النظام ويشغلون بحسب نظامهم هم.

وجامعتي التي سأفتحها تتبع نظام السنتين والثلاث سنوات. يدخل الطالب في السنة الأولى ويتقني لنفسه ما شاء من دروس يحضرها. ينهمر على أحد المعلمين مئة طالب فيأخذ بإلقاء دروسه في مدرج كبير، ويحضر دروس معلم آخر عشرون طالباً فيكتفي بغرفة صغيرة. وقد يَمَلُّ الطالب درس أستاذ معين فيهجره، ويواظب على دروس غيره. فإذا أنهى المعلم مادته في شهرين أو أربعة أو في ستة أشهر منح الطالب شهادة امتياز، أو شهادة إتقان، أو شهادة إجادة، أو شهادة توسط، أو منع الشهادة - এমন لم يحقق التوسط.

على مدى سنتين يتنقل الطالب كيفما شاء ويجمع الشهادات من الأساتذة في أي حقول العلم شاء. ثم في ختام السنتين يُقدَّم شهادته التي

جمعها إلى اللجنة. فتمنحه قبولاً لإكمال دراسته في حقل معين، أو تمنحه شهادة دبلوم وتصرفه إن كان من أهل التوسط، أو تصرفه بلا أي شهادة إن لم يكن حصل على شيء ذي قيمة. في الستين الأولين يخوض الطالب نشاطات جامعية كثيرة من انتخابات وندوات وجوقات موسيقية، ويتعرّف إلى زوجة أو زوج المستقبل، أو لا يتعرف.

وتكون نسبة من يُعطون شهادة القبول لإكمال الدراسة نحو نصف الطلبة، والبقية يحملون الدبلوم فقط، أو يحملون متاعهم وينصرفون يداً من وراء ويدا من قُدام. لكن الجميع يكتسب التجربة الجامعية.

فأما النصف المحفوظ فيستكمل دروسه بطريقة مشابهة مع التركيز على فرع من فروع العلم. وفي نهاية السنة الخامسة يكون قد تساقط عدد من الطلبة مكثفين بالدبلوم، وبقي عدد؛ وتنعقد اللجنة وتنظر في الشهادات التي حصل عليها الطالب وتمنحه إجازة بممارسة مهنة المحاماة، أو طب الأسنان، أو تعليم اللغة الإنجليزية، أو الكيمياء. وترفق مع الإجازة شهاداته ومستوى تحصيله. ومن قُصرت شهاداته عن بلوغ الإجازة فقد يمنح درجة التخرج الجامعي فقط دون الإجازة. وقد يُطلب إليه أن يستكمل التحصيل سنة أخرى أو ستين قبل التخرج. وقدرات الناس متفاوتة.

وعندنا لا نعطي درجة الأستاذية بالدراسة بل بالعمل؛ إذ يتم توظيف الطالب المتميز ليكون مساعد أستاذ، ويبدأ بالبحث والتدريس معاً، ويقدم بحوثه إلى لجنة عليا بعد سنة أو ستين أو عشر سنين، فيحصل على الأستاذية أو لا يحصل.

جامعاتنا في فلسطين مستمرة في قذف أقراص الخبز العويص . هل رأيت في حياتك رغيًا يدخل القرن الآلي ولا يخرج منه ليفرض نفسه على مصارينك؟ فكذلك طلبتنا الأعزاء: كل من يدخل لا بد أن يخرج لابسا برنيطة مضحكة ليفرض نفسه على المجتمع بوصفه متعلّمًا.

سأفتح مدرسة.. قريباً

التوجيهي مسمار مدقوق في الجدار، وكل الصفوف مربوطة به بخيطان. وأول ما سأصنعه إلغاء التوجيهي كي تتحرر الصفوف كلها.

في مدرستي أربع حصص في اليوم. والحصّة مؤلفة من ثلاث ساعة للمعلّم وثلاث ساعة للأسئلة والنقاش. وبعد الحصص الأربع يقضي الطلبة أربع ساعات شبه حرة يحلون فيها مسائلهم، ويقرأون الكتب، ويتناشدون الأشعار، ويحضرون حصصاً اختيارية يتم فيها التعمق في بعض المواد، بحسب رغبة كل طالب وقدراته. هذه الساعات الأربع لا تخلو من ألعاب رياضية، وجوقات موسيقى وغناء، وجلسات لنادي الكتاب ونادي عشاق الرياضيات ... إلخ.

التاريخ قصص فقط. ليست هناك سبعة أسباب لاندلاع الحرب العالمية الأولى بل هناك قصة هذه الحرب مكتوبة بسلسلة بحسب المستوى الدراسي، ومن القصة يعرف الطالب لماذا قامت. التاريخ كله قصص فقط. وماذا عن الجغرافيا؟ هل تمزحون؟ بعد غوغل إيرث لم يبقَ لدرس الجغرافيا مكان. فليستكّعوا على غوغل إيرث والسلام.

واللغة الإنجليزية؟ من الصفّ الثالث نبدأ تعليم الأطفال معاني الكلمات بالإنجليزية. كلمات فقط بدون سياق. يتعرّفون إلى أسماء الألوان والفصول، ومعنى كلمة ولد وبنت وأب وأم، وقام وقعد ونام وشرب ... إلخ. يعرفونها بموازاة الكلمات العربية. وفي الصف السابع

يبدأون بقراءة القصص بالإنجليزية. وماذا عن الغرامر، القواعد؟ تمزحون؟ هل استفاد طالب قطُّ من كل الغرامر السخيف؟ ليس هناك غرامر طبعًا. نقفز من المفردات إلى القصص.

واللغة العربية ونحوها الأسخف؟ قصص قصص، ولا شيء غير القصص. ولا نريد دروس مطالعة مقيّنة تعقّبها أسئلة سخيفة عن الاستيعاب ومسائل نحو وصرف وسخام. نريد قصصًا فقط. ومع القصص بعض الأشعار، ونحفظ منها أبياتًا قليلة.

وتقولون: «لو أن مدرستك النموذجية هذه يا فالح جيدة لصنع مثلها الناس في البلدان المتقدمة». وأقول: «لا تعرفون أن هذا موجود في كثير من البلدان المتقدمة؟ فاعرفوا».

نقدٌ لتدريس اللغة العربية في المدارس: أُنحِثِر من أين أبدأ. كل قواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض قمامة. كذا لغتي وهكذا تعبير، فإن شعرت بالإهانة فانصرف عني الآن. وكل الكلمات والأساليب الميتة هي فقط للمتحف. لكنها ليست عديمة القيمة ... فلكل لغة تاريخها الذي يدرسه المتخصصون. فأما في المدارس فلا أرى تدريس اللغة القديمة أبدًا. وحتى لو اقتطفنا قصة من كتاب البخلاء فمن الجيد تحريرها والنص على ذلك في ذيل القصة. أنا مع الفصحى السليمة، ومع تشكيلها إلى حدٍّ مَعين بحيث يتقن الطلبة القراءة الجهرية ويكونون إحصاسًا باللغة. وسوى هذا لا نريد. وليكن السكون مرضيًا في كل حال. مهمٌّ أن يمتلك الطفل أداة اللغة بسرعة كي يقرأ بها كثيرًا. من الجيد الاهتمام بالمفردة ... بالمعاني. ولو عرف الطالبُ معاني كثيرة فسوف يسهل عليه قراءة

نصوص صعبة كثيرة مع الفهم الكامل، أما القواعد فلا تساعد ألبتة في فهم أي نص. هي زينة لا أكثر.

بالنسبة للبلاغة: لقد قال شعراؤنا الشعبيون شعراً جميلاً كثيراً وهو مليء بالمحسنات البديعية، وقال امرؤ القيس وحسان بن ثابت أشعاراً بديعة مملوءة بألوان البلاغة، وما عرف حسان البلاغة ولا عرفها شاعرنا الشعبي. البلاغة موجودة في النص. فليقرأ المرء النص وليستمتع دون أن يعرف أن الشيء الفلاني اسمه استعارة أو كناية أو تورية.

«علوم اللغة العربية» العشرة - بحسب الزنجاني - لا قيمة لها. القيمة كل القيمة هي لفهم اللغة في سياقها ومعرفة مفرداتها. وكل هذا يأتي من قراءة القصص. وبالقصص أعني الروايات والقصص القصيرة، والقصص الحقيقية عن أمور حدثت في التاريخ، وقصص الرحلات ... إلخ. اللغة شيء جميل إذا كانت أداة نستعملها للفهم، وشيء قبيح إذا كانت هدفاً يدرس لذاته. ونحن ندرس اللغة لأطفالنا كهدف، وفي هذا قسوة عليهم وحمورية من جانبنا.

اللغة وجدان المرء. والطفل يتعلمها كالبيغاء ويعيشها، وعقله يقيس ويصيب ويخطئ. اللغة مجنونة ولا سبيل إلى ضبطها بالقوة. نحن نأخذ اللغة من ألسنة الناس. وبالنسبة للفصحى نأخذها من مقالات وقصص وروايات الكتاب، ومن كلام المتحدثين في الإعلام. وكذا الإنجليز فهم يأخذون الفصحى الإنجليزية بالضبط مثلما نأخذ فصحانا. هم غير مضطرين لمعرفة لغتنا. ونحن مضطرون لمعرفة لغتهم. لكننا غير مضطرين للتخلي عن وجداننا العربي. نحن لا نريد أن ينطق أبناءنا بلغة

شوهاء مركبة من عربية وإنجليزية، ولا نريد لهم أن ينغمسوا في الإنجليزية إلى ذقونهم. نريد لهم أن يتخرجوا من المدرسة ولديهم من الإنجليزية ما يكفي لمحادثة عادية مع شخص أجنبي، وقراءة خبر في جريدة، ولا أقول لقراءة مقال. فالمقالات التي تنشرها الصحف الإنجليزية والأمريكية المهمة مليئة بالتعبيرات الصعبة، وكُتَّابُهم يتفاصحون، ويستعملون اللغة للتباهي، حتى أكثر مما نفعل نحن. لكن الخبر الصحفي يكون مكتوبًا بلغة رصينة وسهلة ومباشرة.

إليك خبرًا سمعته قبل قليل. سيدة بريطانية تعمل مُعلِّمة وتحمل شهادة عليا. فُرض عليها تدريسُ بعض الطلبة العرب اللغة الإنجليزية. وجاءها في دروسهم تعبير «الأفعال المساعدة - أوكزيلياري فيرس» ففرغت إلى زميلتها العربية كي تشرح لها ما هذا المخلوق. ببساطة الإنجليز لا يدرسون «الغرامر» لأنه غير مهم. ونحن ندرس «غرامر» لغتهم لأننا حمقى.

عندما يبدأ التلميذ في سنِّ التاسعة مثلاً بالتعرف إلى أسماء الأشياء بالإنجليزية يكون قد شكّل سياقه العربي المتين، ولا خوف عليه من الاضطراب. ومن المهم أن يعرف الكلمة الإنجليزية مع مقابلها العربي. ما حاول المستعمر البريطاني أن يصنعه في كتب المدارس عندنا هو أن يخلق لنا وجدانًا إنجليزيًا منفصلًا. أراد لنا أن نرضع اللغة الإنجليزية ونتعلمها في سياق. في مدرسة خاصة في بلادنا في الخمسينيات كان هناك نظام يقضي بأن يدفع التلميذ قرشًا كلما «أخطأ» واستعمل كلمة عربية وهو يتكلم مع زملائه. كان الإنجليز قد خرجوا من بلادنا وقتئذ، ولكن الاستعمار لم يكن قد خرج من عقولنا، وهو موجود حتى اليوم.

نريد لتلميذنا أن يعرف الإنجليزية لا أن ينغمس فيها. وفي الصفوف التالية عندما يصبح التلميذ في الثالثة عشرة من عمره مثلاً نبدأ بإقراءه القصص متدرّجين من السهل إلى الأصعب. وربما أيضاً نقرأ الأخبار بالإنجليزية. ومن أفيد الأشياء الترجمة. والمترجم الذي يملك لغته الأم بقوة يسهل عليه أن يتعامل مع اللغة الأجنبية. كثيرون يريدون للطفل أن يتكلم الإنجليزية جيداً... أن ينطقها بشكل قريب من أهلها. وهذا ترفٌ لا نطمح إليه. على أن الاستماع إلى برامج إعلامية أجنبية يوفر الفرصة للسمع، وقد يُتاح المجال لاستضافة متكلّمين بالإنجليزية في العطلات الصيفية.

نعم، لو أنفقنا نصف الوقت الذي ننفقه الآن على قواعد الإنجليزية في قراءة القصص لتخرّج طلبتنا من المدارس بإنجليزية أفضل بكثير.

تدريس الدين في المدارس: كتب الدين الخمسة المقررة في بعض الدول العربية على جميع الصفوف لا تزيد من احتمال دخول المرء الجنة؟ وإرهاق التلاميذ بها يجعلهم يكرهون مواد الدين. وهل تظنون أن الطلبة يحبون كثيراً الدرس الأول في كتاب المطالعة وهو عبارة عن سورة قرآنية طويلة ومذيلة بالأسئلة البلاغية والنحوية؟ لكم أن تظنوا أيضاً أن الأرض مكعبة. الدين بما هو مشاعر وإيمان أمر يتعلمه المرء في بيته وفي مجتمعه. وقد رأينا أشخاصاً مشغوفين بمسائل الدين يقرأون الكتب السميكة رغبةً لا رهبةً. القرآن جزء مهم من تراثنا اللغوي والأدبي فلا بد من التطرق له والعناية به في المدرسة. لكنه نصٌّ صعب، ويحتاج إلى تفسير كثير، والأفضل الاقتصار من ذلك على الاستماع إليه وتدبر بعض معانيه.

عن التعليم.. تنبيهات جاحظية

هذا حديث في التعلُّم وقياسه، وفي التعليم وفلسفته. أبدأك به متردداً كالمتهيب؛ لأنني لا آمن أن تسمع أوله ثم تنصرف عن جُلِّه. فإنما تكون الزبدة في أواخره، وإنما يكون العرض المقنع المملوء أدلة وبراهين في أواسطه. وأريد قبل أن آخذ في صلب الموضوع أن أستوثق منك، وأن أستولي على سمعك وعلى فهمك. وأنى لي ذلك، ولست مني بمسمع ولا بمشهد، ولست منك بمنزلة تغريك بالاستزادة من هذا الذي تقرأه.

أُبْهِك تنبيهاً غليظاً إلى أنك لن تنتفع مني بأفكار أسوقها مُرْتَبَةً ومُفَقَّرَةً فقيراً يعجب الأكاديميين، ولن تجد عندي زاداً مما طبخ المربئون والفلاسفة. على أنني سأعوّضك عن ذلك. سأحكي لك عن أشياء وقعت لي وأنا أتعلم، وسأحدثك، عن أشياء صنعتها واعياً وأشياء وقعت لي اتفاقاً.

ولا أدعك تدخل في الموضوع دون أن أشفع المقدمة بتمهيد، وأردف كلامي بكلام قد تراه مما يترفع عنه الأستاذ ويتأفف منها التلميذ. أريد لك أن تدخل إلى عقلي وأنا آخذ بيدك، مترقفاً بك؛ وأن تسلك إلى أفكاري طريقاً طويلاً ومتعرجاً يمرُّ بك على رياض مونقة، حتى تعرف -بعد أن تصل- موضع الفكرة من التجارب التي ولدتها، وتدرك الأساس الذي عليه قامت، والمنبت الذي فيه جذرها، ومنه حياتها.

لا يُروِّعُكَ أن تجدني أسوق إليك، في الأسطر التي ستهجم عليك عما قليل، كلاماً من الأوليات: كلاماً عن الفرق بين الإنسان والحيوان.

لا يثنيُّكَ ذلك عن متابعة القراءة. فلستُ أعبتُ بك، ولا أطيل عليك قاصداً الإطالة. وأي كاتب يقصد إلى إسأم قارئه؟ أي كاتب يكره أن يقرأ القارئُ كلامه كله لا ينصرف عن فقرة من فقراته، ولا يقفز فوق سطر من سطورهِ؟

وكيف تلومني على السعي إلى فهم الإنسان من طريق التعرف إلى الفرق بينه وبين سائر الحيوان، وتلك أداة من أدوات الفكر استعملها الأقدمون ولم ينكرها عليهم المحدثون؟ ألم يتبَّهوا إلى أن الإنسان حيوان ضاحك؟ ومن هذه الملاحظة التي لا تغيب عن صبي يرعى غنمات أهله تغلغلوا في النفس البشرية وعرفوا عنها الكثير. ألم يقولوا: إن الإنسان حيوان ناطق؟ ومن هذه العبارة عرفوا عن اللغة وعن الإنسان الشيء الكثير.

لن نقول: «إن الإنسان حيوان متعلم»؛ فالحيوان، الذي ليس بإنسان، متعلِّمٌ أيضًا؛ لذا تفسد العبارة ولا تعود تصور فرقًا، ولا تعود علينا منها فائدة. لكننا نقول: «إن الإنسان يربط بين الأشياء المختلفة التي يتعلمها ربطًا يولِّد معارف جديدة ويفتح طرقًا جديدة». ونقول: «إن الإنسان مُسرفٌ في التعليم إسرافًا لا يعزفه الحيوان. فمثلما يسرف الإنسان في الأكل وفي الشرب وفي الجنس وفي ابتداع البدع المؤذية كالتدخين وتخدир الدماغ بالخمَر وبالحشيش، يسرف كذلك في التعلم».

كان لي أيام الطلب صديق ساكنته في بيت. كان تقيًا صالحًا. وحل بنا أولُ شتاء من شتاءين حلًّا بنا في تلك الدار، فرأيتُه يومًا يكرع رشفات من زجاجة كونيَّاك رخيص؛ التماسًا للدفع. قال: «إن تدفئة قفصه الصدري

بقليل كونياك يجره أجدى على جيبه من تدفئة الغرفة بقنينة جاز. على أن ما عند صاحبي من حكمة ليس فاشيًا في البشر. لعلهم عرفوا الخمر أول معرفتهم بها وسيلة تدفئة. لكنهم تعلموا بعد ذلك أنها تُحدِّثُ الدماغ. وأسرفوا فيها في صيف وفي شتاء طلبًا لتبديد أدمغتهم لا لتدفئة أعضائهم الصدرية. يسرف الإنسان في التعلم من جهات؛ فهو يتعلم ما يفيده وما لا يفيده. ينفق الخطاطُ عمره في تجويد رسم الحروف، وكان أدنى جهد كافيًا لتصويرها واضحة مقروءة. فالخط العربي بأنماطه فنُّ فضلة. وأي فن ليس بفضلة؟ ولعل كل فن لا يكون فضلة يخرج من حاقِّ الفن ويدخل في زمرة الصنائع، ولكننا في العربية نخلط فنسمي الصناعة فنًّا.

علام نلوم أنفسنا في تزيين قصورنا بالثرثريات التي يقصر ضوءها عن ضوء أنابيب النيون وتزيد كلفتها عن كلفتها أضعافًا؟ أفليسوا يصنعون ذلك في أرقى البلاد؟ علام نؤنب من يحفظ ألفية ابن مالك، ومن يحمل التلامذة حملًا على فهم الميزان الصرفي؟ أليسوا في البلاد الراقية يدرسون لغات ميتة كاللاتينية، ويحتفلون بالأساطير اليونانية ويحفظون أسماء آلهة وأنسابهم هم أعرف الناس بأنها لن تفيدهم ولن تضرهم؟

وإنما أسوق إليك كلَّ هذه الأسئلة -التي منها ما ينكر الشيء ومنها ما يزينه في النفس، فكأنها كتعاقب الحار والبارد على اللسان في الأكلة الواحدة- لا لأحيرك، بل لأفكك على حيرتي أنا. ثم إنني سأعطف بعد ذلك عطفه أسوق فيها رأيًا أعتقده، وهو مشرقٌ في ذهني الآن بعض الإشراق، واضح وضوحًا يجعلني مطمئنًا إلى أنك ستنصرف بشيء تظفر منه بطائل إذا مضيت أسطرًا أخرى غير كثيرة.

فأما حيرتي، وبها أبدأ قبل يقيني، فإنني وجدتُ لذةً تعلّم ما لا ينفع، وذقت حلاوة الفن من أكثر من باب. أنفقت سنوات، ما أشدّ ما أتحمّس كلما فكرتُ فيها، في إتقان، أو قل محاولة إتقان، مهارات ليس فيها غناء. ثم رأيتُني أَرْضَى باللذة التي حصلت في نفسي وأنا أبَدُّ ذلك الوقت، ناسيًا ما تكبدتُ من مشقة وما أنفقت من جهد. رأيت للفن حلاوة، ورأيت لا يقاس بما تقاس به الصناعة، ورأيت أخا التبذير. وأعرف، كما تعرف، أن الإنسان الأول كان يختلس من يومه سويغات ينسى فيها خطر الوحش وخطر الجوع ليبالغ في إتقان رسومه وتلوينها. فلئن كان بدأ يرسم صور الحيوان على جدران كهوفه لسبب يتصل بمعاشه، وضرورة أشعرته بها تجاربه، فإنه زاد في الإتقان والتلوين إسرافاً منه وتفنناً.

أندم على ساعات من الليل والنهار قضيتها في تجويد ترويسة الألف في الثلث أو صحن الصاد في الفارسي فما جادتا من يراعي إلا بمقدار، وما اعتضت عن ذلك الجهد تقديرًا ولا إعجابًا ولا مالًا. كان إدمانًا كإدماني اللعب بالأجهزة الإلكترونية أنفق فيه ساعات بالمئات.

لعله يحسن بي أن أكف نفسي كفاً عن المضيّ في حديث الإدمان والفن وما يجمع أو يفرق بينهما. ولعلي أَرْضَى بالإضراب عن هذا كله ولمّا أصل منه إلى قول فصل. وأنا، بعدُ، إنما أتحدث عن حيرتي. وأصوّر للقارئ أمورًا صنعتها مسوقًا مختارًا في آن.

أعود إلى أمور أنا منها على يقين. ليس كل اليقين، وليس في كل أمر منها. ولكنك ستجد فيما هو مقبل عليك شيئًا يبقى بيدك، تقبض عليه

وتجد له جرماً صغيراً أو كبيراً. فهو ليس قبض الريح. على أنه قد يكون قمحاً وقد يكون زؤاناً.

ما يجوز على الفرد لا يجوز على الأمة. ولا يشبه امرؤ حياة الفرد واكتسابه المعارف أو تضييعه الوقت في الفنون الجميلة، أو البهلوانيات القبيحة، بحياة الأمة واختزانها العلوم أو تضييعها الموارد، إلا وجب عليه الاحتراس من التماذي في التشبيه، والانتباه إلى أن الدهش بما بين المشبه المشبه به من تناظر قد يُسلم المرء إلى الخطل والمبالغة، ويعميه عن الفروق. وأولى بالمرء أن يقدح النفس عن شهوة الانجراف بالفكر إلى مزالق الجزم. فلنضرب على كل فكرة خباء من الشكوك يحميها أن تكون سراياً لكنه لا يخنقها. لنفهم، ما أمكننا، القدر الذي يمكن لإرادة الفرد وإرادة الأمة أن يفعلاه من تغيير للواقع، ثم لنشب إلى أنه «ليس بالإمكان أبدع مما كان». وبينهما يقع الحق ويقع الممكن. وهما، أي الإرادة والواقع، للفعل الإنساني أرضه وسماؤه.

وضعك خطة لتعليم نفسك مهارة أو إكسابها إدماناً يجرُّ عليك ما يجره في مقبل أيامك. فما بالك بوضع خطة لتعليم الملايين؟! وإقامتك توازناً بين الفن والصناعة، وبين ما تلذه وما يُدرُّ عليك مآلاً، شأن يشغل تفكيرك فرداً، وأحرِّبه أن يشغل تفكير الأمة وقادة الرأي فيها. هل تعلم أبناء الأمة كلها تعليماً شاملاً يعمُّ الناس كما يعمُّهم المطر والهواء، ثم تغفل الاعتناء بالصفوة، أو تترك ذلك قاصداً؟ أتريد للأمة أن تطعن وجدانها وتراثها بالخناجر كما صنع أتاتورك عندما ألغى الحرف العربي والطربوش، وما يعنيه؟ لعل في هذه المجزرة جِمامة نافعة لجسم الأمة؟ أم يسلك سبيل الترفق مع كثير من الفهم؟ أم أن بعض الأمم تصلح

على الترفق وترقى به صاعدةً صعودًا متصلًا لا نكوص فيه، وبعضها لا يصلح بغير حجارة غليظة تُخرج الدم الفاسد؟

بين هذين الطريقتين اللذين يبدوان متضادين كل التضاد طرق كثيرة. والأمة، كل أمة، تمضي في طريقها صاعدة أو غير صاعدة تسوقها رياح لا يد لها في توجيهها، وتدفعها إرادة تنبع من داخلها.

قادة الرأي يقودون بما عندهم من فهم، وبما درسوا وفكروا، وبما حشدوا من علم، وما شحنوا به نفوسهم من إخلاص لكي يكونوا الرائد الذي لا يكذب أهله. المفكر في مستقبل قومه يضع الخطة بعد أن يفهم فهمًا عميقًا. يرسم صورةً للمستقبل قد تكون سطرًا وقد تكون كتابًا. ثم تراه يخوض حربًا في سبيل إنفاذ خطته. ولا بد من الحرب، ولا بد من سفاهة يركبها وهو يحارب. وقد يظن خطته تنزيلاً أحكمت آياته. وقد تمنعه طبيعته أو طبائع خصومه من أن يرعوي. وقد يجد نفسه بعد حين يعوي في الصحراء غير مُسمع أحدًا، أو قد يجد نفسه يقود الخراف إلى العشب ويحميهم من هجمة الذئب. خليقٌ بصاحب الرأي أن يتخلق بالأنانة، وأن يحذر التزق. وجدير به أن يزن أفعاله بين الفينة والفينة بميزان الإخلاص. لسنا نزعم أن أحدًا يضع خطة أو ينافح عن رأي لوجه الله، معاذ الله. بل كل البشر اعتباراتهم بشرية مصلحة. لكن فيهم من ينصب هدفًا ويسعى إليه، فإن عجز عن الوصول نصب هدفًا آخر ثم راح يسعى إليه لا يخفي عن أحد، ولا عن نفسه، أنه استبدل بهدفه. وفيهم من يأخذك على بعيره والهدف مكة، ولا يني يُعلِّك ويؤمِّلك، أو يُسِّقه عليك، أو يُشدّد في وجوب أن تترك إليه شأن القيادة والتفكير والتدبير حتى تجد نفسك، وقد دخل ذو الحجة، على مشارف حلب. أكثر من صنع بنا ذلك

الزعماء. ولكن من أهل الرأي من اقترف أشياء مشابهة. ما أجدر أهل الرأي أن يكرروا النظر في بوصلتهم، وأن يأخذوا الحِطة كيلا ينزلقوا في التضليل وهم يحاربون خصومهم ويدافعون عن أفكارهم.

أحفظني رجلٌ أراد، وكان ذلك في سنة ١٩٨٥، أن يبيعي اشتراكًا في جريدة حزبه ذي الاتجاه السوفييتي، اشتريتُ منه ذلك العدد من الجريدة وقرأت ما تيسر لي، ثم أبدت له تعجبي لأن الجريدة تزعم في مقالات عديدة أن العلم السوفييتي والتكنولوجيا السوفيتية والمجتمع السوفييتي والمستقبل السوفييتي خير مما يناظر ذلك في الغرب الرأسمالي. أردتُ أن أناقشه في أغاليط لا تجوز على البُله والمعتهين. فأبى أن يفهم عني. وأما ما في الصفحة الأولى من تعليقات سياسية وأفكار عما يحدث لنا وما سوف يحدث، ومن أخبار منتقاة انتقاء لا يرضى عنه محرر حرٌّ فلم أمسه من قريب ولا من بعيد فهو فاسد، وصادر عن أفق ضيق، ضيقته الأيديولوجيا. رأيتُ صاحبي ذاك، في تلك الحقبة، التي لم يكن أيُّ منا يعلم أنها حقبة لفظ الأنفاس للاتحاد السوفييتي، رأيتُه قد رهن عقله وتخلّى عن حقه في التفكير. ثم لقيت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بسنتين أو ثلاث رجلًا من كبار قادة الرأي الشيوعيين. ورغم ما جُبلت عليه من إيثار السلامة ركبت مركبًا فظًا إذ سألتُه عن شعوره بعد انهيار الحلم الكبير، وكيف تماسك الرفاق وتمكنوا من مواجهة الدنيا بعد الزلزال. راح يحدثني حديثًا تافهًا عن ذكرياته في موسكو وعن الساحة الحمراء وعن الفودكا. رأيتُ أكثر أنصار الاتحاد السوفييتي قد تأقلموا مع الأوضاع بشكل مدهش، وشُفوا من داء الأيديولوجيا، وغدوا عمليين يعرفون من أين تؤكل الكتف.

وتمر بنا اليوم معنةً من أشد ما مرَّ بنا وأفظعه. ففي هذه الانتفاضة التي مضت عليها ستان ونصف ارتفع عن الرقاب بعض الارتفاع سيف التقيل، ولكن سيف الجوع ظل مصلاً. نحن الآن في وضع أحوج ما نكون فيه إلى التكافل، فمجتمعنا يتعرض إلى هجوم وحشي، والناس محتاجة إلى تقاسم الأرغفة القليلة، وتوزيع المعونات الشحيحة بصورة تضمن للمجتمع صموداً أكبر وتشحبه بثقة سيحتاج إليها في المستقبل عندما يعود ليني ما تهدم. وأرى أنصار الاشتراكية قاعدين عن اشتقاق شيء منها ينفعنا، أراهم يتكلمون كثيراً، كما كان شأنهم دائماً، ولا يتكلمون إلا في المناورات السياسية. عقدة انهيار الاتحاد السوفيتي جعلتهم يخجلون من كل أفكارهم السابقة ومن كل كلماتهم السابقة. صارت كلمة الاشتراكية كلمة منكرة يتحاشونها. لكنهم ظلوا يتكلمون.

خرجت هذا الخروج كي أنبه القارئ، وإياي، إلى خطر نسيان المراجعة للخطط والأفكار، وإلى ضرورة عدم تثبيت مبادئ عينها ورفعها إلى مرتبة القداسة، وعدم ترسيخ أساليب عمل ترسيخاً يحول دون تصحيحها عندما يكون التصحيح مفيداً.

فلو ثبت امرؤ في عقله فكرة أن تحفيظ التلامذة أبيات الشعر شرٌّ مستطيرٌ، ولو هو أمعن في المنافحة عن هذه الفكرة واستعداد الأقران في سبيلها، ولو هو اتخذ هذه الفكرة هادياً له في عمله التربوي، لغدا صعباً عليه أن يتراجع إذا ما نوقش، ولغدا صعباً عليه أن يناقش نفسه. الدوغما جميلة لبساطتها. يبينها المرء في عقله من الحجر، ويحيطها بأحواض الزهر، ثم يرى أن انتقاضها يخلُ بتوازن دماغه. وكثيرة هي الأدمغة التي تفتقر إلى الحيوية، ولا تحتمل عمليات البناء والهدم والتعديل المستمرة.

ومن قال: «إن الحفظ شر؟» إنه أداة من أدوات التعليم، إن أفرطنا في استعمالها حصلنا على نتيجة، وإن اقتصدنا حصلنا على نتيجة، وإن أهملناها حصلنا على نتيجة. لماذا نقيّد أنفسنا بقواعد هي أشبه بالتحليل والتحریم؟ بدأتُ حديثي إليك متربّعاً في كسر بيتي، أتسألُ بتذكر العبارات العتيقة راجياً أن تتسألَ معي بها. ولا بد لي الآن من الجلوس إلى المنضدة، فلعل لغتي أن تعتدل باعتدال جلستني، ولعلّي أُجربُ أن أطرح الاستطراد وأن أترك قلمي على سجيته، فهذا أروح لي ولك.

ثمة أمور رئيسة تشغل فكري: لماذا نتعلم؟ وماذا نتعلم؟ وكيف؟ وكيف نقيس أثر التعليم الذي نعلّمه أبناءنا؟ وكيف نضع الخطط التعليمية؟ وكيف نُبقيها سجلات مفتوحة قابلة للتعديل المستمر؟ وكيف نخوض المعارك ضد خصومنا في الفكر دون أن تنال هذه المعارك من قدرتنا على التسامح وعلى الفهم؟ والهدف الأسمى هو البقاء. هو أن نحفظ قومنا من الفناء، وأن نغرس للمستقبل.

نحن فعلاً على مفترق طرق. أليس ثمة شهوة صهيونية عمياء لرؤية النبوة التوراتية تتحقق فيعود اليهود يأخذوا فلسطين كلها. ولكن التوراة ليست منطق الكون. وحتى لو تحققت النبوة فإنها لن تقضي على قوة مطلبنا ورسوخه في وجدان أبنائنا. وثمة في جانب آخر رغبة دفينّة في نفوس اليهود في أن يصيروا مثل كل الشعوب. لقد تأرجحوا بين حياة الذلة والمسكنة وبين حياة البطش والظلم. قضوا خمسمئة سنة أذلاء في أوروبا والعالم، ثم قضوا الخمسين سنة الأخيرة باطشين في فلسطين. وأظن أن عقلاءهم يتمنون لو يستقر الوضع الآن فيتاح لهم أن يعيشوا

حياة طبيعية حتى لا يعود البندول إلى الجهة الأخرى فيذوقوا المسكنة في طور لاحق.

ولعل عقلاء الفلسطينيين أيضًا يريدون حياة طبيعية بينونها لشعبهم في الربع الباقي في فلسطين. ولكن مجانين اليهود لا يتركون لعقلاء الفلسطينيين إلا خيارًا واحدًا هو أن يهاجروا إلى المستقبل ويشنوا حرب تحرير مطالبين بفلسطين كلها.

قد يتغلب العقلاء فيعيش الشعبان في فلسطين. وهنا لا بد للشعب الفلسطيني أن يتعلم كثيرًا وأن يبنى بلده. وقد يتغلب المجانين، وهنا لا بد للشعب الفلسطيني أيضًا أن يتعلم كثيرًا وأن يبنى شتاته. لو حدث الانهيار وقُدِّرَ على الفلسطينيين أن يتفرقوا في الأرض أكثر مما قد تفرقوا فسوف يصاب كل فلسطيني بمرض نفسي اسمه العودة. هذا المرض موجود الآن ويعاني منه الخمسة ملايين فلسطيني في العالم. وإذا تفرقنا كلنا في العالم فسوف يغدو هناك عشرة ملايين من المرضى النفسيين الذين توجد في وجدان كل واحد منهم غرفة مقفلة جدرانها سود. وهذا المرض النفسي لحسن الحظ أو لسوءه يورث للأبناء. وسيعاني منه الفلسطينيون واليهود طويلًا. لكنه، لحسن الحظ، لا يمنع من التعلم والترقي. بل لعله يحثُ عليهما.

إذن فنحن، الفلسطينيون، نحتاج إلى أن نتعلم كثيرًا وإلى أن نتفوق كثيرًا. لكن طبيعة المعارف والمهارات التي نحتاج إليها ونحن في بلدنا تختلف عن تلك التي نحتاج إليها في الشتات. والخطط التعليمية التي تصلح هنا قد لا تكون ممكنة ولا صالحة هناك.

على المفترق لا يشعر المرء برغبة في أن يفعل شيئًا سوى أن ينتظر. لكن، ألا يجدر بنا ونحن نتظر أن نزجي الوقت وتسلَّى بأشياء تنفعنا سواء أسلكنا هذا الطريق أم ذاك؟ ثم إن وقوفنا على المفترق قد يطول. نحن الآن في دوامة انتفاضة دامية. قد تنتهي بعد سنة، أو بعد خمس. ثم قد يأتي بعدها وقت جامد مثل الوقت الذي مررنا به بين الانتفاضة الأولى والثانية. وقد نتفض مرة ثالثة بعد عشر سنين، وقد تجيب الانتفاضة الثالثة آخرتنا ويكون فيها رحيلنا أو ثباتنا على أرضنا ثباتًا فيه مزيد من القهر.

من يدري؟ كذاب الذي يقول: إن بصيرته قادرة على رؤية شيء من هنا. أهون عليه أن يرى ضوء شمعة من على مسيرة شهر من أن يرى ما سيحل بنا بعد عشر سنين.

فما نوع التعليم الذي نريد أن نتعلمه الآن؟

أتحدث الآن عن الضفة الغربية وقطاع غزة. أما الشتات فهو ليس مما نستطيع أن نضع له الخطط ولا أن نرسم له شيئًا. له ديناميته. لن نفلح ونحن على المفترق في تعليم عميق وإبداعي. البحث العلمي غير متاح والبلدُ أمرُها مضطربٌ. فحتى بعد انتهاء الانتفاضة ستكون هناك سنين عجاف. نحتاج إلى تعليم أساسي (مدرسي وجامعي) يخرج لنا أشخاصًا مهرة في حقول معينة بحيث تنفعهم مهارتُهم هنا أو في الشتات.

عن التعليم المدرسي

كنت أسأل ابنة أخي، التي أنهت الشهادة المدرسية لتوها بمجموع ٩٧٪ وبعض الكسور، عن أسئلة الامتحان النهائي في اللغة العربية، فقالت: «إن ورقة الأسئلة تضمنت شيئاً عن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية». حسناً فما هذا؟ اضطربت المعلومات في رأسها، لكنها قالت: إنها أجابت إجابة صحيحة. وأنا أصدقها. وإلا فمن أين لها بهذا المجموع الضخم؟ حدث هذا الموقف بعد أقل من شهر من ظهور النتائج (وأنا أكتب في الخامس عشر من أغسطس/ آب ٢٠١٣).

ولم أتبرع لابنة أخي بالإجابة عن ماهية الاستعارة التصريحية والمكنية؛ ذلك أنني لا أعرف الجواب. فكيف ذلك وأنا قد كتبت كتباً عن شعر أبي تمام، والمتنبي، وشوقي؟

كثير من «علومنا اللغوية» مجرد تمحل. وقد جعل النحاة القدامى من البلاغة والنحو والصرف بيتاً للأشباح. وقد يعنُّ لي في بعض الأحيان أن أنسي عليهم آخذاً في اعتباري ظروف عصرهم، ومدركاً أنهم وجدوا في النحو، وفي البلاغة، وفي الفقه، قنوات تصريف لطافتهم الذهنية الكبيرة. ولسنا في هذا بدعاً بين الأمم، فقد أنفق لاهوتيو بيزنطة زمناً وهم يتجادلون في عدد الملائكة الذين يمكن أن يقفوا على رأس الدبوس. لست ضد تدريس بعض علوم الأوائل، وشرطي أن يسبق هذا تمحيصٌ لهذه العلوم بحيث يدرك المرء ما هو حقيقي فيها وما هو مجرد تمرينات لخلايا الدماغ. وبحيث يتم ربط هذه العلوم بحياة الناس، فمثلاً -ولعلك

تستغرب - لستُ ضد تعريف الطلبة بالجناس (مثال: سمّيته يحيى ليحيا)، فكثير من الشعر الشعبي في بلاد العرب يتخذ الجناس مطيّةً، وعتابا بلاد الشام نمط من الشعر لا يقوم بغير الجناس. فهنا يوجد شيء ما زال حيّا في هذا النمط البديعي. وانتبه إلى أنني قلت التعريف بالجناس، ولم أقل دراسته. فأنواع الجناس تصل في إحصاء بعضهم إلى أربعين، يُضاف إليها نحو من مئة وعشرين لونا آخر من ألوان البديع سوى الجناس. كل هذا في البديع. فأما الاستعارات والتشبيهات فهي ضمن علم آخر هو علم البيان. وأما أساليب الطلب والتمني والترجي ... إلخ فهي من علم المعاني. ولعلك تريد، أو لا تريد، أن تعرف أن علم البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة: البديع والبيان والمعاني.

فهل تراني أتحدث إليك كما يتحدث مُعلّم المدرسة؟ حسناً، لقد كتته يوماً.

وقبل أن أخرج من مزاج «مُعلّم المدرسة»، أبحث لك في الإنترنت عن تعريف الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية: التصريحية أن تقول لصاحبك: «أيها الأسد». والمكنية أن تقول لصاحبك: «سررتني وأنت تزأر في وجه ذلك الرجل الوقح». ففي التصريحية استعرت له الأسد كله. وفي المكنية استعرت له صفة من صفات الأسد، وهي الزئير، دون أن تذكر الأسد.

ولو درس الطلبة الاستعارة هكذا لهان الأمر، ولكنهم يدرسون نوعي الاستعارة في كلام مطوّل يشبه تعاويد الشيخ شَمهورش.

أريد أن يكون في منهاج الرياضيات شيءٌ عن اللوغاريتمات يكون مفهوماً ويساعد في حل المسائل العملية، ولا أمانع في دراسة التوافيق

والتباديل بعض الدرس. ولكنني أريد أن يكون ذلك كله مسبوکًا في قوالب عملية تسهّل على الطلبة الفهم، وتجعلهم يرون فائدة التوافق والتباديل. وأما عندما يدخلون في التخصص فليكن هناك تجريد أكثر، وليكن هناك تشعب.

الطريقة التي يتم بها تدريس العلوم والآداب في مدارسنا تعتمد على كثير من الحفظ وقليل من الفهم. ليس في الآداب وحدها بل في العلوم أيضًا. افتح كتاب الكيمياء وكتاب الأحياء وخذ لنفسك نظرة عجل.

لكن هناك دروس أخرى نقرأ فيها معهم أشعارًا عن الحب والوطن، وتلك القصيدة «الخمريّة» التي نظمها أحمد الصافي النجفي.. لكن عن كوب الشاي، و«قصيدة» الذئب للبحري، وقصيدة لنزار قباني عن هزيمة الـ ٦٧، وقصيدة «حياة مشقات» لإلياس فرحات. ثم في نشاطات مدرسية خارج المنهاج نلقي قصائد لمحمود درويش ولأبي القاسم الشابي ولإبراهيم ناجي. كل هذا دون التطرق لكل السفايف البلاغية. فقط نقرأ القصائد ونستمع بها.

لو حدث هذا لأصبح في قلب الطالب إدراك تلقائي لكل الأدوات البلاغية. فمن تذكر منهم الجناس ورآه في الشعر بوضوح فهذا هذا؛ ومن نسي الجناس والاستعارة فلا بأس عليه، فهو قد تشبع بأدب أمته، وامتألت نفسه فصاحة بصورة تلقائية.

المُعَلِّم في بلدنا هو الموظف الوحيد الذي يعترف الجميع بأنه يأخذ مرتبه عن جدارة. وأنا هنا لكي أطعن في هذه الجدارة. هو سجان أكثر منه معلمًا. والمنهاج رديء.. لا أعني كتب المنهاج فقط، بل المنهج التعليمي رديء، والفكر التعليمي رديء.

للمدارس في بلدنا قدرة على خلق حالة نفسية معينة لدى الإنسان سأصفها بقدر ما أستطيع، وقد لا أملك القدرة التعبيرية الكافية، إما لأنني ما زلت حتى الآن أعاني من هذه الحالة، وإما لأنني أكتب وعلى رؤوس أصابعي شياطين السخط، فتصطبغ كلماتي بمشاعر الكره الفياضة فتغطي على الفكرة.

يشعر الطالب أنه عبد. يشعر أن المدرسة والدوام المدرسي محور حياته. ويشعر أنه يجب أن يفهم كل شيء ويحفظ كل شيء. أكان يحب الكيمياء أم كان يكرهها، فالكيمياء قدره، عليه أن يحصل على درجات عالية. عليه أن ينجح في كل المواد: بالفهم أو بالحفظ أو بالغش. عليه أن يلبي رغبات عائلته. يعدُّ نفسه أبله لأن عددًا من زملائه تمكنوا من حفظ أشياء ومن فهم أشياء وعجز هو عنها. يدخل في دوامة «التفوق»، والمنافسة. يقولون هي منافسة شريفة. لا، بل هي منافسة قاتلة للشوق الذي بداخل الإنسان للتعلم.

ثم يعيش المرء حياته كلها عبدًا.

ربما كان هذا هو الدور الأساسي للمدرسة: أن تجعل الإنسان عبدًا. لم أر أحدًا يمارس شيئًا بإبداع وبحب إلا ويكون قد تعلمه وحده.

تمنعي شهوة التكسير التي تجتاحني الآن من أن أمضي في شرح فكرتي. فلتستقر في أعماقي مدة أخرى حتى تنضج، وحتى تزول حرارة الكراهية التي تعتمل في نفسي، وعندئذ قد أفصلها في مقال آخر.

فضيحتان في جامعتين

قبل أيام صدر ديوان المرحوم محمد العمدة مدير كلية النجاح سابقًا. أحصيت في الديوان أكثر من ثلاثمئة غلطة نحوية وعروضية، وقُدِّرت أن فيه نحو ستمئة غلطة مطبعية. وهو ديوان صغير من مئة وخمسين صفحة مع فراغات واسعة بين الأبيات. وأشهد أن طالبًا فالحًا في السنة الجامعية الأولى كان قادرًا على إقامة جُلِّ هذه الأغلاط حتى بدون الرجوع إلى المخطوط. وأشهد أن الشاعر كان متينًا في إقامة الوزن واللغة، ولكن اللجنة -التي سُمِّت نفسها «لجنة تحقيق الديوان وإخراجه» والمكونة من أربعة دكاترة، ثلاثة منهم متخصصون في اللغة العربية- ارتضت أن تقدم لرئيس الجامعة هذا الكتاب، على هذه الصورة المخجلة، ليكتب مقدمته، وليصدره باسم الجامعة. فالمعذرة للشاعر المرحوم.

أيها المحققون الكرام، لولا أن بلدنا صغير، وأنني قد ألتقي ببعضكم مصادفة، لكنت سلفتكم بكلام غير هذا الذي قرأتموه أعلاه.

ووقع بيدي كتاب صادر عن جامعة أخرى، اسمه الفكر العربي الحديث والمعاصر. وقد وردت في مقدمته أسماء ١٤ شخصًا (أكثرهم دكاترة) ساهموا جميعًا في اختيار نصوص الكتاب من كتب فكرية شتى. وذكر في المقدمة أن النصوص «مرفقة بسير (ذاتية) كتبها المحررون، لتضع النصوص في سياقها التاريخي». ذاتية؟ شيء مخجل. لكن المخجل حقًا سيأتيك في الفقرات التالية.

إذن فالمحررون قد كتبوا السير! وهؤلاء المحررون أساتذة جامعيون يرشّبون الطالب ترسيبًا لو اقتبس فقرة واحدة في بحثه دون الإشارة إلى مصدرها.

السيرة الأولى لرفاعة الطهطاوي، وفيها بضعة أسطر منقولة من كتاب لعمر الدسوقي. (والدسوقي لم يقع في غلطة تلقيب سعيد باشا بالخدوي، و«المحررون» وقعوا). والسيرة الثانية سيرة خير الدين التونسي، وطولها نحو ٢٥٠ كلمة، وهي منقولة حرفيًا عن كتاب أحمد أمين زعماء الإصلاح، (مع إضافة عدد من الأخطاء المطبعية، وغير المطبعية. ف«المحررون» يصرون على أن الباي أحمد تولى الحكم سنة ١٨٣٧ هجرية، أي بعد أربعة قرون من الآن). وسيرة الكواكبي (نحو ٢٥٠ كلمة) منقولة حرفيًا عن كتاب أحمد أمين أيضًا (ونسختي التي بيدي الآن صادرة عام ١٩٦٥ عن مكتبة النهضة المصرية).

وقد ذُيل السادة «المحررون» كتابهم بسجل للمراجع. ولكن كتاب أحمد أمين، المعتدى عليه أكاديميًا، غير مذكور؛ ولا كتاب الدسوقي مذكور. وأترك سيرة نزار قباني لضيق المقام، غير أن فيها من القصّ واللصق ما يخجل من مثله ضعاف الطلبة.

بخلاف السطو الأكاديمي هناك من الأخطاء اللغوية والمطبعية ما لا تجده حتى في كتب الأرصفة. هذا الكتاب مُقرّر منذ خمس عشرة سنة على آلاف الطلبة، ومنصوص في طبعته الثالثة على أن «جميع حقوق الإعداد والتحرير محفوظة للمحررين». وهناك عبارة طريفة أخرى في المقدمة رجوت ألا تفوت القارئ الكريم، فالطبعة الثالثة تصدر «كنتاج

لتطوير الطبقات السابقة والتي ساهم فيها كافة أعضاء دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت» فتأمل!

جو المقال: نُشر في جريدة الحال التي يصدرها معهد الإعلام في جامعة بيرزيت. وردّت عليه الدائرة الساطية. ولم تعترف بالسرقات. فرددتُ ردًّا وقع في خمس عشرة صفحة. وقرر عميد الآداب دفن ردي. فآثرتُ السكوت لأن أحد الأساتذة استرضاني بلهجة فيها شبه اعتراف. وبالمناسبة فإن ما ذكرته من النصوص المسروقة مجرد أمثلة ... السطو أبلغ من ذلك.

مدرستان أجنيبتان في نابلس

مبارك عليكم يا أهل نابلس.. تفتتحون هذه الأيام مدرستين: واحدة أمريكية وأخرى إنجليزية. وهذا يذكرني بقصة الخوري اللبناني الذي ركب حماره قبل مئة وخمسين سنة صاعدًا في الجبل، فسأله أحدهم: «إلى أين يا أبونا؟» فقال له: «ذاهب إلى القرية في رأس الجبل لافتتاح مدرستين». قال له: «مدرستين مرة واحدة، وفي قرية؟» فقال الخوري: «سنفتتح مدرسة اليوم، وبعد قليل، سيفتح البروتستانت مدرسة».

على أن مدارس لبنان التبشيرية اهتمت باللغة العربية، وخرّجت عددًا من كبار فطاحل الأدب العربي. ومدارسنا الأجنبية تبتعد عن اللغة العربية شيئًا فشيئًا. ونرجو لمدرستي نابلس أن تهتما باللغة العربية. ونهديهما خلاصة بحث لبناني حديث.

البحث كتبه صوما أبو جودة من الجامعة الأمريكية ببيروت، وفؤاد صيّاخ من مدرسة مار يوسف في قرنة شهوان، وقد استندا إلى عينات وافية مقسومة قسمين: طلبة درسوا العلوم والرياضيات باللغة العربية، وطلبة درسوها باللغة الإنجليزية. ونتائج البحث ثمانية، وجميعها بلا استثناء تقول: «إن الذين درسوا باللغة العربية أفضل تحصيلًا وفهمًا واستمتاعًا بالمادة. والمفلحون ممن درسوا بالإنجليزية (وهم أقل بكثير من المفلحين ممن درسوا بالعربية) أفلحوا لأن الأساتذة كانوا يغشّون... ويشرحون الدرس بالعربية». (البحث منشور في كتاب اللغة والتعليم بتحرير قاسم شعبان، عام ٢٠٠٠، إصدار الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية).

الناس في نابلس هاجمون على المدرستين، والصفوف صارت ممتلئة. مبارك مرة أخرى. والغلط ليس في أهالي نابلس بل في النظام التربوي الحكومي. وافتتاح مدارس أجنبية ليس الحل، فوزارة التربية والتعليم عندنا مُطالبة بأن تكف عن إصدار تلك البيانات التي تفاخر فيها بنتائج المدارس الحكومية.. فما أسهل تلفيق الإحصاءات. أداء مدارسنا الحكومية رديء، وخير علاج له الصدق مع النفس.

هناك طريقتان للإصلاح... الأولى تكلف مالا كثيرا. وهي مهمة ولا بد منها، وتمثل في رفع مستوى المعلمين ماديا، وتعريضهم لدورات حقيقية ولعملية توجيه فاعلة. والطريقة الثانية مجانية، وهي النظر في المناهج وأساليب التدريس. لا يكفي أن تتفضل وزارة التربية علينا بما صنعت من حذف لثلث منهاج اللغة العربية. فالثلثان الباقيان رديتان أيضًا، والحذف فيه رشوة فجّة للطلبة.

عن اللغة

قصة ذبابتين

أسهرتني ليلة أمس ذبابة. ذبابة سريعة ومجنونة. وأنا مثلك عزيزي القارئ، أنتظر وقوع الذبابة على زجاج النافذة ليسهل عليّ اصطياؤها بضربة بالجريدة. لكن ذبابة أمس أعجزتني، ونمتُ مرهق الأعصاب منها. وأسهرني الليلة اسم مسلسل. لقد حضرت هذا المسلسل اللعين بحلقاته الأربع والأربعين، ولكن ماذا نسميه باللغة العربية؟ هذا مسلسل كوميدي إنجليزي، واسمه «كينغ أب أيرانسيز»، والمعنى الحرفي: «الحفاظ على المظاهر». وكلمة المظاهر في قاموس أمي تعني القناع الاجتماعي الذي يرتديه الناس لكي يظهرُوا أغنى وأتق وأكثر تمدُّناً مما هم. ولم أجد لكلمة (المظاهر) في الفصحى هذا المعنى. وعند أهل بلاد الشام ومصر تعبير أقوى هو «قُدَّام الناس». فنحن نتكلف ثوب عرس غالباً حتى لو كان مستأجراً، ونستعير للعروس بعض الأساور الإضافية.. «بَسَّ قدام الناس». وصلت الفكرة؟ وخطر ببالي مصطلح قديم أكثر انطباقاً. بل هو يعبر عن اسم المسلسل بشكل بديع. وورد في قصة:

افتقر رجل في الزمن القديم، وبلغ به الفقر أن جاع عياله، ولكنه احتفظ بثوب أنيق غالٍ لكي يتجمل به ويرتاد أندية القوم. ارتدى ثوبه، وتطفل على مجلس أحد البرامكة. قُدِّم الطعامُ في آنية من فضة، فأكل الرجل ثم أخفى إناؤه في ثيابه. وتكملة القصة أن أحد الخدم اكتشف أمره فرفعه إلى البرمكي، فعرف منه البرمكي قصته فأعطاه مالاً جزيلاً.

أها! «التجمل». هي الكلمة. نحن نتجمل ونظهر بغير مظهرنا ونخفي فقرنا. هي الكلمة التي تجمع ثلاث كلمات إنجليزية. لكن المعنى عتيق، وقد انصرفت كلمة التجمل إلى معنى آخر. خسرناها. عمومًا، لو أريد لهذا المسلسل أن يترجم لما قامت بعنوانه كلمة أفضل من «التجمل».

اللغة تتغير، وتمّحي المعاني عن الكلمات لتحل محلها معان جديدة. كانت (العلبة) الإناء الذي يحلبون فيه الناقة، فصارت أعمّ من ذلك، وكانت الذرة النملة الصغيرة، فأخذت معنى علميًا جديدًا. وكان القطار قافلة جمال تسير في خط، فصار القطار ما صار. كان الناس قد بدأوا يسمونه «ترين» الإنجليزية، أو «تران» الفرنسية، ولكن المترجم القدير الذي يعرف لغته القديمة أدخل كلمة القطار بقوة فدرجت. وكان «الجميل» شحم الجمل، وكانوا يحبون الشحم ولا يأكلون اللحم إلا سمينًا، وكانوا يحبون المرأة السمينة لأن هذا دليل على الترف فسموها جميلة لما على جسمها من جميل أي شحم. ونقول اليوم «صبرًا جميلًا» أي صبرًا كصبر الجمل.

المجتمع العربي غني بالكلام الدقيق. كلمة «وحشتوني» في مصر، و«يصطفلوا» في الشام، و«أجر من عنه» في فلسطين، ليس لها في الفصحى مرادفات. والكاتب الذي يلتزم الفصحى، كمحدثكم، يشعر في بعض الأحيان برغبة عارمة في أن يستعمل كثيرًا من العامية للتعبير عن مواقف دقيقة، ولكن رغبة أخرى تحول دون ذلك: هي الرغبة في أن أحدث الناس في أوسع رقعة ممكنة. فلا بد من الفصحى.

«وحشتوني» معناها أوحشني غيابكم. و«يصطفلوا» معناها ليفتصلوا وحدهم ولا شأن لنا بهم. فإذا قلت لأمك: «عمّتي باعت قدور النحاس،

وزوجها حلف ألا يشتري لها قدور تيفال»، قالت لك أمك: «يصطفلوا». و«أجرمن عنه» معناها: أها، الآن عرفنا السبب! فإذا قلت لأمك: «عمي تزوج على زوجته»، قالت: «أجرمن عنه باع السيارة، وصار يصبغ شعره».

وأعود إلى ذبابة أمس التي أسهرتني، فإنني عندما قمت في الصباح وجدتها نائمة على المنضدة الواطئة التي يسميها الإنجليز منضدة الشاي ويسمونها في بلاد الشام تريزة أو إسكملة وفي مصر طبلية. وقد أتيتها في نومها بالموت الزؤام، أي السريع، بجريدة عتيقة. وذكّرتني صريعة الجريدة بذبابة أخرى كانت قد حبست نفسها في سيارة في يوم بارد.

كنا في السيارة خمسة أو ستة، والبرد شديد وقد أغلقنا النوافذ، وكان كل واحد منا يهشُّ على الذبابة ويهديها إلى جاره، ومضينا على هذه الحال ساعة، وبتقدير آخر سبعين كيلومتراً. ثم فُتحت الأبواب، وترجّلت الذبابة أول من ترجّل. وبدأتُ على الفور أفكر في مصير هذه المسكينة التي تغربت، ولست أظنها قادرة على أن تطير عائدة إلى موطنها حيث أبنائها وجيرانها. وعزيت نفسي قائلاً: «لعلها توفق بسيارة أخرى تكون عائدة إلى الوطن».

قد قصدت في مطلع كلامي أن أتحدث عن الإنتاج الإعلامي المتطور، لكنني انحرفت إلى حديث الذباب، فإن كان بقي معي قارئ، فلن يسمع عن الإنتاج الإعلامي؛ لأن مزاجي قد انحرف.

سيسمع عن «التأثيل». وحنائيك، فهذه كلمة حلوة! معناها الفحص عن أصول الكلمات. فمثلاً الورقة قد تكون بيضاء، أو بنية اللون. ولكن كلمة (ورق) معناها الأصلي أخضر. هناك إشارة خفيفة في لسان العرب إلى هذا المعنى. ولكننا نتأكد من أصل المعنى بالرجوع إلى السريانية

مثلاً فالأخضر في السريانية «يروقو»، وهو بالعبرية «يروق». وهذه اللغات الثلاث، العربية والسريانية والعبرية، نشأت معاً، ولا يدرى أحد أيها سبق. ولكن العربية تطورت وألبست كلماتها معاني جديدة وظلت حية لم تُمُت يوماً. فأما السريانية والعبرية فقد استراحتا قروناً، ومن هنا حفظنا لنا المعاني الأصلية في كثير من الكلمات.

التأثيل علم ممتع. وسترى فيه الأعاجيب. لكنه علم عميق. ويقتضي من صاحبه أن يكون متواضعاً لا مكابراً. و«الذبابة» بالمناسبة موجودة بلفظها في السريانية والعبرية.

وكنت قد «فسبكتُ» مؤخراً بسطاً وردت فيه كلمة عزرائيل، و«عزر» بالعبرية معناها ساعد، وإيل عندهم لفظ الجلالة، فمعنى عزرائيل على هذا «مساعد الله». ولو فتحت لسان العرب لرأيت أن من معاني عزر بالعربية «ساعد»، ومثلها آزر.

وكلمة أخيرة لأصدقائي السريان: لغتكم جميلة، وصارت لغة عبادة، واللغة العربية شبعث حضارة وثراء، فاشكروا الله على أنكم تحمِلون لغتين: لغة مقدسة، ولغة حضارية.

وكلمة أخيرة لأعدائي الإسرائيليين: لغتكم جميلة ومقدسة، وقد أحبيتموها لغرض غير نبيل هو اغتصاب أرضي. سأحب لغتكم، وسأظل لكم من الكارهين. ولجدعون ليفي الصحفي الإسرائيلي الذي رفض الصهيونية والعنصرية ودافع عن حق الفلسطينيين عشرات السنين كلمة: لو أن كل فلسطيني صنع لقضيته ما صنعت أنت لقضيتنا لكنا بألف خير. بورك فيك.

المدرء والتقييم

قبل أزيد من خمس عشرة سنة دخلتُ في الإدارة، وكتبْتُ عقبئذٍ لصاحبِ لي رسالة قلت فيها: «إنني سقطت في الوحل». وما زلت أعالج من هذا الوحل كل نازلة وجائحة؛ على أنني أصبت منه رزقاً طيباً، جرى مجرى شوكولاتة سعاد حسني التي ساحت ثم راحت مطرح ما راحت. والمُدرء -الذين سأنتفي منهم عما قليل- كأخي الدِّين: همُّ بالليل ومذلةً بالنهار. لا مع سيدي الموظف بخير ولا مع ستي المدير الأعلى بخير. وليس أشد على المدير من التقييم السنوي.

وما كتبْتُ لك هذه المقدمة إلا اصطياًداً للكلمتين: المُدرء، والتقييم، وهما في زعم أهل «قل ولا تقل» خطأً. وأنا أقول بصوابهما. لا بل إنني أقول بصواب كل شيء يدرج على ألسنة الناس. وعندما كان كل من شدا نزرًا من العربية يكتب بابًا بعنوان: «قل ولا تقل» كان لي باب في مجلة بعنوان: «قل ما تشاء».

ما قال القائل «مدرء»، وعدل عن «مديرين» المقيسة، إلا وفي غريزته اللغوية ما يدفعه دفعاً إلى اشتقاق هذه الكلمة. نعم، كلمة «مديرين» على القياس. ونحن لا نجتمع المقيم على مقمء بل على مقيمين. ولكن مدرء تختلف، لا على مستوى الصرف، بل على مستوى آخر يهمله الصرفيون.

اللغة العربية تحب جمع التكسير حباً جماً: رأيتُ الناس في بعض بلاد العرب يجمعون السيارة على سياير، والإشارة الضوئية على أشاير،

والبنطلون على بناطيل. هذا الشغف بجمع التكسير موجود في العاميات وفي الفصحى القديمة والجديدة. وقد كنت أنا نفسي أخطئ من يقول مدراء حتى هداني الله بالناقة. فالناقة تجمع على: نوق، وأنوق، وأنوق، وأؤنق، وأئنق، وأيانق، وأنواق، ونياق، ونياقات. وليس في هذه الصيغ التي ذكرها اللسان جمع التصحيح: ناقيات (واستدركها عليه التاج). كل قبيلة اخترعت جمعًا، واختاروا التكسير.

ويخطئون من يقول (تقييم) بمعنى تحديد القيمة. ويريدونها تقويم. والواقع أن اللغة العربية الحديثة اخترعت كلمة تقييم اختراعًا لأن كلمة تقويم معناها تصحيح الاعوجاج، فكان جديرًا بالخروج إلى صيغة صرفية أخرى إيدانًا بالخروج إلى معنى آخر. والناظرون إلى اليائي والواوي لا يرون الخشبة التي في عيونهم، عنيت آلاف الجموع الشاذة التي تزخر بها المعاجم.

يريدون تثبيت اللغة. واللغة أشطر منهم، وهي تتغير وستظل تتغير وأنوفهم في التراب. عمل اللغوي أن يصف اللغة التي يستعملها الناس، وأن يؤلف قاموسه مما يدور على ألسنتهم، لا أن يجبر ألسنتهم على التحدث بما ورد في قاموسه. في كل شأن من شؤون حياتنا هناك رجعون وتقديمون. وفي شأن الفصحى عندنا رجعون وحائرون، ولم أجد تقديمين.

رسالة إلى مدقق لغوي

صُنْعُ جُرَّةٍ من تراب أسهل من صنعها من فخار مكسور. قد تكسرت قواعد النحو والصرف إلى غير رجعة، فلنَعُدْ إلى تراب اللغة لنصنع نحوًا جديدًا، بدل أن ننفق جيلًا أو جيلين ونحن نعالج قطع الفخار.

بذل علماؤنا الأقدمون جهودًا كبيرةً في النحو. واليوم يلقنها المعلمون للطلبة بطرائق شبيهة بطرائق القدماء، ولكنهم يلَوْنون التمارين بالألوان، «إجرين عوج لابسين بابوج». ويخرج الطالب من المدرسة وقد نسي كل قواعد النحو.

أقول قولِي هذا وقد كتبت في نحو اللغة العربية كتبًا ثلاثة جلوت فيها هذا العلم العتيق وصقلته ما استطعت. وثمة كتاب رابع في الطريق إلى النشر.

من الآن فصاعدًا سأحول جهودي إلى الهدم.

قد تطورت اللغة العربية كثيرًا وأصبحت أجمل وأوسع، وأكثر تعبيرًا عن مشاعرنا وعن معارفنا. باللغة العربية نكتب أجمل الروايات، وإليها نترجم كل ما نريد من أدب ومن علم. هي لغة تفيض بالحيوية. ولكن القيود التي يفرضها النحاة اليوم عليها تجعل الناس خائفين من التحدث بالفصحى، ويفتح الباب على مصراعيه للعامية.

أريد أن نُحوِّل جهودنا إلى المفردات، إلى إغناء لغتنا بكل ما يجعلها أقدر على التعبير. وأريد أن نتخفف من النحو. ستتحوّل لغتنا العربية من

لغة مُعرِبة إلى لغة غير مُعرِبة. ولن يرزأها ذلك فتيلًا. فالركن الأساس في اللغة المفردات، والقدرة على التعبير. ولغتنا عفية وقوية.

بزوال الإعراب عن لغتنا سيكتب الكاتبون أفكارهم بلا قيود. وسيحدث المتحدثون بالفصحى بانطلاق.

لي صديق يعمل مدققًا لغويًا، وله هوايتان: الأولى تصحيح أخطائي النحوية، والثانية أن يغير لي كلمة «بدون» واضعًا مكانها «من دون»، وسأرسل إليه رسالة هذا نصها:

أخي الكريم،

الشيخ غوغل ما ترك شيئًا إلا صنعه، ونحن نتنظر أن يصنع لنا حساء العدس في ليالي الشتاء. وقد فحص بعضهم في غوغل عن تعبير «بدون» في ثلاثمئة وسبعة وعشرين كتابًا تراثيًا، فوجد أنها وردت ألفين وخمسمئة وإحدى عشرة مرة. وإذا قلتَ لي إنه جاء في القرآن «من دون» فالمعنى في تلك الآية مختلف. وإذا أردتَ أن تخوض معي في معاني الباء ضمن درس معاني حروف الجر قلتَ لك: «انظر مليًا في الباء زائدة تر وجهًا».

ولا تتعب نفسك في نقل التنوين من الألف إلى ما قبلها «قليلاً/ قليلاً»، فقد طبع عبد السلام هارون شيخ المحققين كتب الجاحظ وأشرف على كل همزة وكل تنوين فيها، وقد جعل تنوين النصب فوق الألف. فأما عن تصحيحك أخطائي النحوية، فلك مني عليه الشكر الجزيل. ويعلم الله أنني رجلٌ لحانة لا أكاد أكتب شيئًا إلا وجدت أنا، أو وجدت أنت، فيه غلطة نحوية. والسلام.

ويل لكل همزة!

كان ينبغي أن أستسلم قبل عشر سنين. اليوم استسلمت. العارفون بي وبطريقتي في الكتابة بدأوا يحزرون طبيعة الاستسلام. وغير العارفين سيعرفون قريبًا.

قبل سنوات عقدت لزملائي في مؤسسة إعلامية تضم اهم وافهم الصحفيين العرب. موضوع الدورة «الهمزة». ليست الهمزة التي في وسط الكلام، وليست همزة شؤون وشئون ولؤلؤ ولآلئ. أبدًا. بل اسهل من ذلك بكثير. دورتي كان موضوعها الهمزة فوق الالف في اول الكلمة.

كنت أرى زملائي يغلطون فيها كثيرًا. فيكتبون مثلاً «إستقلال» بهمزة وحقها ألا تُهمز، و«انايب» بلا همزة، وحقها أن تُهمز. وهناك طبعًا إنَّ وأنَّ وأن. عقدت لهم دورة للهمزة الأولى فوق الالف فقط. وانطلق الزملاء بعد الدورة فرحين.. واستمروا في ارتكاب الاخطاء التي ظلوا يرتكبونها منذ الازل. ثم كأني ادركت ان الهمزة الافتتاحية تلك غير ضرورية.

لقد اسقطنا التشكيل في الجرائد من زمان، فلماذا لا نُسقط الهمزة الافتتاحية.

اليوم استسلم. وكما ترى فاني اسقط الهمزات من كتابتي. وبعض الهمزات التي سترها في مقالي سيبها أن برنامج مايكروسوفت اوفيس

يتكرم أحياناً فيضع همزة حتى لو لم اضعها انا، كما في كلمة أحياناً فانا
اكتبها بلا همزة ولكن بيل غيتس يتسلل الى السطر ويضعها دون ان اشعر.

التسهيل الاملائي يجلب معه تغييرات في الأسلوب. فاسقاط التشكيل
يجبرنا على تجنب المبني للمجهول كثيراً، فترانا نقول: «تم السماح» بدل
القول «سُمِحَ»؛ لان سمح بدون ضمة على السين تقرأ بوجهين. وقس
على ذلك أموراً كثيرة. لقد تغير اسلوبنا في الكتابة بشكل اكثر مما قد
يتوقعه المرء بسبب اهمال التشكيل، ويتغير اسلوبنا بقدر ما باسقاط
الهمزات الافتتاحية، فمثلاً عندما أقول لك «افتتح الشهر المقبل
سوبرماركتنا» قد تظن انني أمرك بفتتاحه. لذا فأنا أكتب «انا افتتح الشهر
المقبل سوبرماركتنا» فكلمة انا وضحت الامر. من شأن كل تبسيط لرسم
الكلمات ان يؤثر في الأسلوب.. ويجعله مطوطاً بعض الشيء.

شجعني على الاستسلام أربعة أشياء: أولاً، ان اللبنانيين ركبوا رأسهم
وصاروا يضعون همزات افتتاحية كلما وجدوا ان القارئ سينطقها، وثانياً،
ان المصريين، في كتب قديمة نشرت في النصف الأول من القرن العشرين
وصحّحها مؤلفوها الكبار، كانوا يسقطون همزات «إن وأن ولأن» حيناً
ويضعونها حيناً. يصنع ذلك عامل المطبعة ولا يؤاخذ المؤلف. ثالثاً، ان
اسقاط الهمزة يريح الطابع على الحاسوب كثيراً. رغم ان واحداً مثلي،
كتب وحرر بضعة آلاف من الصفحات وكانت همزاته في كل ذلك
صحيحة، سيجد صعوبة في اسقاط الهمزة. رابعاً، تلك التجربة التي
خضتها مع زملائي. فكانهم بعدم تجاوبهم مع ضبط الهمزة -رغم إقبالهم
على الدورة المذكورة واحتفالهم بها، وتقديمهم الوعود بانهم سيلتزمون

بوضع الهمزات في أماكنها- كأنهم قالوا: «ما اصعب الالتزام بشيء فائدته قليلة».

طريقة رسم الكلمات تؤثر في كتابتنا، والتأثير يمتد الى كلامنا المنطوق ارتجالاً. فنحن نتعود ان نكتب «جرى افتتاح» بدل «افتتح»، ثم ترانا في كلامنا نقول «جرى افتتاح». اللغة المنطوقة، وهي الأصل بلا شك، تتغير بتغير رسمنا لها بعض التغير. لم لا.

لقد غير الناس الرسم القرآني للكلمات منذ القدم، ومرجعي أبو بكر الصولي، المتوفى قبل أكثر من ألف ومئة سنة، فقد ذكر الامر رافعاً القداسة عن التمثيل الخطي للنص.

بذل جهد منظم مفروض من فوق في محاولة لاصلاح رسم الكلمات عبث. لكن، على كل معجم وكل مؤلف ان يتخذ لنفسه طريقة يجعلها منهجاً يلتزم به، ولننظر ما ستأتي به الايام.

تنبيه: في هذا المقال أسقطت الهمزات، إلا ما سبقت يدي وعيي إليه. وستجد في هذا الكتاب الذي أقوم على تحريره الآن مقالاً طويلاً تعمدت فيه دس أغلاط نحوية بالمثات، وسوى ذلك، فمواد هذا الكتاب مكتوبة بالفصحى المألوفة.

الكرايب

موقفنا ذليل تجاه الأشقر. سأعالجه بهدوء قدر استطاعتي، فالرصانة ليست من بضاعتي.

كان العربُ في أيام بني أمية، في الزمن الذي كان فيه يُحذّهم من الشرق الصينُ ومن الغرب فرنسا، يتغزّلون بالعيون السود، ويرون العيون الزرق قبيحةً. وهذا أبلغُ تعبيرٍ عن نسبة الجمال. وعن أن القوي يفرض معاييرهِ. عندما كتب الطبري تاريخه، كان أفضل كتاب تاريخ في الدنيا. وعندما وضع الخليل مُعجمه كان أكبر إنجاز لغوي في الكرة الأرضية.

كان كل فرد في أوروبا أجهل من كل فرد في العالم العربي - الإسلامي. والآن صار كل فرد أوروبي أفضل علمًا وتحضرًا من كل فرد عربي.

الفرد الأوروبي اليوم يحمل في وجدانه موقفًا من الأشياء يؤهله ببساطة لأن يصنع الحضارة، وأن يخلق الثروة. وآية ذلك أن ألمانيا تهدّمت تمامًا في الحرب العالمية الثانية، ولكنها بعد عشر سنوات قامت من الغبار لتصبح «أسطورة اقتصادية». فمن أين أتاه هذا العزم؟ ذلك شيء صار كأنه في جينات الإنسان الأوروبي.

نريد اليوم انتشال أنفسنا من الحمأ المسنون، دون خسران وجداننا العربي - الإسلامي. ونحن على حق في هذه وتلك معًا.

ستظل العيون الزرق في نظرنا أجمل من السود إلى أن نخلق حضارة جديدة.

لست مع فكرة تشييط حضارتنا القديمة. الأمر ليس كذلك. نحن مثل ذلك الدكان العتيق المليء بالكراكيب الذي مات صاحبه، وأراد ابنه أن يُحوّله إلى سوبرماركت رابح. فهل يتمسك بكل كراكيب أبيه؟

يكفيه أن يكبّر صورة المرحوم بطربوشه وقمبازه ويضعها في برواز لتعطي انطباعًا بالعراقة. ويكفيه أن يحتفظ بمفاهيم والده الأساسية مثل الأمانة والصدق في المواعيد والاستقامة. وبعد ذلك، فإلى المحرقة بكل الكراكيب.

مفاهيمنا الأساسية شبيهة جدًا بمفاهيم أبي طربوش «الأمانة والاستقامة ... إلخ»، وإلى المحرقة بكل الخرافات.

وفي الواقع: نحن متمسكون بالتفاصيل فقط، بالكراكيب.

يتندّر الأجانب بعبرة «إن شاء الله». ويرددونها مع ابتسامة خفيفة. يعرفون أن العربي إذا أراد أن يهمل شيئًا فإنه يلقيه على مشيئة الله.

العربي المعاصر تكفيري ومنافق وكذاب، ومتمسك بالخزعبلات، وليس مستقيمًا. إنه أقل الناس صدقًا. والنهضة بحاجة إلى أخلاق أولاً وعلم ثانيًا. وليس عندنا من ذينك شروى نقيير.

التراث السياسي الفلسطيني مليء بالكذب وخداع الشعب. والتدين المنتشر في فلسطين ليس صحوة إسلامية ولا سخام الطين، بل استغراق في التعبد لتجنب رؤية الوضع المتجهّم. في طبعتنا العلمانية نحن كذابون، وفي طبعتنا المتأسلمة كذابون.

عندما أجد شيئًا إيجابيًا سأحدّثكم عنه، «إن شاء الله».

الإرهاب النحوي

هم هناك. إرعايون، ليس عندهم أدنى ميل للتفاهم. الأبيض عندهم أبيض، والأسود أسود. يجوسون خلال محطات الإذاعة والتلفزيون، والصحف، ويعششون في المدارس والجامعات. عرفوا من النحو والصرف أشياء محدودة وثبتوا عليها. وكل من خالفها فهو أولاً جاهل، وثانياً فاسق يريد هدم الدين، وثالثاً ناقص؛ لأن من يخطئ في النحو والصرف ليس مكتمل الإنسانية، ورابعاً «ليبرالي جديد»، وربما من أعداء الأمة.

مشكلة هؤلاء النفر أنهم قليلو العلم، تافهون، قشريون، و... إرعايون، أي يستخدمون الرعب وسيلة في المحاججة. ومشكلة الشاب اليافع معهم أنه لا يجد بداً من الاستكانة. فمن هو حتى يقف في وجه ألفية ابن مالك؟ ولو عرف القارئ أنني أحد الإرعايين النحويين لضحك ملء شديقه، أو لتحير في أمره. وربما شجعه ذلك على متابعة القراءة.

لقد علّمتُ النحو والصرف، واشتغلت في الصحف والإذاعات والتلفزيونات طويلاً، وكتبْتُ في النحو والصرف كثيراً، لكن نشاطي الإرعابي كان مُسيّجاً بالتروّي، ومحكوماً بمساءلة النفس.

الدقة اللغوية مهمة، والنحوية أيضاً اليوم. وإذا وقعت على غلطة في النحو عند كاتب تسلل إلى نفسك الشك في دقة معلوماته. وإذا تنطّح كاتب لكلمة عتيقة فوضعها في غير موضعها واكتشفت ذلك زويت ما بين

حاجبيك وأسقطته من عينك دَرَكَةً. وإذا سمعت المراسل الصحفي يغلط في النحو شككت -قليلاً أو كثيراً- في دقته وفي ثقافته وفي الأخبار التي ينقلها. اللغة الصحيحة تزيد النص أناقةً، وترفع صدقيته. لكن الصحة اللغوية والنحوية عنصر واحد صغير. فكم نص صحيح فصيح رميته من يدك لأنه تافه!

نحن ندعو دعوة صريحة إلى تبسيط النحو، وإلى تخليصه من شوائب الدهور. وندعو إلى الإقرار بأن الكلام العربي مفهوم بتركيب الجملة وليس بضبط أواخر الكلمات. والبرهان هذا الذي تقرأ، فأنت تفهمه غير محتاج إلى الفتحة والضمة. ونطالب المشتغلين باللغة بأن يفهموا أن هذا المخلوق الذي اسمه «اللغة» يتغير مع الزمن، وأنه سيصبح مخلوقاً آخر بعد بضعة قرون، تمامًا كما تختلف لغتنا الحاضرة عن لغة الجاحظ. والنحو يتغير أيضًا: أين فاء السببية في كتابتنا المعاصرة، وأين أسلوب الشرط الجازم، وأين بعض أساليب التعجب (أترى صحفيًا أو روائيًّا اليوم يقول: أعظم بهذا الحدث!)؟

قد يأتي يوم يسقط فيه الإعراب سقوطاً، فيكتب الكاتب: «اصطف (اللاعبين) قبل المباراة»، ولا يجد من يرفع حاجبًا. وهي -بعد- عبارة مفهومة.

على أننا لم نصل إلى هذا. وجدير بالمرء أن يحفظ على لغته أناقتها وصحتها بحسب المعمول به. خير لمثقفينا أن يسايروا اللغة في تطورها لا أن يحاولوا نسف النحو، ويخوضوا في متاهة التحطيم. فمثلما ترفض اللغة الثبات على طريقة الجامدين، ترفض أن تتغير بأصابع الديناميت.

الترفق عنوان الثقة. وقد مرت بنا الدعواتُ إلى الحرف اللاتيني، وإلى العامية. فهل صنع أصحابها شيئاً سوى إثارة زوابع غير مثمرة؟ ذلك أن دعواتهم كانت متسرعة وقائمة على كثير من سوء الفهم والافتراضات الفجة.

فتحوا ذات يوم جريدة جديدة، وزرَّتُ صديقاً لي فيها فطاف بي في مكاتبها، قال: هذا قسم التدقيق اللغوي، وأردف مفتخراً: «عندنا خمسة عشر مدققاً لغوياً». قلتُ في نفسي: «كيف يمكن لصحيفة في بلد صغير أن يكون فيها ثلاثة صحفيين يغطون الشأن المحلي، وصحفيان للثقافة، وخمسة عشر إرغابياً؟ لا بُدَّ أن مستواها في الأرض». هو ذاك. هي تحترم النحو والصرف إلى حدِّ التقديس، وبالطبع على حساب المضمون.

فهل العرب كسالى؟ هل أهملنا تعلم قواعد لغتنا؟ أم لعلنا لا نملك من الذكاء ما يملكه صحفيو الغارديان التي سنحت لي زيارتها ولم أجد فيها مدققين لغويين، بل وجدت محررين وصحفيين؟ الواقع فيما أرى غير ذلك.

لقد قضينا مئة عام نلوم أنفسنا. وآن أن نلوم اللغة نفسها، وأن نتعقب المتشددین بالتقريع، وبالتأكيد على أهمية المعاصرة، وعلى أن سُنَّة التغير تسري على اللغة مثلما تسري على كل شيء.

لا بد للمجتمعات العربية من أطراح ثقافة الخوف. ولا بد من تعليم يتيح للطلبة نصوصاً جديدة، ويُدرِّبهم على قواعد النحو والصرف بأبسط الأشكال. ولا بد أن نعتز بأن كثيراً من الضوابط ماتت في السلائي، ولم تعد مهمة لفهم المعنى.

فأما تجميد اللغة لخدمة الدين، بدعوى ألا تصبح لغة القرآن الكريم والحديث الشريف لغةً مختلفةً عما نتكلم اليوم، فهذا شيء لم نستطعه حتى في العصور الإسلامية الباكرة. الواقف في وجه السيل إما أن ينحرف، وإما أن يبلل ملابسه، حدًا أدنى. وقد تعهّد ربُّ الكون الجليل بأن يحفظ كتابه، وصدق الله وعده. وآن لنا أن نصدقه، وألا نحاول مدّ يد المساعدة بطريقتنا التجميدية.

فهل نحن من دعاة العامية؟ لا، بل نحن من أشد أنصار الفصحى. ولهذا بالضبط نريد تبسيطها وتيسيرها. نريدها أن تبقى أداة ثقافية لأربعمئة مليون ناطق بالعربية. ونريد أن ينتفع هؤلاء جميعًا بكتاب يصدر في مصر أو في المغرب أو في العراق، ونريدهم أن يتفاعلوا كأمة كبيرة، لا أن يسعى فيما بينهم التراجمة كما يسعون فيما بين وفود الاتحاد الأوروبي في كل مؤتمر.

أعود إلى الإرعاب النحوي. من أهم العناصر في تكوين الإرعابي النحوي قلة معرفته وضعف قياسه. هو جامد كالصخرة التي تسدُّ باب الكهف. هو من أهل الكهف. صحا على عالم قد تغير فأصر على استعمال عملته العتيقة. هو شخص طيب، يريد الحفاظ على لغتنا الجميلة، ويحن إلى الماضي لأنه لا يريد التفكير في المستقبل. ولو اتسع علمه ليشمل لغة أخرى، وليشمل - قبل ذلك - تاريخ تطور العربية نفسها لأعفانا من كثير من هذره.

خير ما نصنعه أن نقرأ كثيرًا، وأن نكتب كثيرًا، وأن نستعمل لغتنا كثيرًا. هذا يحييها ويجعلها غنية بالمفردات.

خزانة مليئة بالجثث

أنظر بفرح إلى قلم الحبر الجاف الذي استهلكته حتى النهاية وهبط الحبر في داخل أنبوتته حتى القاع، وأرميه في سلة المهملات وأنا في منتهى السعادة. كيف لا، وهو القلم الذي انتفعت بكل ما فيه بعد مئة قلم سبقته ضاعت كلها مني وهي في مقبيل شبابها. ما أكثر التبذير في هذا العالم!

وأمسك قلمًا جديدًا وأيتهل قبل أن أكتب به ابتهالاً: «رب ضع كل العراقيل الممكنة في طريق هذا القلم إن خطر بباله أن يكتب شيئًا عن اللغة والنحو والصرف».

قد أفنيْتُ من العمر سنوات كثيرة وأنا أفرغ غيظي من تعقيدات مفتعلة في لغتنا العربية بنشر كتب في النحو والصرف. وقد آن لهذا الفارس أن يترجّل. آن لهذا القلم أن ينصرف تمامًا عن الكتابة «عن» اللغة، وأن يكتب كل شيء آخر مستعملًا هذه اللغة، اللغة العربية، التي أحبها مثلما أحب أمي وأبي.

لكن دعائي لم يُستجَب.

- بدأت مصيئتنا بالخليل بن أحد الفراهيدي. فهذا رجل رياضي. كتب معجمه المشهور العين بحسب معادلة رياضية؛ إذ رصد تقاليب الحروف فنفى منها المهمل وأخذ المستعمل. كان يعيش في عصر رياضي، ففي زمنه (وزمن تلميذه سيبويه) قاس العرب محيط الكرة

الأرضية. وفي ذلك الزمن أعطى العرب العالم اللوغاريتمات (الكلمة مشتقة من اسم الخوارزمي)، وأعطوه المادة التي درستها في مدرستك الأجنبية باسم «الجبر»، وقد اخترعها الرجل نفسه في كتابه الجبر والمقابلة. وأستطرد هنا فأقول لك: «إن أساريري نطقت بالبشر وأنا أقرأ كتاب بول بارسونز مئة فتح علمي ... فقبل أن يحدثني بارسونز عن غاليليو وكوبرنيكس قرر أن العرب في عصر الخوارزمي وضعوا الأساس الأول للتفكير العلمي الصحيح» (انتبه: لم يقل الإغريق بل قال العرب)، وأزيدك أن بارسونز قال ذلك عن العرب في الصفحة الأولى من كتابه.

كانت تجتاح تلك «البغداد» حمى الرياضيات، ترجمت إقليدس واستوعبت علوم اليونان، ومضت تضع كل شيء في قالب الرياضيات. وجاء أهل النحو والصرف فجذبوا اللغة العربية من قرنها جذبة ألحقتها بالأرض. قالوا لها: «ومن أنت حتى لا تقعدي في قالب رياضي؟ ألسنت لغة مُحكمة مقدسة؟ ألسنت مضبوطة؟ فانضبطي. اقعدي هنا ولا تتحركي. هيا قولي وراءنا (أنتِ اعمَيتِ، تَعَمَّيْنِ، اعمَيتِ)» فقالت: «هذا ليس مني». فقالوا: «يا بلهاء، هذا تصريف افعَلْ من الفعل الناقص المعتل اللام بالياء». فقالت العربية: «برئتُ من هذا». وظلوا يضربونها بالعصا. وظلوا يقولون افعولن وافعنلن حتى صاح الديك.

بكل بساطة وضع أهل الصرف ثلاثة أحرف: فاء، عين، لام تجمعهن كلمة (فعل). وقالوا للعربية: «اقعدي هنا». وكلما جاءتهم كلمة لا تقعد، أقعدوها بالقوة. كان إنجازاً رياضياً بارعاً. ولكن اللغة أوسع من ذلك وأجنُّ من ذلك.

علم الصرف العربي ليس بحاجة إلى إصلاح، هو علم مكتمل. هو كعلم الخيمياء، مكتمل وفاسد بالجملة. وإكرام الميت دفنه. فلماذا لم يدفن في الألف ومائتي سنة التي مضت؟ ربما لأن خزانتنا المعرفية عامرة بالجثث فلا نعرف من أين نبدأ.

ولأن دعائي لم يُستجب، فإنني سأتناول جثة أخرى. لي بها صلة أحسن مما لي بعلم الصرف. فقد كنتُ في زمن بائد بثثُ في إذاعة لندن أيام كنت أعمل بها نحوًا من ثلاثين حديثًا في علم العروض، بقي منها عشرون حديثًا تفضّل بعضهم فرفعها على اليوتيوب. وقد تعلمت العروض من ثلثي صفحة. فتحتُ معجمًا كان رائجًا في زمننا اسمه المنجد على حرف الشين فإذا صفحة قد خُصص ثلثاها فقط لأوزان الشعر. فمن هناك عرفت الموازين وتوكلت على الله. كنت في نحو الخامسة عشرة. ولم أحتج بعد ذلك إلى شيء في علم العروض، واتّزنت لي الأشعار. وكان إلياس فرحات الشاعر المهجر أبرع مني، فلم يعرف عن العروض شيئًا قط، ومات على ذلك مخلّفًا ديوانًا كبيرًا موزونًا أحسن وزن.

فإذا عرفت بعد ذلك أن علم العروض لا يتسع له مجلد من ستمئة صفحة فقد عرفت ما أعنيه بكلمة «جثة». والمجرم مرة أخرى الخليل بن أحمد. لقد رسم هذا العالم الجليل والرياضي الفذُّ للعروض دوائر، وحشر العروض في معادلات رياضية. وكلمة إنصاف لشيخنا الجليل، أحد كبار العقول في الثقافة العربية: لقد استنبط الخليل هذا العلم استنباطًا، وقنن الأوزان تقنيًا جميلًا، لستُ أشكُ في ذلك طرفة عين. لكنه قنن كثيرًا، وابتدع بدعة الدوائر العروضية التي فيها المهمل

والمستعمل، بالضبط كما فعل في كلمات اللغة في كتاب العين. هذا رجل يحب الابتداع ولا يسلم بما هو موجود. قد رأى الأبجدية العتيقة (العربية والعبرية والآرامية) تسير على خطى (أبجد هوز حطي كلمن) فقال: لا والله، هذا لا يكون. لا بد من أساس علمي. فرتب الأحرف بحسب صدورها من عمق الحلق حتى أطراف الشفتين بادئا بحرف العين. كان الخليل هكذا، يريد لكل شيء أساسا علميا.

وجاء الجاحظ فاشتكى شكوى مَرَّة من علم العروض وتعقيداته.

مشكلتنا مع اللغة العربية أننا نقدسها. السنسكريتية مقدسة، فأين هي الآن؟ لغة بائدة. ولو فتحت فيسبوك وقرأت للمغاربة وللمصريين وللشوام وللخليجيين، فقد يقع في روعك أن اللغة العربية ستصبح قريباً ثلاث لغات. ولو فتحت ما على الرف من روايات فسوف تجد أن أسطر الحوار بدأت تميل إلى العامية ميلاً شديداً، وأن كلمات عامية كثيرة أخذت مكانها في السرد نفسه. هذا تطور تاريخي لا يد لنا فيه. ولم يستطع مجمع لغوي في الدنيا أن يصنع لغة. الفصحى ستكون أجمل وأقدر على الاستمرار إذا حررناها من القوالب الرياضية.

الحرف العربي والانتقام من الماضي

أراد مصطفى كمال أتاتورك أن يطور التعليم في تركيا، فاستضاف التربوي الأمريكي جون ديوي ثلاثة أشهر في عام ١٩٢٤. قيل: إن ديوي هو الذي أشار عليه باطّراح الأبجدية العربية لأنها صعبة التعلم، ولكنني من قراءة بعض ما كتبه ديوي من ملاحظات ذكية وعميقة أشك في أنه أسدى تلك النصيحة. وأعتقد أن أتاتورك ألغى الحرف العربي (وبعد أربع سنوات من مغادرة ديوي) لتعميق القطيعة مع الماضي، ولجعل التراث العثماني المكتوب مغلقًا أمام الجيل الجديد. هي خطوة ذكية من أتاتورك، ولكنها غير حضارية. فالغرض هنا سياسي وثوري - بمعنى تحطيم التمسك بالماضي - وليس تسهيل الكتابة، ولا تعليم الصغار اللغة التركية بسهولة.

ديوي كان يعرف ولا شك أن مواطنه الأمريكي بنجامين فرانكلين كان يريد تغيير الإملاء الإنجليزي؛ لأن هذا الإملاء غبي. ولعله أيضًا سمع بأن الأيرلندي برنارد شو كان مشتمرًا من الإملاء الإنجليزي ويسعى لنفسه نسفًا. وكلا الرجلين وضع مقترحات عملية في هذا الصدد، ولكن أهل الإنجليزية على جانبي الأطلسي تمسكوا بإملائهم؛ لأنهم لا يريدون القطيعة مع الماضي، أو كسلًا.

إملاؤنا العربي سهل جدًا بالمقارنة مع الإنجليزي. هو ليس في سهولة الإملاء الألماني. فأولئك القوم، على صعوبة قواعد لغتهم، مستمتعون

بإملاء سلس يتقنه الأجنبي بسرعة. ويمكن لإملائنا العربي أن يصبح أسهل لو بذلنا جهدًا في إصلاح كتابة الهمزة. وأما الحجة القوية التي يسوقها القائلون باصطناع الحرف اللاتيني فهي أنه ييسر بيان اللفظ بالحروف دون الاضطرار إلى التشكيل. وهذه مسألة فيها نظر. فالكلام العربي فيه اختلاج شديد في الحروف الصوائت. ومنذ الجاهلية كان في العرب من يكسر أول المضارع ومن يفتحها، وقد قرئ القرآن بلهجات عدة. وكانت قريش تسهل وتميم تهمز. والعريية الحاضرة، وأشهر القراءات القرآنية أيضًا، تتبع همز تميم لا تسهيل قريش. هذا موجود كثيرًا في الفصحى وموجود في العامية أكثر. هذه طبيعة لغتنا. ونحن نحباها كما هي، ونرفض حذلقات جماعة «قل ولا تقل» وسماجتهم.

العبري يكتب بحروفه، والكوري بحروفه، والياباني بالحروف التي ورثها عن أجداده. ونحن نكتب بحروفنا، ونريد أن نكون متحضرين على طريقة الأمريكان والإنجليز الذين حافظوا على الماضي، وليس على طريقة أتاتورك الذي أراد الانتقام من الماضي.

النحو: أتركوه ولا تصلحوه

قالوا: تيسير، وقالوا: تسهيل، وقالوا: بل الضبط المطلق. وبعضهم قال: العامية، وبعضهم قال: لا يهمني الأمر كله. ونقول: لنا في هذا كله كلام. وكلامنا سيكون مزعجاً لمعظم الفئات المذكورة أعلاه.

فهل كان العرب في العصر الأموي ينطقون بالتشكيل في أواخر الكلمات: قليل منهم، ربما في بعض البوادي. في بداية العصر الأموي: كان عبد الملك بن مروان يجهد نفسه في اجتناب اللحن. وكان ينجح لأنه لزم القرآن والعلوم الدينية مدةً في شبابه الباكر، ولم يغلق المصحف إلا عندما أتمته الخلافة. وابنه الوليد كان لحانة يخطئ في التشكيل. فكيف والوليد من الأسرة الأموية القرشية، وكيف وهو مولود بعد وفاة النبي بأربعين سنة فقط؟

لا نريد أن نقتبس بضع عشرات من الأمثلة من العصر العباسي كما تفعل الكتب التقليدية. نريد أن نطمئن إلى أمور، ونمضي. فقط نذكر لك من الحقبة العباسية أن علماء البصرة والكوفة كليهما كانوا يحتكمون إلى بعض الأعراب في الصغيرة والكبيرة من المسائل. واضطروا حتى في تلك الفترة الباكورة جداً من حياة «علم» النحو إلى أن يختلفوا اختلافات ذريعة. واضطروا إلى أن يصنعوا هيكلًا ضخماً من القواعد المتشابهة، مستعصياً كل الاستعصاء على الفهم، لكي يحتوا الجوازات المختلفة. وجاء أول كتاب حقيقي في النحو، وهو كتاب سيبويه المسمى الكتاب، بالغ التعقيد؛ لأنه أراد أن يفسر أساليب كثيرة ينقض أحدها الآخر.

ربما كانت اللغة العربية مُعرَّبةً على ألسنة كثيرين من عرب الجاهلية. لكن الإعراب اضمحل. (ونقصد بالإعراب تشكيل أواخر الكلمات بالضممة والفتحة والكسرة أو تغييرها بالياء والواو وما إليهما). ونعم، لم يضمحل الإعراب من اللغة الألمانية: ترى الطفل الألماني اليوم يُعرب كلامه، ويتعلم الكلام مُعرَّبًا من الطفولة. لغتهم الألمانية استقر لها إعراب سلس، وليس فيه تعقيدات إعراب العربية كما ورثناها من سيبويه، فظل موجودًا. عاش إعرابهم ومات إعرابنا على الألسنة. فماذا تريدني أن أصنع لك؟ تريدني أن أعود إلى عصر سيبويه وأُعرب إعرابًا صحيحًا؟ هأنذا أفعل في كتابتي، وكان مارون عبود شيخ شيوخ النقد يفعل ذلك في كتابته. ولكنه كان يتكلم في غرفة الدرس وخارجها بالعامية، وكذا كنت أفعل عندما كنت أُلقي دروسًا في النحو على طلبة الإعلام في الجامعة. كنت أتكلم العامية هربًا من الافتعال والتصنع وثقل الدم. وكنت أقول لطلبتي: «أنتم مضطرون للفصحى المنضبطة نحويًا في عملكم الصحفي المقبل، أعانكم الله».

وقرأنا لأهل التيسير النحوي كتبهم. وحاولنا أن نساهم في هذا التيسير رافة بطلبتنا لا إيمانًا بأن هذا هو الطريق المناسب للمئة سنة المقبلة. جمعت ما يلزمنا من النحو في كتيب بحجم جواز السفر (مساحة وُسْمَكًا)، وجاء على صغره مختلفًا عن الكافية والألفية اختلافًا حقيقيًا، فهو يصف العربية المعاصرة، وهو أيضًا يستشهد بنحو سبعمئة مثال من الجمل التي تسمعها في الراديو أو تقرأها في الجريدة. وأنا فخور بهذا الكتيب، واسمه موجز النحو. لكنه ليس المنارة إلى مستقبل النحو العربي. هو مصباح ينير للصحفيين مواضع أقدامهم لمرحلة معينة.

مات الإعراب على الألسنة قديمًا، وتمسكنا به لأننا دخلنا في ثلاثة
الموتى ألف سنة. وعندما صحونا في أواسط القرن التاسع عشر اتخذنا
طريق التقليد. أردنا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء، إلى الوراء بما
يكفي لكي نعيش عصر المجد والقوة، وعصر الأدب الجميل والقوي:
أدب الجاهليين الفطري وأدب الأمويين الذي يفيض حيوية بما فيه من
استحضار للقيم الجاهلية وللمفردات القبلية التي بدأت تنقرض سريعًا
بفعل الحياة العربية الجديدة. المثلث الأموي: الفرزدق وجريز والأخطل،
كان مثل مثلث لعبة البلياردو الخشبي، يحضن كل الكرات داخله. وقد
حضن هؤلاء الثلاثة المفردات القديمة، وأثاروا زوبعة نقدية ولغوية،
واتخذهم النحويون واللغويون أساسًا ومنبعا لاستقاء الأمثلة، أصبحوا
عمود ما يسمى عصر الاحتجاج، وكان معهم شعراء بدو آخرون
كذي الرمة والعجاج ورؤية وشعراء من الحضر كعمر بن أبي ربيعة
وعبيد الله ابن قيس الرقيات. وجاء الكميّ والطرمّاح متأخرين قليلًا
وكانا متهمين في طريقة استخدامهما للمفردات البدوية.

بعد وفاة المعري (٤٤٩ هـ) دخلنا في الغيبة الأدبية، لكن استمر
التمسك بالنحو كما تركه النحاة القدامى. وأغرقت الدارسون بالشروح.
لكن الناس ظلوا فاقدين للإعراب.

والآن مضى قرن على العصر الذهبي، عصر أحمد شوقي ومطران
وحافظ، والبارودي قبلهم.

تم إحياء الأدب إحياء رجوعيًا وسائر شوقي عصره وجاء شعره
سياسيًا ووطنياً وإسلامياً وفرعوتياً، وكان ذا شخصية بارزة في شعره،

وتغزل بخفة ظل، ووصف الخمر وصفًا مبتكرًا. كل ذلك في قوالب القدماء النحوية واللغوية والشعرية.

وعاشت صحافتنا في عصر الإحياء عيشة أدبية. كانت -على الطريقة الفرنسية، ربما- صحافة أدب وخبر. ومات الأدب فيها بالتدريج، وذهب إلى المجلات. والآن صارت صحافتنا كلها صحافة أخبار. وماتت المجلات.

وظل الإعراب موجودًا. حافظت عليه بعض المنابر الإعلامية بشدة: ومنها مثلاً محطة البي بي سي العربية (منذ ١٩٣٨). كان العاملون فيها يترجمون الأخبار كلمة كلمة عن الإنجليزية، وكانوا بعد ذلك يغردون في برامجهم بالفصحى الأدبية. ولم تستطع الإذاعات العربية الرسمية مجاراة البي بي سي دائمًا. وحتى البي بي سي فعندما بدأت تركز على استقاء الأخبار من مصادرها العربية بدأت تفقد ضبطها النحوي. بدأت توظف الصحفيين لا المترجمين. وقد عملتُ في راديو البي بي سي. وها أنا أكتب إليك بلغة فيها تقعر في الأسلوب لا يخفى عليك، أراني مُوزَّع النظرات بين سيويه العتيق الذي في داخلي يُملي عليّ أن أجاري الأساليب القديمة، وبين مقتضيات التعبير السلس البسيط. أتباهى باصطناع اللغة العتيقة، وأفيء إلى العقل فأكتب بأسلوب سهل، هو في الواقع سهل عليّ أيضًا، ولستُ أستعمل الأساليب القديمة إلا بقدر من التكلف يزيد وينقص.

في السنوات العشر التي قضيتها في لندن بدأ يتوافد علينا الموظفون الصحفيون. وحتى أنا أصبحت صحفيًا وكانت لي لقاءات إذاعية صحفية كثيرة.

العمل الصحفي يجعل المرء يعالج اللغة علاجًا حيًا. ويجعله ميالاً إلى تطويرها وتبسيطها.

لكن، كنّا ظللنا، وحتى يوم الناس هذا، نستعمل الفصحى المشكّلة. وسأفاجئك أيها القارئ بمطلب رجوعي. إنني أطالب اللغة العربية بأن تستعيد آلاف المفردات العتيقة وتحييها. أريد أن يعرف العربي أن «الأزرد» هو المسن الذي فقد أسنانه، وأن «الأهتم» هو من كُسرت أسنانه كسرًا، ولعلي أريد من العربي المعاصر أن يضم إلى قاموسه كلمة «الأجلع» وهو الشخص الذي لا تنطبق شفتاه كل الانطباق فتظل أسنانه بادية ما لم يبدل جهدًا في إطباق فمه. وكان الخليفة موسى الهادي (الذي سبق هارون الرشيد) أجلع. وقد وُكِّل به أبوه الخليفة المهدي خادماً يلازمه ولا يزال يقول له: «أطبق موسى، حتى لقد لُقِّب موسى الهادي «أطبق موسى»».

وقد استفادت مجامعنا اللغوية -وأحسنها أثرًا مجمع القاهرة- من اللغة القديمة في مجالات الطب والفلسفة والموسيقى ومجالات أخرى شتى، ووضعت فيها معاجم اختصاصية مهمة.

أريد للغتنا أن تصبح أغنى. لكنني بالطبع لا أطلب نقل مخصص ابن سيده إلى المعجم الجديد. وأريد لنا أن نكون نشطين علميًا فنأخذ بكلمات العلوم من اللغات الأخرى أخذًا ذريعًا، ونساهم بكلمة أو كلمتين. وأريد أن نولد كلمات جديدة، وألا نقف بالمرصاد للصحفيين عندما يؤلّدون كلمات جديدة مثل الاصطفاف والاستحقاق وبامتياز. فهم يترجمون مفهومات أجنبية إلى العربية. سأظل ممتعضًا من كلمة «مقاربة» إلى ما شاء الله. ولكنني لا أنتقد من يستعملها.

أريد لمفردات هذه اللغة أن تنمو؛ لأن نموها نمو للعقل وللعلم، وأن تستعير من العاميات كثيرًا، وأن تأخذ من اللغات الأجنبية كثيرًا؛ لكي يكون كل العلم المتوافر عند الأمم الأخرى متوافرًا لنا بلغتنا. وأريد أيضًا أن نتعلم الفوارق بين الصفات بكلماتها العربية: فـ «الأجلح» هو الرجل الذي سقط شعره من جانبي الرأس، وأما «الأصلح» فهو من سقط الشعر من وسط رأسه ومن جانبيه جميعًا. وأصحاب علي كرم الله وجهه يصفونه بالأجلح، فهي صفة مستحبة عن الصَّلَح. وعمومًا - وحتى نرضي السنة والشيعه - فقد كان عمر وعثمان وعلي جميعًا ممن فقدوا شعر الرأس؛ وصِفهم كما شئت بحسب مذهبك.

وبعيدًا عن الأجلح والأجلح - أراك كرهتني أيها المعاصر لما أجشمتك! - نبقى في النحو.

قد طُفْتُ بك في دنيا الأدب ولغته، وعليّ أن أذكرك بأن لغة القدماء في بيوتهم وأسواقهم لم تكن لغة أبي تمام، ولا لغة الفرزدق. وهنا أقف وقفة كي أصف لك كيف تعامل اللغويون والنحاة العرب والمستعربة في القرون الأربعة التي تلت الإسلام مع اللغة العربية.

قدسوا القرآن واستقرت لديهم نسخة منه ثابتة ثباتًا طيبًا، رغم «القراءات». وظلت لغة القرآن بمفرداتها ونحوها المقياس الأكبر. ورغم غمزات المعتزلة وتنقيسات الزنادقة استقر في الأذهان أن القرآن بكلماته هو كلام الله. وغدا أي نقاش في هذه المسألة طريقًا سريعًا إلى النطع، وهو البساط الذي يوضع تحت من يراد قطع رأسه. وقد أدب المهدي والرشييد الناس بالسيف. ليس من فرط إيمان الرجلين فحسب، وكانا

مؤمنين، بل أيضًا لأن الخلافة منصب مقدس، ولأن الرجلين ينتميان إلى بني هاشم ويستمدان الأحقية في الخلافة من هذا النسب. فمن مصلحة الحاكم المطلق المستند إلى هذا النسب ألا يمس أحدُ قداسة القرآن.

عرفنا ناقلين لهذه القداسة المطلقة: رجالاً من البدو ذوي الفطرة التي لا تستسيغ الحكم المطلق كثيرًا؛ كأنما قالوا لأنفسهم لغة القرآن عربية جميلة وقوية وحلوة، تمامًا مثل لغة قبيلتنا؛ ورجالاً من المستعربين الذين لمحووا البريق الخابي للحضارة الفارسية المغلوبة. والذي عايش حضارتين يكون عقله أنقد من عقل من عايش حضارة واحدة. ولكن كثر السنين ثبت القداسة الحرفية للقرآن.

أكتب هذا ولا أبدي رأيًا شخصيًا في القداسة الحرفية للقرآن لسببين: أن رأيي ليس مطلوبًا هنا، وأن إبداء رأي في هذه المسألة يخرج بذهن القارئ الكريم من مجال فهم نظرة أولئك الأقوام إلى مجال محاسبتي، وفي هذا تشيت.

لخدمة القرآن وتفسيره استعان الفقيه بالشعر الجاهلي. وأما الشاعر واللغوي فإنهما رأيا في القرآن القمة العظيمة للغة العربية، وبدءا يريان اللغة العربية تحت ضوء مختلف. فهي ليست لغة تنفعنا في التفاهم، بل هي «اللغة الشريفة». نرى ابن فارس في معجمه وفي كتابه الصحابي يقدس العربية تقديسًا. لم يكن أحد مثل الجاحظ، خفة روح وموسوعية واقتدارًا، ورغم ذلك فهو لم ينتقد القداسة الحرفية للقرآن، وإن قال بالصرفة. وعلينا أن نتظر قرنًا ونصفًا لنسمع أحدًا نقدد الحرفية، وجاءت منسوبة للمعري عندما سُئل عن بلاغة القرآن فقال: «إن الألسن صقلته

في المحارِب أربعمئة سنة». فهو يعيد بلاغته إلى تعود الناس على آياته وتكرارهم إياها إلى حد أنها صارت المقياس.

ورغم الإقرار شبه المطلق بالقداسة الحرفية للقرآن فإن الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة لاحظوا أن القرآن لا يحتوي على كل المفردات. قالوا: «إن القرآن ليس كتاب لغة»، وكانت اللغة في عُرف ذلك الزمن تعني المفردات. إذن فماذا عن المفردات الأخرى؟ هي أيضًا شريفة لأن اللغة العربية كلها لغة شريفة. وبما أن القرآن يحترم اللهجات العربية الأخرى، وقد زعموا أنه احتواها ضمن قراءاته المختلفة، فإن الأساليب الأخرى بما فيها من انحرافات نحوية هي أيضًا مقدسة. كل كلام العرب الأقحاح مقدس.

أنفقت عريئة القرون الأولى بعد الإسلام عمرها في أحضان القداسة. وجاء الفرس فأمعنوا في تقديس العربية مثلما يمعن كل أجنبي في تقديس لغة الغالب.

وقد رأيتُ في زمني عربًا تعلموا الإنجليزية وقضوا زهرة شبابهم وثمره كهولتهم وهم يحاولون إتقانها والتفوق فيها على أهلها، ورأيتهُم يفوقون أهل اللغة في تحريهم «الصحة» والدقة، وفي تثريبهم كل من يخرج عن الأساليب «المستقيمة».

يلازم تقديس اللغة تجميدها كما يلزم الزيت الزعتر. فماذا فعل بآلاف الشواذ؟ نضع لها آفاقًا من القواعد؛ لأن اللغة الشريفة لا تعترف بالشواذ. وهكذا ولد النحو العربي مُثَقَّلًا بالقواعد الكثيرة.

لم تنكسر هذه الدوغما أبدًا. حتى اليوم لم تنكسر. وحتى في عقلي أنا، وتراني أصفها بالدوغما، لم تنكسر. تجدني أعيد قراءة ما كتبتُ من أسطر خوفًا من الوقوع في خطأ نحوي. النحو العربي مقدس وكفى.

فهل في هذا ما يعيق الطلبة في مدارسهم، ويشغلهم عن الخوض في العلوم المختلفة؟ بلا شك. درس القواعد في المدارس هو قطعة من العذاب. يستطيع بعض الطلبة من ذوي الميل إلى الرياضيات، ثم يجدون أنه قليل الفائدة أصلًا.

وهل يعيق النحو المتكلمين بالفصحى؟ يعيقهم جدًّا. ويُعْطَلُ تفكيرهم. ويجعلهم يتأثأون ويجاهدون في إقامة الجملة نحويًا، ويسلكون في سبيل ذلك مسالك شتى: فقد يطيّلون الكلام، وقد يقفون في غير مكان الوقف، وقد يستغنون عن فكرة مركبة في سبيل النجاة من حفرة نحوية. خير لنا أن نغني اللغة بالمفردات المفيدة من إضاعة الوقت في النحو الذي لم تستطع ألسن العرب المحافظة عليه منذ مئات السنين إلا تحت عصا القداسة الحرفية.

عندي غيرة على العربية؛ ليس لأنها لغة شريفة، بل لأنها لغة مفيدة، ولأنها لغتي. ولا سبيل إلى نهضة عربية بلغة أجنبية.

المعلومة ليست فاقدة اللون والطعم والرائحة. المعلومة ملونة بلون بلدك. ونهر بَرْدَى أهمُّ لابن دمشق من نهر الأمازون. وكل معلومة صغيرة عنه تهم ابن دمشق، ولن توردها الموسوعة البريطانية. والذي يأتيك بدقائق المعلومات عن محيطك هي لغتك. ولغتك بحاجة إلى عنايتك

بها بدلاً من اعتنائك بجذتها العتيقة المتوفاة. وقيل: «كلب حي خير من أسد ميت».

عندما تبدأ النهضة المنشودة لا بد لهذا العالم العربي المصبوغ بلون الصحراء الأصفر، لهذه البقعة الجرداء الفقيرة البخيلة من الأرض، من أن تُحرث بعزم كبير كي تخرج قوتاً يدرأ الجوع. لن يستطيع العرب شراء السيارات الفارهة من الأجنيبي، ولن يستطيع أثريائهم سرقة أموال الناس بمساعدة الحكام لكي يتنعموا ببعضها ويرسلوا معظمها إلى الخارج. سوف يضطر العرب - بمساعدة الوعي الجديد الذي استحكم في نفوسهم - إلى الدخول في مرحلة تقشف وتنمية. وفي هذه المرحلة يجب أن يتعلموا، ومهما قيل عن التعليم المباشر: التعليم الصناعي والزراعي والتقني، الذي من شأنه أن يعطي نتائج سريعة، فإن التعليم العميق مطلوب لتوفير عقول إدارية وقيادية ذات رؤية. هذا لن يأتي إلا من الثقافة. ولا تزال العربية الفصحى الأداة الأهم لنقل هذه الثقافة. وكلما اتسعت رقعة الناطقين باللغة ازداد الانتفاع بالنتائج الثقافي. فالكتاب الذي يطبع في المغرب سيفيد المصري والأردني والسعودي، والمؤتمر الذي يعقد في لبنان سيفتح أفقاً لأربعمئة مليون عربي وليس فقط لخمسة ملايين لبناني. وقل مثل هذا عن الإعلام، وعن السينما والأدب. ستدخل العامية كثيرًا. ولكن المغربي والمصري واللبناني سيحرصون جميعًا على انتخاب المفردات والتعابير العامية التي يفهمها كل العرب. العاميات تتلاقح وتشذب، وترحف على الفصحى ليس لافتراسها، بل لتكون جزءًا منها.

وستنظر هناك عاميات كثيرة. وستدخل كلمات كثيرة منها إلى الفصحى ثم تخرج بعد سنوات، وستدخل كلمات لتبقى. مسرحية مدرسة المشاغبين وحدها أدخلت إلى الفصحى عديدًا من التعبيرات التي صار كل عربي يعرفها بل ويستعملها. مات منها كثير، فلم يعد يفهمه إلا الكهول الذين ضحكوا لعادل إمام في تلك الحقبة، وبقي بعضها.

لن يقف في وجه العاميات شيء، ولن تموت الفصحى.

والنحو؟ لا أستطيع تقديم ضمانات بشأنه. لكنه بصورته الحالية عقبة. ولن نتجرأ عليه في العقود المقبلة. فالمناخ الديني الذي صاحب الربيع العربي، وهو مناخ يعبر عن وجدان الشعوب، جبان أمام المسلمات. والمجامع اللغوية لا تفكر مثلي. وهي تقليدية وتنقصها الجرأة. ولعل الحل يأتي من الصحفيين الذين سيكسرون تلك القواعد النحوية التي ليس من ورائها فائدة، سوى ارتزاق بعض الأساتذة من تدريسها.

سنتخفف من بعض المثني، ولكنه سيبقى بقدر ما هو مفيد. وهو باق في العامة أيضًا ومفيد. وسترك التشكيل كله فهو لا يفيد شيئًا. وسيتحرر التلاميذ من التفريق بين الحال والتمييز، وسيبقى نائب الفاعل، فهو أسلوب مهم لكنه مستغن عن التشكيل: «حوكم الرئيس» منطوقه هكذا ستكون مفهومة. وسنظل قادرين على أن نكتب بفصاحة وبتعبير قوي مستخدمين المفردات الدقيقة المعبرة عن المعنى ولكن بدون اهتمام بالنحو القديم.

سنطرح بالأسماء الخمسة. وأما أدوات الشرط الجازمة فلا أرى صحفيًا استعملها جازمة. لقد ماتت قبل عقود. لا ترى صحفيًا يقول: «إن

يأتِ نبأٌ جديدٌ نُعرِّه اهتمامنا» بل يقول: «إذا أتى نبأٌ جديدٌ فسوف نعيِّره اهتمامنا». الشرط الجازم سقط منذ القديم. البقية في حياتكم! وأما فاء السببية فهي ساقطة منذ قرون، ولا تكاد تجدُها حتى في كتب المدارس. ومع ذلك يفردون لها درسًا طويلاً، بغرض التعذيب.

لن يسقط مع النحو تركيب الجملة العربية. ستبقى جميلة وبهية. في وسعها أن تظل بهية بدون الإعراب. وأما مخارج الألفاظ فسوف نظل مختلفين عليها. وسيقترب المثقف من المخارج الوسطى المشتركة بين الشعوب الناطقة بالعربية.

ارتاد بيل برايسون حانة بغلاسغو وكتب وصفاً مفصلاً لل عبارات التي سمعها، كتبها كما سمعها، وبعد طول جهد استطاع تخمين بعضها وظل كثير منها مغلقاً. وقد أعطيت صديقي ديفيد -وهو من غلاسغو ولا أكاد أفهم كلامه- كتاب بيل برايسون وأقرأته تينك الصفحتين عن لهجة أهل غلاسغو.

وبمناسبة عبارتي هذه الأخيرة: «أقرأته تينك الصفحتين»، يطيب للقارئ أن يَفنني ويقول لي: «ارحمنا يا أخي. هلاً بدأت بنفسك؟ هلاً جعلت لغتك معاصرة؟ هلاً أسقطت الكلمات الغريبة من أسلوبك؟»

يا أخي أنا عندي عقدة نفسية. قد اشتغلت مديعاً زمناً، وأورثني هذا عقدة الضبط النحوي، وجعلني أكتب كأنني أحكي، ثم إنني اكتسبت معارف لغوية بمقدار ما، فأنا أتحسر على ما أنفقت من عمر في درس اللغة ولا أضيع مناسبة دون استغلالها لكي أشعرك بما عندي. يا أخي ألم

تكن تفعل ذلك وأنت تكتب مواضيع الإنشاء في المدرسة؟ أنا عندي طفولة لغوية مستديمة. عندي مشكلة. افهمني.

من أجمل الأساليب التي مرّت بي أسلوب مصطفى أمين. تقرأ فكرته أو مقاله أو كتابه فتتحدث عباراته في حلقك كالماء الزلال لا تجد لها طعمًا ولا تشم لها رائحة، هي عبارات مليئة بالمعنى وليس فيها نتوء لغوي. وكان الرجل ذا عريية قوية ومتينة، وكان صحفيًا حتى أنامله. وهيكل لغته سلسلة، ومتينة. ثم انظر إلى هيكل متحدثًا على شاشة الجزيرة عشرات الساعات، هل رأيته؟ يتكلم بالعامية الخالصة. ولو أراد الفصحى لاستطاعها، ولكنه يعرف أن أفكاره لن تتدفق بها، ويعرف أنه لن يصل إلى الجمهور بنفس القدر.

وقد ناقشتُ مع كثيرين حلقات هيكل على قناة الجزيرة، فانا أكتب كلامي هذا في وقتي هذا وأنا مدير للبرامج في هذه القناة، ومن بعض مسؤولياتي إعداد حلقات هيكل للبيت وترتيب مسألة تسجيلها. ولم يحدث أبدًا أن قال لي أحد: «إن هيكل يتحدث بالعامية». ألم يلاحظ أحد ذلك؟ ألم يلاحظ أحد أن الشيخ الشعراوي كان يقرأ الآية بالفصحى ويفسرها بالعامية؟

الإنسان يطلب من اللغة الفهم. ولا يقف طويلاً أمام الفتحة والضمّة. وغيرتي على اللغة العربية تتجاوز ما أطلبه من ورائها من نفع لنشر العلوم والثقافة في العالم العربي كله. لديّ غيرة وجدانية أيضًا. ومن بعض مشاغلي تقديم الشعر العربي القديم للناس وشرحه، وقد أصدرت في

هذا الصدد بضعة كتب. يسرني أن أشعر أن لغتي ذات ماضٍ ثري. وأستمدُّ من أدب اللغة العربية قدرًا كبيرًا من الحكمة والتجارب.

وكلما مررت بموقف تغافلت فيه عن إساءة تذكرت البيت:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

و ذات مرة داعبتُ زميلًا يكبرني بسنوات في جلسة، فحزن حزناً شديداً، ونظر إليّ نظرة المطعون بخنجر، وانسحب دون كلمة. فخرجت وراءه، وقبّلت رأسه كما يقتضي العُرف، وقلت له، وهو متأدّب يفهم الشعر ويحسه، قلت له: شأني وشأنك كما قال القديم:

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا

فطابت نفسه، وأقسم أنه لا يحمل ضغناً، وصدّقته، وصدّق.

في الأدب القديم سلوى وفيه حكمة، وفيه جنون، وفيه كل عُقدنا، ومشكلاتنا، وفيه صورة لأعماق نفوسنا. وليس طلبي التخفف من النحو سوى سعيٍ إلى أن نعيش في هذا الزمن، ونكفُّ عن تعذيب أنفسنا وأطفالنا.

أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١١

قل للزمان: ارجع يا زمان

في الزمن الصعب تكثر الكتب التي تتحدث عن «المدينة الفاضلة». يخلق الكاتب بلدًا خرافيًا يسود فيه العدل والرخاء. فعلها توماس مور، وقبله الفارابي، وقبلهما أفلاطون، وفعلها غير هؤلاء.

وعرب اليوم كتبوا الكتب عن مجتمع يسوده العدل والرخاء. لم لا، فإذا كنا نعيش عصر المهانة والظلم فلا بأس بأن نحلم بالعدل والرخاء.

لكن هذه المثالات من الكتب تشترك جميعًا في مشكلة. فهي كلها تتحدث عن شيء ماضٍ، لا عن شيء سيأتي. باختصار: كلهم يريدون العودة إلى دولة الخلفاء الراشدين.

ولي في هذا نظرات ثلاث، وأزيدك بيتًا، ثم عبرة.

العودة بالزمن إلى الوراء شيء مستحيل، كما علمت. وهذه واحدة.

وزمن الخلفاء الراشدين لم يكن مثاليًا، فثلاثة أرباعهم مات قتلاً، كما أن الدولة الراشدية (ودامت ٢٩ سنة فقط) شهدت الفتن والنزاعات، وتفاوتًا في الثروة بين الناس عافه أبو ذرٍّ، ولم يُصلحه الإمام علي رضي الله عنه لانشغاله بوقعة الجمل، ثم بحرب صفّين مع الصحابي معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما. ثم انتهت هذه الدولة القصيرة العمر بمُلك ورائي. هذه ثانية.

وأصحابنا يحلو لهم التمسك بضد اللباب، فربما رأيت بعضهم ولا يهمهم في الحياة إلا تقصير الدشاديش وإطالة الجلايب. وهذه ثالثة.

تذكرت أحياناً لأحمد شوقي بعد قمع ثورة البوكسر الصينية (١٩٠٠):
يصف فيها لغتهم بأنها ميتة، وعلومهم بأنها عتيقة دارسة، ويعلن اشمئزازه
من تمسكهم بشعائهم الدينية، ويخلص إلى القول: «هيهات قد نفذ
القضاء وصرتم في حكم قادر»، يعني بالقادر المستعمر.

لكن الصينيين نهضوا، ونظروا إلى المستقبل؛ ولم يأخذوا بنصيحة
شوقي، فتمسكوا بلغتهم وأقاموا على تبجيل كونفوشيوس؛ فلقد اكتشف
الحكم الشيوعي، ومنذ السبعينات، عجزه عن استئصال تراث الأمة من
النفوس. ومع نهوض الصين الأخير، بقيادة دنغ جياو بنغ، نهضت بقوة
العقيدة الكونفوشية.

ولعل في هذا عبرة. فالتمسك بالإرث الروحي لا يعني بحال أن نحلم
بعودة الزمن إلى الوراء. وفي يقيني أن التنطُّح إلى إلغاء تراثنا الروحي
مسعى عديمي، وفاشل. كما أن الاستخفاف بلغتنا العربية وعدم استخدامها
في تدريس كل العلوم (الفيزياء والرياضيات، وكل شيء) يعبران عن
جهل عميق بأهمية اللغة الأم، ويعبران عن بصبصة بالأذنان، وعن لحس
بصاق السيد الإفرنجي.

بلغتنا العربية فقط يمكن أن نرتقي، على أنني «لست مغسلاً وضامن
جنة»: أنا لا أضمن بقاء هذه اللغة، ولا أضمن أن نرتقي أصلاً.

صرح معجمي كبير

كنتُ في بيروت قبل بضع سنين، وقصدت «دار العلم للملايين» كي يحدثني روعي البعلبكي عن المعجمي عبد الله العلايلي. ونصب الفريق الكاميرا ومصابيح الإضاءة، وتدفق الكلام. أردت أن آخذ من مضيفي في مكتبه - وضيفي في برنامجي التلفزيوني - مقطعاً أضمنه وثائقياً لقناة الجزيرة سمّيته: عظام العربية في لبنان، والتورية مقصودة. ونذت عن البعلبكي إشارة إلى أنه ينشئ مُعجماً عربياً عربياً. ذلك بعد مُعجمه العربي الإنجليزي الفاخر الذي سدّ في المكتبة العربية ثُلماً.

حوّلت مجرى الحديث إلى معجمه الجديد، فوثب إلى منصذته متحمساً حماساً المؤلف المنغمس في عمل جنين. وأراني - والكاميرا ترى معي - مسوّدات المعجم الذي وصل به إلى حرف اللام، وشرح لي أن معجمه يضم كل جديد، حتى لو كانت اللفظة مستعارة من لغة أجنبية. فأبى عليّ الخبث والعبث إلا أن أسأله: «هل كلمة «بوتوكس» موجودة؟» فأخذ يقلّب الأوراق راجعاً إلى حرف الباء، فرأيتها مكتوبة مقحمة، كأنما تذكرها بأخرة. ورأيت هذا المخطوط السمين مكتوباً بخط يده ومشكولاً شكلاً تاماً بالأحمر. ورأى المشاهدون معي كل هذا في ذلك البرنامج على قناة الجزيرة الإخبارية.

وصدر معجم المورد العربي في نحو ١٥٠٠ صفحة بأعمدة ثلاثة مكتظة. ووصف نفسه على الغلاف بأنه «قاموس اللغة العربية المعاصرة

مع كل المترادفات»، وبأنه يمثل «منهجية جديدة للمعجم العربي». وقد صدق في الأولى وفي الثانية، ولكن من أَلَفَ فقد استَهْدَفَ.

جمع البعلبكي في معجمه بين معجم المعاني ومعجم المترادفات فأثقل كاهل اللفظة الرئيسية، وقد تغيب عن القابس العجلان إشارة المساواة (-) التي تفصل المعنى عن المترادفات. ولكن إيراد المترادفات يزيد المعنى وضوحًا. وفي سَوَاقِهِ المترادفات فصَّح المؤلفُ آلاف الكلمات الدارجة. لم يقف وقفة متردد هيَّاب يلتمس الفصيح المعجمي، ولو كان وقف هذه الوقفة لقلنا له: «ما زدتَ على أن رتبت المعجم القديم ترتيبًا مختلفًا». لقد أثرى معجمه بهذه الدوارج، ولم يُحجم عن كلمات كثيرة التقى فيها ساكنان. فدارجة بلاد الشام تسمح بهذا، وتأباه الفصحى. وقد يبالغ في هذا فتراه يورد عليك كلمة «كِيمِيَاء» بكسر الميم، ثم يتبعها بـ «كيمياء» الساكنة الميم، ويزيد فيأتي بكيميا، بغير همزة، مرتين: مرة بكسر الميم ومرة بسكونها. فكأن رُوحِي البعلبكي يريد عرض كل ما في سوق اللغة من خيارات.

أثقل البعلبكيُّ معجمه بالنظائر، فهو مثلاً يتبع كلمة خوان (بكسر الخاء) التي ترادف مائدة، بكلمة خوان (بضم الخاء). ولم يكتف، في كثير من الأحيان، بالأفصح أو الأشيع ومال إلى الاستيفاء، فأثقل بهذا الاستيفاء صفحات معجمه. وفتحت له ثقافته الواسعة من اللغات الأجنبية ومن العلوم المختلفة بابًا واسعًا أدخل منه إلى المعجم العربي ألفاظًا كثيرة جدًا لم يسعد بها معجم عربي من قبل.

ويعقد المؤلف في الملزمة بعد الملزمة من معجمه الكبير فصلًا صغيرًا ملونًا باللون الوردي يورد فيه طرائف اللغة. فالثعبان يسمى

أبا عثمان، و١٤ اسمًا آخر. ونقول: «فلان صابر على النوازل، وحمول للنائبات، ولا يتضعضع عند الفاجعة».. وعبارات كثيرة من هذا الباب، الأمر الذي يذكرنا بإبراهيم اليازجي في نجعة الرائد وشرعة الوارد. هذه فصول طريفة ومسلية.

وقد سار البعلبكي في معجمه العربي سيرته في معجمه العربي - الإنجليزي في أن رُتب الكلمات على الحرف الأول دون التفات إلى الجذر، تسهيلًا على المراجع. وبهذا شئت شمل العائلات اللغوية، فأنت تجد «ضرب» بعيدة عن «تضارب» بـ ٤٥٠ صفحة. ولغتنا ما زالت - رغم ما عرناه من الكلمات الأجنبية - تستند إلى أساس مكين هو الجذر الثلاثي. وقد احتال بعضهم على الكلمات الأجنبية بأن أوردوها كما هي، واحتال على بعض ما التبس جذره الثلاثي بإيراده في موضعه مع إحالة في موضع الصيغة المألوفة. وكنتُ رأيتُ، في كتاب لي سابق ذي طابع معجمي، أن اللبس الأكبر يقع في بنات الواو وبنات الياء فضممتُهن جميعًا إلى الألف، فالقول والقليل جذران، وبينهما في المعاجم بضع صفحات، فجعلتهما تحت «قال»، ورأيت في هذا حلًا طيبًا.

في كل اللغات توجد للكلمات جذور، وقد تخلى المعجم الإنجليزي عن الترتيب بحسب الجذر؛ لأن التغيرات على الكلمة تكون في الغالب الأعم باللواحق لا بالبواحد. ولا كذلك الكلمة العربية.

أيًا كان الترتيب فإن المورد العربي يوصلك إلى مبتغاك، فإن وصلت وجدت ثروة لفظية ومعرفية. فهذا المعجم معجمان في كتاب واحد: هو قاموس للمعاني، وهو قاموس للمترادفات. ولئن وصفت جدتي الشيء

الذي يجمع ما هبَّ ودبَّ بعبارة «جراب الكردي»، ذلك الكيس الذي يحمله البائع المتجول وفيه شيء من كل شيء، فنحن نصف هذا المعجم الجديد بأنه «جراب العربي»، ونقول: إنه لم يجمع ما هبَّ ودبَّ، بل جمع فأوعى، وقَدِّم للمجامع اللغوية ذخيرةً ثمينةً ستشغلها طويلاً، إن هي أرادت أن تشتغل. هذا إلى أناقة في الطباعة، وصبر على الضبط، والتزام بمنهج صارم.

كانت الصناعة المعجمية العربية قوية منذ مئات السنين، وسبقت، ليس فقط الصناعة المعجمية الإنجليزية والفرنسية، بل لقد اشتد عودُها قبل أن يكون هناك لغة إنجليزية وفرنسية؛ ثم نشطوا هم في خدمة لغتيهم معجمياً، ولم ننشط كثيراً، إذ وقعنا في حيرة بين قديم اللغة وجديدها. وبالمورد العربي قطعنا مسافةً طويلةً.

الألمان يتكلمون الألمانية

ستظل أنغيلا ميركل جميلةً لسنوات طوال. البراءة التي تطل من عيني ميركل تنسيك شراسة ناشتر رحمها الله.

والحديدية الألمانية تشبه الحديدية البريطانية في كثير. فكلتاها درست العلوم. على أن سيدة أوروبا الحالية تحمل شهادة الدكتوراه في فيزياء الكوانتوم، وقد عملت في الأبحاث النووية اثنتي عشرة سنة بعد الدكتوراه. وهي تملك شهادة امتياز في الرياضيات، وأخرى في اللغة الروسية التي تتكلمها بطلاقة (فلا تستغرب أنها لا تستخدم سماعة الترجمة في لقاءاتها مع بوتين).

سعدتُ بابتسامة ميركل العذبة وهي تحيي الأنصار عقب فوزها الأخير الذي وصف بالساحق في الانتخابات الألمانية. وبالطبع تغيب البروفسور يواخيم زاور زوجها (فيزيائي) الذي يؤثر تجنب الأضواء. وميركل، التي تبلغ التاسعة والخمسين، لا تحمل اسم زوجها، ولا اسم أبيها (كاسنر). بل تحمل اسم زوجها السابق (الفيزيائي أيضاً) أولريش ميركل.

- هذه الناشطة الشيوعية السابقة - فقد نشأت كزوجيها، إن جاز التعبير، في ألمانيا الشرقية - استطاعت بعد الوحدة أن تقرأ البوصلة السياسية. دخلت في الحزب الديمقراطي المسيحي الذي كان ناخبوه من المحافظين الذين تربوا على كراهية الشيوعية والتوجس من أي شخص له أية علاقة

بها، دخلت هذا الحزب الذكوري الذي يميل تاريخيًا إلى الكاثوليكية، دخلته رغم الوصمة الشيوعية، ورغم أنها بروتستانتية وابنة قسيس، ورغم أنها أنثى. وفي هذا درس.

لقد احتضنت ألمانيا الغربية بعد عام ١٩٨٩ شقيقتها الفقيرة ألمانيا الشرقية، وأنفقت عليها من المال ما أنهك الاقتصاد الألماني لسنوات. كان المال يضح ضحًا لإعمار ألمانيا الشرقية. وكان في الخلق والقوانين الألمانية من الصرامة ما جعل الألمان ينصهرون من جديد في شعب واحد، بلا من ولا تفرقة. وتوجوا هذا الخلق عام ٢٠٠٥ بانتخاب ميركل للمنصب الأول في البلاد، المستشارية. وها هي تفوز بأربع سنوات أخرى، فإن أتمتها فضلت تاتشر بسنة.

في ألمانيا عنصرية ضد الأجانب، ككل دول أوروبا، وأكاد أقول ككل دول العالم. وهي تعاني عقدة تاريخية بسبب سلوك النازية، أو بالأحرى بسبب الهزيمة الماحقة في الحرب الثانية.

مرت ألمانيا بمخاض التشرذم بضعة قرون، وكانت الخريطة الألمانية تدعى بالفسيفساء لكثرة ما فيها من الممالك والإمارات المتنافرة. ومرت بمخاض الوحدة على عدة مراحل. ومرت بمخاض الانتقال إلى التصنيع، بعد إذ تخلفت عن ركب الثورة الصناعية طويلاً. وكان المخاض الأخير التنافس الاستعماري والهزيمة الأولى التي أتت بهتلر، ثم الهزيمة الثانية التي شطرت ألمانيا وأفقدتها عدة أقاليم ذهبت لتشيكوسلوفاكيا وروسيا وبولندا وفرنسا. ثم كانت الوحدة الأخيرة قبل ٢٤ عامًا.

ما جعل ألمانيا تبقى ألمانيا هو اللغة، ومنظومة القيم الثقافية المشتركة.

عندما ذهبْتُ إلى ألمانيا الغربية في أواخر السبعينيات، أيام هلموت شميدت، وكانت تدور في الفلك الأمريكي أكثر مما هي الحال الآن، ظننتُ أن كل الألمان يتحدثون الإنجليزية، وأني قد أحتاج، وربما لا أحتاج، إلى تعلم اللغة الألمانية.

وفي المطار فوجئتُ. سطعت في ذهني، كمصباح المئة شمعة، فكرة: «الألمان يتكلمون الألمانية».

وكان هذه الالتماعة حَبَّت شيئًا، فبعد نحو سنتين، وكنت أقف مع البروفسور كالنبرغ في مكتبة كلية التاريخ بجامعة دارمشتادت بإزاء رفِّ تصطف عليه مجلدات موسوعة بروكهاوس الألمانية الضخمة، سألت أستاذي: «ولماذا كل هذا العناء، لماذا لم تترجموا أشهر موسوعة عالمية وهي البريتانيكا؟» قال لي: «البروكهاوس موسوعتنا نحن، وفيها ثقافتنا وتاريخنا، وطريقة نظرنا نحن إلى العالم ومن زاويتنا، وكثير من العلوم التي فيها ابتدعها ألمان». لا أدري إن كنت فهمته حق الفهم. لكنني الآن أفهم أن اللغة والثقافة تسبكان الأمة سبكًا. ولا بد أيضًا من خُلُق سَمَح يتقبل الآخر ولا يصبر على وصم كل إنسان بوصمة: فهذا أبيض وذاك أسمر، وهذا ابن مدينة وذاك فلاح، وهذه امرأة مطلقة وتلك بكر، وهذا ابن الإقليم الفلاني فهو شحاذ ابن شحاذ، وأما هذا فهو ابن بلد ثري، وهذا شيعي وذاك سني، والثالث مسيحي.

ما زالت صورة ميركل بابتسامتها الجميلة تداعب خيالي. اسمحو لي أن أنفج على صورها في النت ثم أعود إليكم.

هذه المرأة الألمانية عالمة خطيرة، وهم لا يرون في اشتغالها بالسياسية خسارة للعلوم النووية، فعندهم مثلها آلاف.

وقصة أخيرة عن الاجتهاد الألماني. كان مقر كلية التاريخ في جامعتي تلك حصن المدينة الأثري. وهو حصن شامخ عتيق، وجدوا أن خير طريقة لاستغلاله إسكان كلية التاريخ فيه. سألت زميلًا لي عن تاريخ بنائه، فقال: «سنة ١٩٦٥». أهو جاهل أم هازئ؟

ثم عرفت أن الحصن تهدم حجرًا حجرًا في ليلة واحدة في الحرب، ليلة قتل فيها أحد عشر ألف إنسان، وأصبح اسمها في قاموس المدينة «براند ناخت» أي ليلة الحريق. ثم أعيد بناؤه في عشرين سنة ليكون طبق الأصل عن الحصن القديم.

لا أظنني واعدًا حفيدتي بالوحدة العربية. لكن، إن عشتُ لأرى ابنًا لها فسوف أقول له: «سترى العرب أمة قوية. وعليك أن تؤمن بحرق المراحل، فهؤلاء السادة الكرام - من محيطهم لخليجهم - يملكون ثروة هائلة هي لغتهم العظيمة، وثقافتهم الراسخة التي سيجتمعون حولها. فإن رأيتهم الآن يحتقرون لغتهم ويرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية لغير ما سبب سوى اكتساب لغة أخرى، وإن رأيتهم يتناهبون ويبرزون الاختلافات الثقافية الطفيفة بين بلد وبلد، وبين قرية وقرية مجاورة لها، فهذا كله شيء على السطح».

وقد أقرب من أذنه وأهمس: «العرب يتكلمون العربية».

اللغة الأم.. لغة المعرفة والوجدان

سامي وعلي تخرّجا من روسيا، ومأمون وتوفيق تخرّجا من ألمانيا (للمصادقية فالأولان شقيقاي، والثانيان صديقاَي). تخرجوا وعادوا إلى الوطن العربي، لم يدرس أي من الأربعة المذكورين في مدارس أجنبية في بلادهم، قبل الانطلاق إلى روسيا وألمانيا. وعاد الأربعة إلى الوطن العربي ... واكتشفوا حاجتهم إلى الإنجليزية، وبسرعة استدركوا الأمر. الأربعة جميعًا يتعاملون بالعربية (ومن قبيل المصادفة أن أربعتهم مهندسون). لكنهم مضطرون إلى الإنجليزية. وجميعهم أتقن الإنجليزية بما يكفي لحاجاته وزيادة.

عالم اليوم يصفونه بالقرية الصغيرة، ويطيب لي أن أصفه بـدُنْيا اللغتين. أصبح الطبيب والمحامي والنجار والحداد جميعًا محتاجين إلى قدر من اللغة الإنجليزية. نعم، النجار الجيد لا يستغني عن الاطلاع على التصاميم الحديثة في الكتالوجات وفي مواقع الإنترنت.

اللغة الإنجليزية وراءك، إن أغلقت دونها الباب فستدخل من النافذة. ولكن، إن أهملت لغتك الأم في مستقبل حياتك، ولم تتعمق في ثقافة قومك، فسوف تظل ... من العوام.

اللغة الأولى وجدان: تفهم بها الشعر وتذوقه، تضحك بها وتبكي، بها تفهم النكتة والنادرة، وبها تتعبد وتناجي خالقك. وهي أيضًا معرفة: تتقنها صغيرًا بأيسر جهد، وتقرأ قراءة غزيرة، قراءة فهم

واستمتاع، وتضع أساسًا إسمتيًا صلبًا يقوم عليه في مقبل الأيام
صرحك المعرفي. والعلم في الصغر كالنقش في الحجر. لن تتفع
بالمعارف التي تكسبها كبيرًا انتفاعك بمعارف اكتسبتها صغيرًا.
اللغة الأولى تؤسسك.

اللغة الثانية فهم وتفاهم وفضيلتها أنها تفتح لك العالم. واللغة الثانية
ليست الروسية والألمانية ... بل الإنجليزية.

يسمع ابن اللغة العربية الذي تربى عليها قول المتنبي:

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُزِحَ بِمِيتِ إِيلَامٍ

فتفيض في ذهنه معاني الهوان والذل والاستخذاء والخذلان، وتأتية
موجة أخرى فيتذكر نقيض ذلك من شمم وإباء وعزة وشهامة ومروءة
ونخوة وكرم وسخاء وسماحة. كل هذه المعاني تحتشد في وجدانه،
فيطرب للبيت ويعرف معناه العميق.

ويسمع البيت نفسه شخصٌ لم يعرف من لغته الأم سوى كلمات
العوام، فلا يرى فيه شعرًا.

هناك قولان لمستشرقين: الأول الفرنسي ريجيس بلاشير الذي كتب
كتابًا مهمًا عن المتنبي، والثاني الألماني كارل بروكلمان الذي وثق
مصادر الأدب العربي توثيقًا مشهورًا. ومغزى القولين واحد: «نحن نفهم
معنى الشعر العربي، لكن تذوقه شأن أبناء اللغة العربية وحدهم».

لقد درس بروكلمان الألماني وبلاشير الفرنسي العربية فأتقناها، ولم
يملكها في الوجدان.

وما ينقُر طلبتنا من اللغة العربية أننا نخلط قديمها بجديدها، حتى في الصفوف الدنيا، وأتينا نصرُّ على تعليمهم من قواعد ما ياباه المنطق السليم: من وجوه إعرابية غريبة، وتصاريف مملوءة بالشواذ. فلو علّمناهم الفصحى من خلال النص الجميل والقصيدة الرائقة دون التفات إلى نحو وصرف فسوف يشتد عودهم، ويقرأون بغزارة، ويمتلكون اللغة صحيحة سليمة، وتصبح لهم الفصحى فطرة أو كالفطرة. وسيتاح لمن أراد منهم التبحر أن يتبحر.

الروائف والشنائر

أراد بعض الأدباء اختبار أبي الخير السخاوي، فسألوه أن يفسر لهم عبارة قالها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لكاتبه، وهي: «ألصق روائفك بالجبوب، وخذ المزير بشناترك، واجعل حندورتك إلى قيهلي، حتى لا أنغي نغية إلا أودعتها حماطة جلدجلائك». فقال لهم أبو الخير: معناها: «ألزق عضرطك بالصلة، وخذ المصطر بأباخسك، واجعل جحمتيك إلى أئعباني، حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها في لمظة رباطك». فغلبهم وسخر منهم، إذ فسر لهم اللغز بلغز.

المعنى: ألصق مؤخرتك بالأرض، وخذ القلم بأصابعك، واجعل عينيك إلى وجهي، حتى لا ألفظ كلمة إلا وعيتها في صميم قلبك.

لا، لم تكن اللغة العربية على هذه الشاكلة، لا في عصر الإمام علي ولا في عصر السخاوي (نحو سنة ١٠٠٠هـ). والكلام السابق مُلَفَّقٌ بغرض التسلية.

على أن العربية عامرة بالكلمات الميتة. وإذا نظرت في كتاب المخصص لابن سيده فلن تعارضني عندما أقول لك: «إن ما نستعمله اليوم من كلمات عربية هو خمسة بالمئة فقط من الكلمات المدونة».

دخل أبو العلاء المعري مجلس الشريف المرتضى، فداس على ثوب أحدهم فقال له غاضبًا: «ألا تنظر يا كلب؟» فقال له المعري: «الكلب من

لا يعرف للكلب سبعين اسمًا». وسرد المعري على المجلس سبعين اسمًا للكلب. ودوّن الناس فيما بعد خمسة وسبعين اسمًا للكلب. وعند الناطقين بالإنجليزية يوجد نحو ٥٠٠ اسم للكلب، لكن كل اسم عندهم يشير إلى نوع مختلف من أنواع الكلاب. فالفاظهم فيها ثراء معنوي. وألفاظنا مترادفات.

وكنّت وجدت قائمة تضم ٢٣٨ اسمًا للمصيبة في العربية. ثم وجدت في كتاب الدواهي لأبي عبيدة أكثر من ذلك. ثم قرأت أن أبا حمزة الأصفهاني زعم أن للمصيبة ٤٠٠ اسم (من أسماء المصيبة: الخيتور، والخنفيق، والعنفير). ولن أحدثكم عن أسماء الناقة، ولا السيف، ولا الأسد.

كنت في سن الصبا آخذ المزبر بشناتري وأكتب الكلمات الصعبة، ثم مللت، ثم أدركت أن الأمر لا قيمة له، ثم بدأت أفهم أن المهم ليس تجميد اللغة ولا حراستها ولا الحفاظ عليها، بل المهم أن نفهم، وأن نؤمن بأن التغيير طبع الحياة، وأن الجمود طبع الموت.

اللغة والديناصور

المكان: حديقة الحيوان، والزمان: الآن. القاعة تمتلئ برائحة غير محببة. كان بعض الحاضرين يتتعل جزمة العمل المطاطية التي تصل إلى قريب من الركبة. ومضى الخبير يشرح في هذه الورشة المهمة. والحضور مسؤولو الحديقة وحرَّاسُها ممن يتولون إطعام الحيوانات ورعايتها.

والمحاضر! خبير حيواني طبعًا.

أخذ يشرح عن الجهاز الهضمي للديناصور، وعن أنواع الدناصير الكثيرة؛ اللحم منها والعاشب، والزاحف والطيائر. ومضى نصف النهار. وبعد الغداء دخل في تفاصيل الإنزيمات التي تفرزها أحشاء كل نوع من الدناصير وانتهت الورشة وسط إعجاب الحاضرين وتكأكأوا على المنصة يشكرون الحيواني، ويستفسرون عن بعض ما غمض من شرحه، ويتناولون نسخًا من المطويات التي أحضرها لهم.

خرج الحاضرون إلى الردهة التي تصل إليها أصوات القردة والوحوش من أقفاصها، وكل منهم يُحدِّث صاحبه بإعجاب عن هذه الورشة الرائعة. أحدهم، وكان قصيرًا وزائغ النظرات وذا شعر مففل، قال لزميله: «ومتى سيجلبون الدناصير لنضعها في أقفاص، ونطبق ما تعلمناه في الورشة؟»

في ورشة أخرى كنا مجموعة من الصحفيين نتعلم قواعد اللغة. شرح المحاضرُ الضيفُ حالات الابتداء بنكرة، وسررنا بغزارة علمه. وغلط أحدنا فسأله عن واحدة من هذه الحالات، فقصى ساعتين ونصفًا في

شرحها. وكان معنا زميل قصير، ذو شعر مفلفل، وكان أيضًا وبمحض الصدفة زائغ النظرات، فقال هامسًا بعد انتهاء الورشة: «هذا علم رائع، ومن المؤكد أنه ينفعنا في الكتابة».

وشرح لنا المحاضر الكريم باب الشرط كله، لكن ذلك اقتضى منه ستين ونصف السنة، ثم أخذ في باب الاستثناء، وما زلنا فيه حتى الآن، وقد جلَّل الشيب رؤوسنا، وأصبح محاضرنا العلامة يتوكأ على عصا. وقد أمضينا جلسة الخميس المنصرم في تحليل عبارة «جاء القوم إلا حمارًا».

وللقارئ أن يفتح الآن على غوغل ويطلع عبارة «جاء القوم إلا حمارًا» وسيجد عشرات المواقع تورد المثال نفسه وتشرحه شرحًا مستفيضًا.

لقد شاد كبار النحاة هيكلًا شامخًا من القواعد والشواذ. ولم يتركوا في النحو مقالة لقائل. فهل أفاد هذا أبناءنا شيئًا؟ وجاء أصحاب التيسير الجدد، فكتبوا كتبًا بالعشرات خلَّصوا فيها النحو من كثير من زوائده. ولكنه بقي صعبًا.

ثمة مشكلة أساسية، عند القدامى وعند أصحاب التيسير. كلاهما يتحدث عن أحافير. كان الناس في زمن سيويه مثلما هم في زمننا يتكلمون بلغة مختلفة عن التي تصفها كتب النحو.

ما زال أبناءنا مضطرين لدرس كلمة «إذ ما» وهي حرف شرط جازم، فهل صادف أن قرأتها في مقالة أو في كتاب؟ ويدرسون جملة «محمد محمد صديقي»، فهل سمعت بمثل هذه الغثاء؟ وجملة «أعجبنى ما

أدبَتَ ولدك». وعبرة «ما مسموح التدخين في الحافلة»، وجملة «اشتريت أوقية ذهبًا».

هذه العبارات اقتبسناها من كتب التلاميذ الفلسطينية للصقيين العاشر والحادي عشر. وهذه الكتب تدرّس النحو باعتبار أن لغة الشاعر الجاهلي ولغتنا العربية المعاصرة لغة واحدة.

في مدرستي المثالية سوف نلتزم بالفصحى، هذه اللغة العظيمة التي يفهمها أربعمئة مليون إنسان، ولكننا لن ندرس القواعد. فقط سنقرأ ونحفظ أشعارًا حديثة كثيرة، وبعض القديم، وبعض الآيات، وسنحفظ نصوصًا مسرحية لنؤدي تمثيليات واسكتشات بخليط من الفصحى والعامية. ولن نسمح بأن يكون صاحب الفصحى في المسرحية هو «سي قفاعة» الذي يضحك منه الناس، فلا نريد أن نربط الفصحى بالعتيق المضحوك منه. سنجعل اللغة شيئًا حيًا.

المشكلة أن الآباء سيأتون في نهاية السنة لكي يشطبوا أسماء أبنائهم. سيقول لي أحد الآباء: «أنا أفهمك يا أستاذ، لكن أنت تعرف جيدًا، أريد لولدي أن يعيش في عصره وأن ينجح ويأتي بعلامة عالية ويدخل الجامعة ويصبح طبيبًا. ليتك تأتي بعد مئة سنة لكي تطبق أفكارك النيّرة». ولن أترك هذا المحترم يذهب دون رد. سأقول له: «وكيف ستنتفع «إذما» ولدك عندما يصبح طبيبًا؟» وسيحاول أن ينصرف تاركًا لي الكلمة الأخيرة. ولكنني لن أدعه يذهب. سأقول له: «يا محترم، عندما جاء الأجانب وفتحوا فرعًا ضمن مدارسنا نحن هنا في البلد قبل سنوات يتم فيه تدريس اللغة العربية عن طريق قراءة الروايات وتحليلها وتداول

الأشعار الحديثة، وتم إلغاء القواعد تمامًا، قبلت وزارة التعليم العالي منهم وطأطأت رأسها لهم، وقالت لهم: «سنعادل شهادتكم». وتمت المعادلة. وكان الحاصل على درجة متوسطة في هذا المنهج المستورد (واسمه «البكالوريا الدولية») يأخذ بعد معادلة درجته علامة في أواسط الثمانين؛ لأن الوزارة تحترم المستورد. احترمت منهج (البكالوريا الدولية) ووضعت على رأسها وليس فيه نحو ولا سيويه.

لكن، لو ابتدعنا منهجًا مشابهًا، لا بل أفضل من البكالوريا الدولية، فسوف تقول لنا الوزارة: «ابحثوا لطفًا عن «سات» أو «جي إس إي» أو أي شيء مستورد؛ فهذا مقبول لدينا. أما أن نطور نحن منهجًا للغة العربية فالعياذ بالله».

وسوف ينصرف هذا الأب غاضبًا أو راضيًا، وستبقى الحسرة في قلبي على ما أنفقت على هذه المدرسة النموذجية التي خلت من تلامذتها. أفكر في تحويلها إلى سوق خضار، بحيث يستأجر الباعة غرف الدرس، وسأسمح بالعربات في ساحة المدرسة.

أبو همروش

عائدًا إلى البيت على قدميَّ، ترثُّصًا واحترازًا من السَّكَّري قبيل هجمته المرتقبة. وقفتُ بأصل المرتقى آخذ نفسًا. بحذائي وقفت سيارة. لم أقف لها، فلعلها لم تقف لي. فقط، تمهلْتُ في مشيي. وزحفت السيارة معي. وسرعان ما جاءني صوت خشن من داخلها:

- «اطلع!»

واقتربت من النافذة محدقًا في الرجل.

- «لم تعرفني بعد؟»

- «مم»، أحاول أن أتذكر....

- «أبو همروش».

هرشت رأسي. السيارة تقف في أصل المرتقى الصعب على طريق بيتنا، وأنا أحمل همَّ الصعود.

- اطلع!

يقصد «اصعد إلى السيارة»، وأشار بيده إشارة أمرة، فصعدت وركبت بجانبه. قلت له إنني كنت خارج البلاد ستَّ سنوات كاملات، وعدت قبل أيام. ران عليه الصمْتُ مدركًا غلطته. ثم مضى صاعدًا وأصر أن يوصلني إلى البيت ودار بيتنا حديث. وعندما وصلت قلت له: «بارك الله فيك، فقد خلصتني من هذا المرتقى الصعب».

لم أقل له: «إنه قطع جبل أفكاري». لم أكن من اللؤم بحيث أكبده تأنيب ضمير على الخسارة الجسيمة التي ألحقها باللغة العربية، وبالثقافة عمومًا، بقطعه سلسلة فكرية مهمة بشأن الحرف العربي وبشأن النطق وبشأن الفصاحة.

وها هو أبو همروش يجعلني الآن -وقد وصلتُ إلى بيتي بسلام- أخوض في شأنه بدلًا من تسطير ملحمة هوميرية في الدفاع عن الحرف العربي.

كبار مثقفينا في مصر ولبنان الذين دافعوا عن العامية دفاع الأبطال، ورفعوا راية الكتابة بالحرف اللاتيني، وتحسّروا كثيرًا على أطفالنا المساكين الذين نجّسهم الحرف العربي في المدارس، وخاضوا حملات جريئة ضد الفصحى وضد الحرف العربي وضد النحو. كانوا يدافعون عما يرونه الحق. ونحن أيضًا ندافع عما نراه الحق. ونبدأ بنقدهم، وأول النقد تقرير.

أيها السادة! كل واحد منكم كان يتقن عدة لغات، ونصف دسته من اللهجات. فلماذا ترون أن عقل الطفل سيضيق بالفصحى؟ نسمع اللبناني يقول عن السمكة الصغيرة «سمكي زغيري» ونسمع الخليجي يقول «سميتشا صغيرونة» والمصري «سَمَكَة صُغَيْرَة»، فنعرف أن هذا هو هذا بغير كلفة. وكل واحد منكم، يا من ضاق صدركم بالفصحى وبالحرف العربي، قد زار بلدان الغرب وسمع أهلها يتكلمون بالعامية ويكتبون بالفصحى. أمعقول أن يكون فات سلامة موسى أو عبد العزيز فهمي أن سائق التاكسي اللندني يتكلم بلهجة «كوكني» تبعد عن الإنجليزية التي

يتكلمها النائب البرلماني الذي يخطب في مجلس العموم على بعد كيلومتر بمقدار البعد بين العامة القاهرية والفصحى؟ أليكون فات أنيس فريحة الذي قضى زمناً في ألمانيا أن عواماً همبورغ لا يكادون يفهمون على عوام ميونخ؟ وأنهم جميعاً يسمعون الفصحى في الراديو يفهمون.

ولنأخذ حرفاً عربياً واحداً من الثمانية وعشرين حرفاً. حرف القاف. الفصحى تقول «القادر»، نكتبها هكذا، وننطقها بقاف تأتي من آخر الفم عند التصاق سقف الحلق بأصل اللسان. الدروز ينطقون القاف قرآنية، ومرفقة بتغيير شكل التجويف الفموي. ويقول الخليجي والسوداني عن القادر: «الغادر». ويقول البدو «جادر» بقاف هي مثل الجيم القاهرية. وأما أهل القاهرة فيقولون «آدر». ويصفون المرأة القوية، ذات الحيلة والشكاسة، بأنها «آآدر». وفي مدينتي نابلس بفلسطين يصنعون بالقاف صنيع القاهريين. فالقادر عندهم آدر، ومنهم من يفخّم الهمزة.. كما في «آه». وفي نابلس عائلة أصرت على أن تنطق القاف مخلوطة ببعض الكاف، ونحن نسمي هذه القاف باسم تلك العائلة فنقول «قاف عبد الهادي». ولو ذهبت غرباً عشرين كيلومتراً لسمعت أهل طولكرم يخلطون القاف بالكاف مع تفخيم واضح. وقد مات حسن الكرمي، القاموسي الشهير، عن مئة سنة وسنة وهو ينطق القاف نطق أهله في طولكرم، وكان يطرب لقافه المخففة كثيرون وهم يسمعونها في برنامج قول على قول من إذاعة لندن. وقاف القرى المحيطة بنابلس هي كاف مفخمة، فإذا مضيت جنوباً إلى قرى رام الله وجدت القاف كافاً صريحة. ولو واصلت جنوباً وبلغت بيت لحم لسمعت القاف تصير غيناً، فكأنك في الخليج مع فارق انعدام النفط.

أعود إلى أبو همروش، ذلك الرجل الذي أوصلني بسيارته إلى بيتي. ذلك الرجل يتكلم بلهجة مختلطة اختلاطاً عجيباً. فهو من أصول ريفية فلسطينية ولكنه عاش في المهجر مدة، وتضطرب -أو تصطلح- على لسانه أحرفٌ جمعها من لبنان ومن الأردن والشام، ويكاد يتقلب فيما بينها مستعملاً هذه القاف مرة وتلك مرة، وهذه المدة مرة وتلك أخرى. يكاد كلامه يكون تلخيصاً لبرج بابل الفلسطيني.

هذا شيء عن القاف. ولن أقصّ عليك قصة حروف العلة، ففي كل واحد منها ما في القاف من صور وأشكال. ولو سائرني بعض المسايرة في المدّ والمطّ في الياء والواو والألف اللينة عند أهل الخليل ونابلس والقدس والشام، فلست أضمن بقاءك معي لو فتحت موضوع «النبر»، وكيف يؤخره المغاربة ويقدمه المشارقة.

لا نضع لكل العرب قاعدةً صلبةً في النطق، غير أن قُرَاءَ القرآن في مصر والسعودية والمغرب ما انفكوا يشتون قواعد للنطق جيلاً بعد جيل. وعندما ينطق المذيعون في المغرب وتونس ومصر والعراق بالفصحى فهم يقتربون من الفصحى القرآنية ما استطاعوا. ولا يندر أن ترى مثقفاً شامياً شديد الاعتزاز بالفصحى ويتقنها أحسن إتقان -ومثالي الشيخ علي الطنطاوي- تراه لا يكاد يفتح فمه إلا وتقول: «شامي أصيل». فهو، وإن كان مسيطراً على مخارج حروفه بشكل جيد، يخرج أحرف العلة شامية بشكل بارز. تقول عنه: «شامي شامي، لا حليبي، ولا ديربي، ولا درعاوي، ولا حمصي، بل شامي».

هذا تنوع طيب. وليس فيه ضرر. وهو كائن بسبب لهجات قَبَلية قديمة، وربما أيضاً بسبب لغات قديمة كان أجدادنا يتكلمونها كالسريانية

والأمازيغية والآرامية والقبطية والنوبية والكردية ثم اتخذوا العربية فنطقوا بإحدى لهجاتها، وطعموها بشيء من ماضيهم اللغوي.

القرآن بتلاوته وتجويده يقرب فيما بيننا، وطائرة البوينغ تقرب، والتلفزيون. وسنظل نتكلم بعامياتنا المختلفة. لكننا جميعًا صرنا نقول سيارة وتراجعت كلمة «عربية» عند المصريين، وكادت تختفي كلمة «أطومبيل» في بلاد الشام. يقول لك الشامي: «در كسيون» وتقول: «ستيرنج»، ثم تجدكما معًا بدأتما باستخدام كلمة «المقود» بدلًا منها، وتنطقانها نطقًا فصيحًا، وليست بالكلمة السهلة، غير أنها توحد بينكما. وتتكلمان في الاقتصاد والسياسة فتكثر الكلمات الفصحى على لسانيكما، وتصلان إلى ما يسمى اللغة البيضاء، أو الوسطى.

الفصحى ضرورة. وضروري أن تكتنز بالمفردات والأساليب الجديدة. وهي تفعل. ومن الخير للفصحى ولوجداننا الثقافي أن نستعير من قديم العربية ما يناسبنا. وكلمة «سيارة» الناجحة جدًا كلمة قرآنية.

والحرف العربي! لقد نشأ مع لغتنا، وتعودنا على صورته. وهو يتيح لصورة الكلمة أن تبقى كما هي، بينما يتلون العرب في نطقها ألوانًا، هذا ثبات طيب لا جمود. هذا ثبات مطلوب لكي نتفاهم. وقد أخذ بمثل هذا الثبات أقوام كثر منهم الإنجليز والأمريكان. الإملاء الإنجليزي مصيبة من المصائب، وهو خلطة جرمانية سكسونية لاتينية عجيبة. وهم متمسكون بإملائهم لأنهم تعودوا عليه، ولأنهم يرون فيه خادمًا لاستمرارية ثقافية، وتواصلًا معرفيًا، وتبادلًا معلوماتيًا. سأترك هذا الأمر.

قطعت كلامي مدرّكاً أنني كنت توسعت في هذه النقطة في مكان آخر
لعله يكون ضمن هذا الكتاب. فأنا أكتب الأشياء وأرميها في الحاسوب،
فإن قُدِّرَ لها أن تظهر في كتاب فالويل للقارئ مما سيري فيها من تكرار.
ولعلّي لا أقص عليك القصص، كقصة أبي همروش، إلا لكي أصنع
فارقاً بين مقال ومقال.

أقطع كلامي وأقفز قفزة.

أنا مُقدِّم في الأشهر المقبلة على فترة من تدريس الطلبة الجامعيين في
قسم الإعلام. ومثلما فعلت عندما كنت أدرس في هذا القسم قبل ستِّ
سنوات فسوف «أرغم» طلبتي على المطالعة. ليس شيئاً محبباً إلى
قلوبهم، وهو ثقيل عليّ.

تخيل! طلبة إعلام ولا تجري العربية الفصحى على ألسنتهم إلا
بصعوبة بالغة، ولا يكادون يعرفون من مفرداتها إلا أشيع الشائع. لا
يعرفون معنى: استخذي، ولا تضوع، ولا ساور، ولا استفتى، ولا تبوأ.

طالبنا الجامعي لا يعرف من الفصحى إلا بقدر ما يرد في نشرة
الأخبار. فإذا تفاصح المحرر قليلاً وكتب للمذيع: «مقتضيات المرحلة»،
فقد تقف الكلمة في حلق المذيع، فإن لم تقف وقفت في أذن طالبي
الجامعي، وشغلت ذهنه بضع ثوان.

بضع فقرات: خذ فقرة من حافظ إبراهيم في ترجمته لبؤساء فكتور
هوغو: «وإنه ليفكر في أمره، وفي تلك الأسمال التي كانت مثار النفور
لكل من يراه، إذ أحس بوقع أقدام فاستوى جالساً، فإذا هو يرى سواداً

مقبلاً، فتبينه فإذا هو غلام يُعَدُّ من العمر اثنتي عشرة سنة، وهو يحتقب
جزءاً له».

وخذ فقرة من قصة روبنسن كروزو، كما ترجمها بتصرف ونشرها
للأطفال كامل الكيلاني في مصر: «وإنَّ لكذلك، إذ أقبل وحشان هائلان،
أحدهما يجري خلف الآخر، من الجبل إلى البحر. ففر الرجال، ولم يبق
منهم إلا حامل العصا. ثم هوى الوحشان إلى البحر يسبحان ويلهوان، ثم
أقبل أحدهما إلى مركبنا حتى كاد يدانينا. فأطلقت رصاصة على رأسه؛
فصرعته من فوره».

وهذا محمد السباعي، والد الروائي يوسف السباعي، يترجم أناطول
فرانس: «كان نيقولا نيرلي متمولاً وصاحب مصرف في مدينة فلورنسة،
من أعمال إيطاليا، وكان جمعُ المال دأبه وديدنه، يلتمسه من كل وجه
ويتأتى إليه من كل باب، وما إن يزال عاكفاً على دفاتره وأرقامه من لدن
طلوع الشمس إلى غروبها، وكان يقرض الإمبراطور والبابا، وما منعه أن
يقرض إبليس إلا خشية المطال، وأن إبليس أشد مكرًا منه ودهاءً».

وهذا شيء مترجم عن الإنجليزية. والمترجم هو أنيس فريحة الذي
ناصر العامية ودعا إلى الكتابة بالحرف اللاتيني. وقد كتب ما ستقرأ في
سنة ١٩٦٦ ناقلاً كلمات ناثن بيوسي رئيس جامعة هارفرد ستنتذ: «التربية
الحرّة تُعد في الأوساط الأكاديمية موضوعاً دقيقاً، يتجاهله بعضهم،
يزدريه بعضهم، ويتخذ بعض آخر أساساً لعقيدة وإيمان. أما الآن فإن
أشد أنصار التربية الحرّة والذائدين عنها، خليقون أن يتحدثوا عنها، وفي

نفوسهم أسي وحنين إلى ما كان، حتى لكانها شيء قد فقدوه ويُسرُّهم أن يُبعثَ لو كان بعثه ميسورًا».

نعم، تلك عربية نفتقدها. لكننا لا نريد مثلها في كل حين. في كل الفقرات السابقة سعي إلى التفاحص، وفيها أساليب عتيقة، ولها رونقها. لست أريد من طلبتي أن يكتبوا بلغة أدبية، ولا حتى أطلبهم بأن يفهموا كل ما كان كتبه الأجداد. أريدهم أن يدخلوا في الفصحى أكثر لكي يُعبِّروا عن أنفسهم بشكل أفضل، ولكي يفهموا كثيرًا من الأدب والعلم.

ابن الهيثم: بحثت قبل أيام في موسوعة «تراجم العلماء» الأمريكية عن اسم ابن الهيثم، وتوقعت فقرة صغيرة. فهالني أن رأيت مقالة طويلة لو تُرجمت إلى العربية لجاءت كتابًا في مئة صفحة وأزيد. ضاق صدري. فلتترجم مقالات من هذه الموسوعة ونشرها في كتب وعلى الإنترنت. وأما التأليف العلمي فسيأتي عندما يصبح عندنا علماء.

ستظل اللغة الإنجليزية مورد الظمآن في العلوم البحتة، وسيظل علماؤنا بحاجة إليها ليقروا بها الأمور البالغة التخصص، وباللغة الجدة. ولكن توافر كتب علمية مبسطة في اللغة العربية، وبعدد كبير، أمر مهم، ومقدور عليه.

نحتاج إلى الدكتور فاوست. ذلك العالم الذي بلغت به شهوة المعرفة أن باع روحه للشيطان مقابل الحصول على معرفة ليس لها حدود. كان بطرس البستاني فاوستًا. فهذا الرجل اللبناني قعد يكتب موسوعة كبيرة عن كل شؤون الدنيا. انظر إليه يحدثك عن قوانين الحركة وعن السرعة

والتسارع ومركز الثقل تجده عالمًا من علماء الفيزياء، يكتب لك كل هذا بعربية رائعة، ويعبر بالعربية عن كل هذه العلوم تعبيرًا مشرقًا، ويورد المعادلات والقوانين الفيزيائية ويفصل قوانين المقذوفات (المدفوعات بحسب تعبيره) ويشرح القوة الطاردة عن المركز (قوة التباعد عن المركز) في عشرات الصفحات. وقد قرأتُ شرح البستاني لقوانين رفع الأثقال بالبكرات، وجلست أُنَدب أولئك الرجال الذين أخلصوا للعلم.

ذلك أن قانون البكرات مرَّ معنا في أيام الدراسة وأقبلت عليه بكل رغبة أريد أن أفهمه، ببساطة لأنني كنت أرى الميكانيكي يرفع السيارة بيده باستعمال منظومة بكرات وبدون أن ينفق بنزينًا ولا كهرباء، فكان هذا بالنسبة إلي كالسحر، وأردت أن أعرف كيف يكون ذلك. وكان كتاب المدرسة عقيمًا في شرحه، مكتوبًا بقلم مؤلف بليد الذهن معدوم التعبير. ونشأت في نفسي عقدةٌ من البكرات وقوانينها. وجاء البستاني ... وفي صفحة مطبوعة بأحرف منقرة عتيقة حدثني عن البكرات حديثًا جميلًا، وخاطب عقلي، ولم يعفني من المعادلات والرموز، وأفهمني. هو يشرح ويخاطبك، ويريد أن يفهمك. في كلامه بيان وإشراق. وفيه تفصيل العالم وإخلاص المعلم. هذا رجل عرف الإنجليزية والفرنسية معرفة ممتازة ودرس الإيطالية والسريرية والآرامية والعبرية واليونانية القديمة واللاتينية، وقبلها -وأحسن منها كلها- عرف عربيته، أليس صاحب أول قاموس عربي في العصر الحديث: محيط المحيط. من معرفته الأصيلة بلغته الأم، العربية، استمد البستاني إقبالًا على قارئه العربي، وإحساسًا بهذا القارئ وباحتياجاته، وكلَّمه كلامًا وأفهمه إفهامًا. هذا الرجل مات قبل أن يولد طه حسين، مات وقد أسس مدرسة وأربع صحف.

نريد قامات علمية شامخة. وهذه القامات ليست نيازك تهبط من السماء لا نستطيع لها جذبًا ولا نملك لها دفعًا، بل هي ناس نصنعهم صنعًا في الجامعات وفي جسم المجتمع.

جورج برنارد شو صنعته الظروف. يقول كاتب سيرته هولرويد: «إذا أردت أن تعرف الحالة الموسيقية في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر فالمرجع برنارد شو». فهذا الرجل كتب سلسلة مقالات -جُمعت مؤخرًا في مجلد ضخّم- كلها هزل وسخرية، ينقد فيها الفعاليات الموسيقية في لندن. كان يخفي عن القارئ معرفته الموسيقية، ويحدثه حديث المتذوق السَّمِيع. غير أنه كان يراجع المدونات الموسيقية، «النوطة»، ويفحصها قبل حضور الحفل. وفي أثناء هذا كله -وكان لم يبلغ الثلاثين بعد- كان يقدم المحاضرات بالمئات في الدعوة إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ورأى أن عليه درس الاقتصاد، ولم يكن كتاب كارل ماركس رأس المال قد ترجم إلى الإنجليزية. فأكبَّ عليه يدرسه بالفرنسية، فمن أين جاءته الفرنسية؟ من الهواء. احتاج إليها فتعلمها. ثم انحرف برنارد شو إلى كتابة المسرحيات، فأصبح أشهر كاتب مسرحي في زمنه. قرأتُ شيئًا لهذا الرجل وقد نيف على التسعين من العمر يتحدث عن أثر السلاح النووي في الاستراتيجيات العالمية، فاحترتُ في أمره، يكتب كأنه شاب في الثلاثين، بحيوية وتوقد ذهن، وفي موضوع جديد لم تعرفه البشرية إلا قبل سنوات قلائل. كان برنارد شو عبقرية المعرفة والفن. ولم يدرس في المدارس سوى سنوات قليلة.

ورأيت ديفيد كريستال، وهو رجل صنعته الجامعات، وأطعمته الخبزُ دورُ النشر. وله نحو مئة كتاب، وهو لغوي موسوعي، ويكتب للناس

العاديين وللأكاديميين أيضًا. لم يتهم أحد كريستال بأنه عبقرى. على أنه علامة. وهو محرر موسوعة كامبردج العامة، فالذي يكتب في اللغة لا بد له من معرفة واسعة بالعلم والاجتماع والسياسة. ويزداد كريستال واحدة، فهو -وقد دخل السبعين- مهتم بالإنترنت وله قواعد بيانات مسجلة حقوقها باسمه.

الحاجة إلى العلم: سيرى المزارع التونسي نفسه -وقد وجد منافسة قوية من زيت الزيتون الإيطالي والإسباني في أسواق العالم- مضطراً إلى كثير من العلم لكي ينافس ويأخذ حصة أكبر. الله يتكفل بصنع حبة الزيتون، يتكفل بخمسة وتسعين بالمئة من العملية، بالجزء الصعب. بقي على الفلاح الحرث والغرس والسقي والقطف والعصر، وتلك أمور سطحية إذا ما قورنت بإنبات الشجرة وإخراج الحبة من زهرتها. وللإيطاليين والإسبان في جني محصول الزيتون فنون، ولهم في عصره فنون، وفي تسويقه أيضًا. ولا بد للمزارع التونسي من علم كثير حتى ينافس.

والأرض في بلاد العرب فقيرة، كأرض اليابانيين. ولتعويض فقر الأرض لا بد من علم كثير لفتح مجالات أخرى لخلق الثروة، بجانب الزراعة.

نحتاج إلى الكثير في علم الكيمياء كي ننجح في الصناعات الدوائية. لا يكفي أن نأخذ وكالة لصنع عقار معين رُكِّب مختبر في فرنسا. هذا صنيع البغاء. لا بد من تعمق في الكيمياء والطب للخروج بعقارات جديدة. ولا بد من رقابة حكومية لضمان الجودة. ففي وضعنا الحالي لا

يطلب المواطن العربي الدواء العربي، ويطلب من الصيدلي المرادف الأجنبي. فتقمة المواطن العربي بالدواء العربي، المنتج ببغائياً، ثقة ضعيفة لحضور الغش، وغياب الرقابة. فالمجتمعات العربية تعاني أزمة أخلاقية، علاوة على الأزمة الإبداعية. ليس هذا لأن العرب سيئو الأخلاق، بل لأن وضعهم الحالي هشُّ اقتصادياً وفكرياً. فالغرب والشرق ينهبان العالم العربي ويسيطران عليه استراتيجياً، والعرب مضطرون إلى التفكير في المصلحة القريية والمكسب المتاح سريعاً. وأسهل المكاسب أن تكون تابعاً وأن تأكل الفتات. السيادة صعبة، والاستقلال الحقيقي صعب.

لو كنت أشك طرفة عين في أن اللغة العربية هي التي تعيق تقدمنا لما ترددت في الدعوة إلى أن نخرج من جلدنا، وأن نهجر لغتنا، ليس فقط أحرفنا وفصحانا. لكنني على يقين من أن طريقنا نحو السيادة والثروة يمر عبر اللغة العربية.

منهاج مدرسي: اطلعت مؤخراً على منهاج اللغة العربية الفلسطيني لصفوف عديدة. ولي عليه تعليق قد يكون هذا مكانه وقد لا يكون.

اجتهد واضعو هذه الكتب اجتهداً كبيراً في الحفاظ على نقاء الفصحى وضبطها بالتشكيل ضبطاً لا مزيد عليه، واجتهدوا في اختيار نصوص أدبية متنوعة، وراعوا الخلط بين قديم اللغة وجديدها. ولكن ثمة نقصاً فادحاً عندهم في فهم كيفية عمل دماغ الإنسان.

يأتون بقطعة من الأدب، يجعلونها قصيرة، نصف صفحة. ثم تأتي التمارين والقواعد والتذوق والتحليل صفحة وراء صفحة وراء صفحة. فتنفق المعلمة درساً وراء درس وهي تتعامل مع مصطلحات نقدية

وتذوقية وقواعد نحوية. وتحلو للمؤلفين المقارنة بين نص ونص، ويحلو لهم أن يستخدموا أسلوب «أنا أقرأ البيت..» كأنما لكي يهربوا من فعل الأمر «اقرأ البيت..». وما شاء الله من هذه الحيل التربوية السخيفة.

الطالب بحاجة إلى نص حلو مع قليل من التشكيل (التشكيل الذكي، وليس التشكيل الذي يشوه الكلمة حرفاً حرفاً)، ومع قليل من التفسير للكلمات الصعبة. فأما تلك الجداول المخيفة، وتلك البنود الكثيرة، والتمارين، فهي تتلف الأعصاب، وهي تدعو المعلمة إلى تحفيظ الطلبة وإرغامهم على سرد النقاط في الامتحان. لقد اخترعوا حكاية تدريس القواعد ضمن تدريسهم النص الأدبي. وهو اختراع فاسد؛ لأن القواعد أصلاً فاسدة، وليست مهمة.

ويأتيك كتاب العلوم اللغوية، وفيه لغو كثير وتقسيمات وجداول مرعبة. وبلاغة وعروض ونحو وصرف، وكل ما ليس له أي لزوم من إعمال وإبدال... كل هذا مسوق سياقة عصرية وبالألوان، وبمونتاج مطبوعي متعوب عليه. وقد رأيت وقع هذا المنهاج على طالبة نابهة كانت تستعد لامتحان الشهادة الثانوية. رأيتها تحفظ الكتاب حفظاً. وتداولت معها في النصوص والقواعد، وهزرت رأسي، عرفت أنها لن تحتفظ في ذهنها بأي شيء من هذا كله. وخاضت الامتحان وأحرزت علامة ٩٨ وثلاثة أعشار بالمئة. وهي تدرس الهندسة المدنية الآن. ولثلاث تظن أنني أؤلف لك أمثلة من الخيال فالآنسة المشار إليها ابنة أخي.

وقد اختار المنهاج الفلسطيني لبديع الزمان الهمذاني مقامة مؤلمة هي الثانية عشرة، الموسومة بالبغدادية. والبطل فيها يغدر بفلاح نزل بغداد

ويخذه إذ يدعوهُ إلى الغداء في مطعم، ويأكل معه أصناف الشواء والحلوى، ثم يغافله ويتركه، والفلاح لا يملك ما يكفي من الدراهم، فدفع الحساب ركلاتٍ ولطمات. وتنتهي المقامة بافتخار بطلنا بفعلته.

اقتبس المنهاجُ الفلسطينيُّ الحكاية وأعجبه ما فيها من بلاغة ومفردات ولغة. أهذه قصة تُقدِّم لطلبة صغار! ويقول واضع المنهاج في ذيل الدرس إنه «جرى اختيار المقامة لطرافتها». ولم يذكروا نصف كلمة عما في القصة من التمجيد الصارخ للغش والخداع، وعن استغلال ابن مدينة فهلوي محتال لفلاح مسكين.

وتذكرتُ شيئاً. وأذكره لكم هنا كيما أثبت أن الطفل حساس ويدرك الرسالة الأخلاقية.

دخل معلم اللغة العربية غرفة الدرس، وأنا في الصف الثالث الابتدائي، وكتب لنا على اللوح بيتاً من الشعر، وطلب منا أن نكرره على طول الصفحة لتحسين خطوطنا. كان بيتاً مشهوراً للمتنبي:

لا تَشْتِرِ العبدَ إلا والعصا معه إن العبيدَ لأنجاسٍ مناكيدُ

وقد كتبتُ البيت عشر مرات أو أكثر أو أقل. لكنني تنبّهتُ إلى أن البيت يقول شيئاً سيئاً عن العبيد وأنهم أنجاس ومناكيد، ويجب ضربهم بالعصا. ألسنا نعرف أن العبيد مظلومون؟ ألم يقل لنا معلم الدين: «إن عمار بن ياسر العبد رجل شريف، وإن سيده أمية بن خلف هو الشرير؟ فكيف يقال مثل هذا الكلام عن العبيد؟» أحسست ساعتها وأنا طفل في نحو التاسعة من العمر بوجود تناقض، ووجود رسالة أخلاقية غريبة.

لا، أيها السادة، يا من وضعت منهاج اللغة العربية للصف الثامن في فلسطين، لا يمكنكم بحال أن تسقطوا هذه السقطة ولا تؤاخذوا بها وبأشباه لها كثير. لديكم مشكلة حقيقية في جانب «الرسالة». غير أن موضوعنا هو اللغة، فتمضي.

الكتاب المدرسي: العربي يقول: «أنام، وأقوم» ولا يخطئ فيهما لأنه سمعهما في بيته وقرأهما مرارًا، ولا يحتاج إلى أن تُصدَّعُوا رأسه بدرس الإعلال البغيض سنةً بعد سنة. وللجهاذة من واضعي كتب المدارس أقول: «فُكُونَا من سخافات النحو والصرف، وحُلُّوا عنا، وعن أولادنا. إنكم تجعلون اللغة العربية، في تلك الذبول القبيحة التي تلصقونها بالنص الأدبي، لو غاريت مات وطلاسم».

أفتح صفحة بعد صفحة في كتاب مدرسي، وأرى عنوانًا يتكرر: «المعجم والدلالة». وما هذا الذي تقصدونه بالدلالة؟ لمَ هذا التباهي البغيض بالدلالة والمدلول. ألم تسمعوا بكلمة (المعنى)؟ لقد قرفت حقًا من كلمة «دلالة» لكثرة ما قرأتها في كتب أكاديميي الزمن الأخير. يستعملها هؤلاء الذين درسوا من كتب جامعية ضحلة، ويصدعون بها رؤوس أبنائنا.

بعد هذه الوصلة الهجائية، أعود إلى التأكيد على أن النتيجة هزيلة حقًا. ببساطة لأن اللغة لا تُعلَّم هكذا. ولماذا كل القمامة النحوية والصرفية في كتب المدارس؟ ألا يعلم واضعو الكتب المدرسية أن النحو اخترع بعد موت الأعشى؟ فلماذا لم يكن الأعشى يخطئ في اللغة؟

وظيفة الفصحى أن تصلنا بتراثنا الأدبي، وأن تجعلنا نفرح بوجود عمق حضاري وثقافي عريق، ووظيفتها أن تجعلنا نكتسب العلوم والمعارف من الكتب ومن التلفزيون والراديو والإنترنت، وأن تجعل أقاليمنا اللهجية المختلفة تستفيد بعضها من بعض. فلو كتب كل الأدباء المغاربة باللهجة المغربية، وكل العلماء العراقيين باللهجة العراقية، وكل الفلاسفة اللبنانيين باللهجة اللبنانية، لخسر كل إقليم من هذه الأقاليم أدبًا وعلمًا وفلسفةً.

الفصحى ضرورة. وتعليمنا لها بالطريقة البالية يجعلنا ضعافًا فيها، مرعوبين نفكر بالضمة والفتحة طول الوقت، ويجعلنا لا نعبر عن أنفسنا تعبيرًا مرتاحًا. نعم، لست ألوم محاضرًا مهمًا يقف أمام الجمهور ويتكلم بخليط من الفصحى والعامية. ولا ألوم علماءنا وأساتذتنا الجامعيين عندما يتعاملون مع المقالات العلمية والفكرية بكثير من الوجل اللغوي. ترى الأستاذ الجامعي الذي يدرس علم الاجتماع يبحث عمن يصحح له بحثه، وتجده مرتبكًا وخجلًا من نفسه. ويحلف لك بالله العظيم أنه كان أسهل عليه لو كتب ذلك البحث (وموضوعه المجتمع العربي) باللغة الإنجليزية.

قد اشتغلت بعض الوقت مع مركز أبحاث مهم وحقيقي - وما أكثر مراكز الأبحاث التي هي دكاكين لاصطياد الميزانيات - رأيت الباحثين يقفون مكبلي اليدين بإزاء اللغة العربية. يكتبون كلامًا مليئًا بالأخطاء النحوية والأسلوبية. وما أكثر ما وجدت بينهم من يرجوني رجاءً حارًا أن أقسو عليه في التصحيح؛ لأنه يشعر أن النص لا يُعَبَّرُ عن فكرته. ذلك أنه درس العربية دراسة عقيمة، وحاول معلّموه أن يحشوا في رأسه النحو

والصرف حشواً، فحفظ ما أرادوه على حفظه ونجح في الامتحانات ثم لم يبق في يده من النحو والصرف شيء، ولم يمر به من النصوص الجميلة ما يكفي لجعل العربية الفصحى سلسلة على سنّ قلمه أو على لسانه.

قبل بضعة أيام صُحِّحت نصّاً طوله ١٢٧ صفحة. كتبه شخص يحمل شهادة الماجستير من جامعة عربية، رجل درس علومه باللغة العربية في كل مراحل التعليم. وجدت في النص اثني عشر ألفاً وأربعمئة غلطة (مع احتساب الفواصل والواوات المفصولة عما بعدها). وبعثت إليه بالنص مصححاً مع بيان الأغلاط على برنامج البالونات التصحيحية. النص اقتصادي، والرجل اقتصادي، ويعرف علمه جيداً. لكنه ببساطة لا يعرف شيئاً من قواعد الإملاء والنحو، ولا التاء المربوطة ولا الهمزة ولا شيء، لا شيء.

ربما كان السبب في تفوق الخريجين القدامى في اللغة العربية أنهم كانوا يقرأون أكثر، قصدت المطالعة الحرة المسترخية، حين ينسجم المرء مع كتاب أو رواية ويعيش أحداثها ويتشرب -وهو منسجم- لغتها تشرباً. فالمطالعة الحرة غير القسرية تجعل المرء يعيش اللغة، فيفرح ويحزن ويغضب وهو يعيش أجواء رواية معينة، أو كتاب تاريخ. وربما كان هناك سبب آخر وهو أن طريقة تدريس اللغة في الخمسينيات وما قبلها كانت تعتمد على الأذن أكثر مما هي الحال الآن، والأذن في مسألة اللغة أهم من العين. كانوا يقرأون قراءة جهرية أكثر بكثير مما يفعلون اليوم. كان الأساتذة يتذوقون القراءة السليمة ويحملون الطلبة على القراءة واحداً بعد واحد، والويل لمن اسمه يبدأ بالهمزة. كان النموذج الإعلامي هو الإذاعة، وكان الناس يحترمون قُرَاءَ نشرات الأخبار الذين يتلون نشراتهم بلغة سليمة

ومخارج فخمة. والقراءة الكثيرة تُدخل في الآذان أساليب اللغة المختلفة فتصبح هذه الأساليب جزءاً من اللاوعي، وما أسهل أن يستحضرها المرء فيما بعد. فأما تعليم اللغة عن طريق العين فليس الشيء الطبيعي. ولئن رأينا كتب الأوروبيين المدرسية لتعليم اللغة مليئة بالصور والألوان فهذا من قبيل تسلية الطالب، وتحبيب الكتاب إلى نفسه. فأما المنهاج الفلسطيني فقد فهم مسألة التعليم بالعين فهماً آخر. فهو يقطع أوصال النصوص تقطيعاً، ويلون الكلمات الصعبة بالألوان مختلفة فيخرجها بذلك من جسم النص، ويدعو الطالب دعوة ملحة إلى حفظها بمعزل عن النص، ويضع في كل درس الجداول الكثيرة، حتى ليكاد شكل الصفحة يكون أحجية هندسية. ثمة تفتيت للنص يبعده عن طبيعة اللغة. هناك سعي منظم لاغتيال النص وتقطيع أوصاله، ولا بد لعملية مهمة كهذه من إشراف المؤلفين على الطباعة ... يعطيهم ربي الصحة!

الحفظ: كان القدماء يحفظون أشعاراً أكثر مما يحفظ طلبتنا الآن. وكانوا أيضاً يحفظون الأحاديث النبوية والآيات والأشعار. والآن ماذا يحفظ طلبتنا؟ يحفظون النقاط والبنود. يحفظون الآن كل شيء لا لزوم لحفظه، وسيتم نسيانه فور الفراغ من أداء الامتحان، ولا يحفظون جسم اللغة وهو النص. يحفظون تشريح اللغة وعظامها وأشلاءها، ولا يحفظون صورتها المكتملة كخلق سوي. وفارق بين الراعي الذي يرى خروفه خُلُقاً سويّاً، وبين الجزار الذي يراه، بين الساطور والوَضَم، أوصالاً.

الحفظ مهم، لكي ترسخ في الذهن صورة اللغة الفصحى؛ ذلك أنها لغة لا يستعملها المرء منذ طفولته الباكرة، فليست مسكوبة في ذهنه سكباً، وهي محتاجة إلى بعض الحفظ القسري.

في العامية نحفظ بعض أبيات الشعر الشعبي لكي نغنيها أو لكي نتذكر بها في مجالسنا، ونحفظ الأمثال. يأتي هذا الحفظ للأدب العامي تلقائيًا، ويحفظ الإنجليزي أمثاله الشعبية، ويحفظ بعض العبارات البليغة أو الطريفة، ويحفظ أغاني الطفولة ويغنيها. فنحن وهم في هذا سواء. ويحفظون عددًا لا بأس به من أبيات شكسبير، وبعض آيات من الكتاب المقدس.

كانوا يبالغون في الحفظ. وكنا. وكان أجدادنا، نحن العرب، يعدون الحفظ أساسًا في العلم. فالعلم ما وعت الصدور لا ما وعت القماطر والدفاتر. كان رأسمال العالم ذاكرته. فإذا احتفظ في بيته بكتب كثيرة أخفاها خجلًا.

وجاء غوغل، وقبله جاءت الطباعة. وتغير وجه الدنيا. فهل انتفت الحاجة إلى الحفظ؟ ليس تمامًا. ليس معقولًا أن أراجع غوغل مئات المرات لكتابة مقالة عن نزار قباني. عليّ أن أحفظ له عددًا من الأبيات من هنا وهناك.

الحفظ ضروري حتى في الأرقام، ونعم ... في التواريخ. فأنا محتاج إلى حفظ سنوات كثيرة: قيام وانتهاء الحروب الكبرى، وسنة وفاة زعيم مهم، وما إلى ذلك. فهذا يساعدني في فهم العلاقات بين الأحداث. وفي اللغة؛ فالحفظ يساعد في ترسيخ الأسلوب. فهل نحفظ أشياء لا نفهمها؟ هذا عبث فيما أرى ... اللهم إلا إذا كان للتفكه ببيت شعر معقد أو عبارة رقيقة من عبارات النحاة. ذلك للتسلية. فهل نحفظ قصيدة طويلة للمتنبي؟ الأجدر أن نحفظ أبياتًا له متفرقة.

وتسألني: «وماذا عن حفظ ألفية ابن مالك؟» وجوابي: «لهذا الأمر ولأمثاله نسمي القرون الثمانية الماضية «عصر الانحطاط». ولست أظنك جادًا في هذا السؤال».

طريقة إتقان اللغة العربية مدرسيًا هي أن نُقرئ الطالب صفحات كثيرة: قراءة بريئة، قراءة محثوثًا عليها بالرغبة، قراءة بعينه يقرأها في بيته، وقراءة جهرية يقدمها في حفل خطابي أو في قاعة الصف، أو في تمثيلية، وقراءة أخرى متمعة مع شرح وتفسير لنصوص تاريخية أو حقوقية، فلا بأس أبدًا بأن يقرأ الطلبة بمساعدة المعلم نص مادة دستورية، أو معاهدة، أو نصًا صعبًا للجاحظ.

لكنني أحب أن أفصل عن كل هذه القراءات المدرسية نوعًا آخر أسميه «المطالعة». والمطالعة تبدأ من سنِّ الثانية. فجدير بالطفل في عمر سنتين أن يحمل الكتاب ويتفرج على صوره، وأن يتعود على وجود كتب في الدنيا. ويتدرج بعد ذلك. وجدير بالفتى في عمر الرابعة عشرة أن يطالع عشرات الكتب التي لا علاقة لها بالمدرسة ولا بنشاطات المدرسة. يمكن لمكتبة المدرسة أن تحته على ذلك بتوفير الفرصة، ويمكن للمعلم أن يقدم الإرشاد. ولكن، أين هذا المعلم؟ فإن توافر فهذا طيب، وإلا فلنضع بين أيدي طلبتنا الكتب الكثيرة. ولتركهم وشأنهم. سيطلع كثيرون منهم لا محالة.

ولماذا المطالعة؟ هناك طالب مبدع في الكيمياء ويريد أن يصبح صيدليًا. ارحمه يا أخي من العربية الجيدة التي صدعتنا بها!

الهدف من العربية الجيدة أن يتمكن الطالب -وفي سن مبكرة- من مطالعة الكتب والمقالات والمجلات والموضوعات المختلفة وبغزارة. الفصحى الجيدة ستساعد الفتى في سن مبكرة على أن يغترف مئات الصفحات من الكتب، وفي هذه الصفحات علم كثير وفن وأدب وفيها حياة ومجتمع ووعي. سيصبح مثقفاً، وعارفاً بشؤون دنياه. السنوات الباكرة التي يلامس فيها الكتاب العقل وهو طري تجعل الفتى ينشأ نشأة عقلية ومعرفية قوية. إن الذي يشتري الأراضي في وقت باكر يحصد الأموال الطائلة عندما يصبح سعر الأرض ناراً فيما بعد. وكذا الطفل الذي يبدأ القراءة باكراً، فهو سيتمكن من امتلاك مهارة القراءة السريعة، وسيضع أساساً متيناً يراكم فوقه الكثير من المعارف والتجارب. فأما إذا اكتفى بالمواد المدرسية المحدودة، وظل يخاف من الكتب غير المقررة، ويؤجل أمرها إلى حين دخوله الجامعة، فسوف يحافظ على خوفه هذا، وسيدخل الجامعة وهو هيّاب من الكتاب، وسيخرج منها وهو ضحل الثقافة. الصيدلي محتاج إلى الثقافة. محتاج إلى معرفة مجتمعه، وإلى أن يكون إنساناً واعياً. الصيدلي ليس آلة تركّب الدواء أو تبعه. هو أحياناً تاجر، وأحياناً نصف طبيب، وأحياناً خبير نفسي ولا سيما إن كان يعمل في مستوصف القرية، والصيدلي سيكون عضواً في نقابته وسيتعين عليه فهم قوانين البلد وقوانين المهنة. باختصار كل إنسان محتاج إلى المطالعة الحرة.

أحرام على الصيدلي أن يقرأ رواية لنجيب محفوظ أو لغسان كنفاني ويستمتع بهما؟

والعربية الجيدة ستمكّن التلميذ من قراءة الخبر والمقال والنقد الاجتماعي والسياسي على الإنترنت. وسيدخل في بعض التفاصيل التي تدور في المجتمع باكراً، وفي هذا ما فيه من تنمية الوعي الاجتماعي والسياسي.

ولن أزيد في هذا الحقل، فقد أوسعته حرثاً من قبل. غير أنه لن يفوتني التأكيد على الحاجة الماسة إلى تعلّم اللغة الأجنبية، وبشكل أفضل بكثير مما يتم الآن في المدارس. ولمن يرى رأي الجاحظ من أن اللغة الجديدة تُدخل الضيّم على اللغة الأم نقول: «حنانيك، فهذا ابن المقفع قبل الجاحظ بنحو مئة سنة كان يُحسن من الفارسية بقدر ما يُحسن من العربية. وهذا العقاد بعد الجاحظ بألف سنة كان يستقي جل معارفه الفكرية والعلمية والتاريخية من الكتب الإنجليزية، وكان من كبار الفصحاء في العربية».

الأصل اللغة الأم. كن قوياً في العربية، ولا تحمل هم اللغة الأجنبية فسوف تأخذ منها بقدر ما تحتاج بسهولة إن أردت.

أو ادرس اللغة الأجنبية واحترق لغتك، ثم عش حياتك وأنت ترقص على السلم.

مايو/ أيار ٢٠١٢

أنا وأنت واللغة الإنجليزية

أكتب شيئًا عن قضية من قضايانا الثقافية والتعليمية أم أنفق النصف ساعة المقبلة في تنظيف لوحة المفاتيح في هذا الحاسوب؟ لقد اندسَّت تحت مفاتيح الأحرف فتافيت خبز، وسنانيف من قشور بزر البطيخ الذي أتسلى به، وشعر وغبار. وصار الحرف لا يظهر على الشاشة إلا بعد جهد. بل أكتب في قضية ثقافية تعليمية. اكتشفتُ فجأةً هذا المساء أن غدًا الجمعة، وأنني يجب أن أسهر الليلة. فأنا أريد تضييع بعض الوقت؛ لهذا أكتب. فهل تريد إضاعة عشر دقائق معي؟ لعلك تكسب فكرة، ولعلك تتسلى.

أقدم لك القضية ثم أوراق اعتمادادي، ثم أسرح بك في حقل معشوشب بأفكار بعضها صيغ في لهجة التقرير الجازم، وبعضها وضع في خانة المشكوك فيه.

القضية هي نحن واللغة الأجنبية. وأقصد بنحن: العرب، وأقصد بالعرب: من شاء لهم حُسْنُ الطالع أو سُوءُه أن تكون العربية لغتهم الأولى.

أ يكون المرء مثقفًا ولا يعرف سوى العربية؟ أ يحسن بنا أن نتعلَّم اللغة الأجنبية، وأن ننفق وقتًا ثمينًا في هذا المسعى؟ أ من الحكمة أن نجعل اللغة الأجنبية لغة تدريس لبعض الدروس، أو لكلها، ولبعض السنوات أو لكلها؟

توقفت عن الكتابة، فتخزين للأسطر السابقة. لا بُد من تنظيف لوحة المفاتيح لأنني أدق الحروف فبعضها يظهر، وبعضٌ يستعصي، وأعود القهقري لأصلح الكلمة وتضيق الأفكار.

إن عدت إليك فهذا هذا، وستراه؛ وإن كانت الأخرى فيها أنا أكلّم نفسي.

تخزين.

عودة. أقول لك الحق: «وجدت تحت مفتاح الشفت الأيسر وحده مَزْبَلَةٌ». وأعفيك من وصف قلع المفاتيح واحداً واحداً ثم بعد ذلك تركيها.

هذه أوراق اعتمادِي: أنا ممن درّسوا في مدارس الحكومة. وقد تعلمتُ القليل من الإنجليزية شأن أبناء مدارس الحكومة في الأردن وفلسطين. وفي الجامعة درست اللغة العربية.

لستُ من الموهوبين لغويًا. (أطمئنك إلى أن لوحة المفاتيح تعمل بسلاسة عجيبة، وأصابعي فرحة وهي تجري فوق اللوحة - أقصد: السبابتان فرحتان - على أن الأفكار طارت أو كادت، وقد آتني بعد قليل بحفنة بزر لكي أعيد القريحة إلى سابق عهدها).

كنت أقول لك ضمن تقديمي أوراق اعتمادِي، وشهادة صلاحِي للكتابة في هذا الموضوع: إنني ابتعدتُ عن اللغة الإنجليزية، فأنا غير موهوب في اللغات أصلاً. واللغة الأجنبية في كل بلاد الدنيا موضوع يحبه ولد واحد في الفصل المدرسي، ويكرهه كل الأولاد (يكرهون الموضوع، ويكرهون الولد).

نظرتُ إلى الإنجليزية نظرتين: أولاهما نظرة «السكان الأصليين» الذين يتعلقون بلغة المستعمر. والثانية نظرة الطُلعة الشغوف بالتعرف إلى ما في العالم من أشياء. ومكثت هاتان النظرتان في نفسي حتى يومنا هذا. لن تخرج من ذهنية القابع تحت الاستعمار بخروج جيش الإنجليز من بلدك. بل تظل أنت وأولادك وربما أحفادك مستعمرين ذهنيًا. تظل ترى دولة الانتداب البائد المثل الأعلى. حتى اليوم عندي هذه العقدة، ولم أشهد الانتداب الإنجليزي بنفسه. ولو حفرتم قبري عندما أموت وأبلى وفركتم قِحفًا من أقحاف جمجمتي فسوف تجدون رائحة قوية نفاذة غير مستحبة، إنها رائحة تلك العقدة.

وبين حب التعلم وقوة التعلق بلغة أسيادنا السابقين رحت أنفق الساعات في مطالعة صفحات في الكتب الإنجليزية، وهَرَأْتُ ثلاثة قواميس. ظللت أسعى إلى أن تصبح إنجليزيتي كعربي. وعندما سمعتُ مرة أن ثمة سقفًا لا يتخطاه المرء في معرفته اللغة الأجنبية حزنت، لكن استرحت.

صرت أستفيد معلومات عن العالم أكثر فأكثر بتطور معرفتي بالإنجليزية، وهذا شجعني على المضي. وعندما كنت في الثالثة والثلاثين حصلت على وظيفة في لندن مترجمًا في إذاعة لندن التي كانت مهمة ومشهورة آنذاك.

وعشت في لندن قرابة عشر سنوات، عملت فيها مترجمًا ومذيعًا ومحررًا ومديرًا للبرامج. ثم عملت أربع سنوات في فلسطين مراسلًا للإذاعة نفسها.

فهذا دور جديد في معرفتي باللغة الإنجليزية، وفي معرفتي بحكايتي معها. فأنا الآن قد عرفت أكثر كيف أنظر إليها، وما الذي أريده منها. أنقثتها أكثر بلا شك، واقتربت من سقف قصوري. صار حفظ معنى كلمة معينة يقتضيني جهدًا أكبر. زاد إحباطي.

أنا أعرف الكلمة العربية الفصحى؛ لأنها ارتبطت بمعناها ارتباطًا لا انفكاك له في ذهني. فقد قرأتها صبيًا غافلًا عن أن اللغة وعاء، أو أنها عنصر من عناصر الفكر، أو أي شيء من هذا. قرأتها صبيًا يلهث وراء تفاصيل حكاية يريد أن يعرف آخرها، قرأتها وأنا مشحون بحب الاستطلاع، والتصقت الكلمة في ذهني بمعناها. وأعرف الكلمة العربية العامية؛ لأنها جاءتني في مواقف حياتية فرحتُ فيها وغضبت وحزنت ومررت بكل شعور. فالتصقت التصاقًا وثيقًا بوجداني. وعندما عاقرت الإنجليزية في بلادها عرفت من خلالها أشياء جديدة ومررت بمواقف جديدة. لكنني كنت تعديت الثلاثين. نعم، في بعض الأحيان تخطر المفردة الإنجليزية ببالي قبل العربية. ونعم، أفكر قليلًا بالإنجليزية. ولكن ستظل بالنسبة لي لغة أجنبية.

أقرأ بالإنجليزية، لكن ببطء. وأفهم كثيرًا، لكن ليس كل شيء. وترقص الأحرف أمام عيني، وأسرع أحيانًا في التهجي إذ لا تتراءى لي الكلمة صورة بل مجرد مجموعة أحرف. ولا أستغني عن القاموس إلا في قراءة خبير أو تعليق سياسي. هي أداة نافعة. أنتفع بها كثيرًا، وأوسع بها أفقي. ولكنني أفضل أن أنتظر صدور الكتاب مترجمًا بالعربية. أحيانًا أعرضُ على شفتي إن كان المترجم مهملاً. وأحيانًا أتوق إلى النص الأصلي لأعرف ماذا قال المؤلف بالضبط.

شقيت مع اللغة الإنجليزية وما زلت أشقى. ولأن معرفة هذا العالم تقتضي قراءة كتب كثيرة ومجلات وجرائد ومقالات بالعشرات في الإنترنت، فإنني محبط باستمرار لبطء قراءتي في الإنجليزية ولتعدد كثير من المفردات عليّ. أقول هذا وأنا من قضى عشر سنوات في لندن بدأها مترجمًا، وعاشها بالطول والعرض متعلّمًا قارئًا كاتبًا حاضرًا اجتماعات لا حصر لها، مشاهدًا التلفاز الإنجليزي، في زمن لم تكن فيه فضائيات عربية. فهل سينال جميع الناس فرصة العمل عشر سنوات في لندن؟ وإذا كانت هذه معاناة رجل نال هذه الفرصة فكيف نطالب كل مثقف عربي بأن يتقن لغة أجنبية؟ ليس كل مثقف فرنسي يعرف لغة أجنبية، وبالتأكيد ليس كل مثقف إنجليزي يعرف لغة أخرى. والياباني يتعلم علومه باليابانية، والألماني بالألمانية. كل إنسان يتثقف بلغته، وبها يتعلم. فإن كان عدد من مثقفي البلد محتاجًا إلى لغة أجنبية لغرض علمي أو ثقافي فهذا هذا؛ وإلا فالافتراض المنطقي هو أن الإنسان يكتفي بلغته الأم ويكون مثقفًا ومتعلّمًا كأحسن ما يكون. هذا في عدد محدود من البلدان. الأمر مع العربية مختلف بعض الشيء.

العربية ليس فيها كل شيء. هي أحسن حظًا من السواحيلية؛ لأنها أوسع انتشارًا وتجد فيها كتبًا كثيرة مترجمة عن اللغات الأجنبية. لكن أهل العربية قاصرون علميًا في عصرنا، وهم متخلفون في الفكر السياسي. تريد أن تقرأ مقالًا لفهم منه ما يجري في إيران فتجد مقالات لكتاب عرب، بعضهم متخصص في الشأن الإيراني، لكنهم لا يشفون غليلك. فإذا التمت شيئًا عن الموضوع بالإنجليزية فستجد تشكيلة أوسع وخبراء

أغزر علمًا وتجربة، ومقالات وكتبًا كثيرة عن إيران مترجمة عن لغات كثيرة. فالإنجليزية نافذة تنفتح على لغات كثيرة أخرى.

لو أنني حصرت نفسي في عقدي، لو أنني ظللت مصممًا على إتقان اللغة الإنجليزية كأهلها فقط لكي أشبه المستعمر البائد، لو أنني أردت هذه اللغة من أجل إرضاء شعوري الملح بأنني مثلهم، لو أنني أردتها لكي أتجمل بمعرفتها بين أقراني، لما انتفعت بها كبير انتفاع، ولما تعلمت منها سوى تعابير دارجة يكثر جريانها في المحادثة. لكنني نظرت إلى الإنجليزية النظرة الأخرى: أردتها أداة نافعة، فتعلمت مفردات الكتاب والجريدة، وفي هذه المفردات كثير مما لا يرد في الحديث اليومي مهما علا مستواه. كثيرة جدًا هي الكلمات التي لم يسمعها قط أبناء الإنجليزية بآذانهم ... بل عرفوها فقط بعيونهم على صفحة الكتاب.

فكيف نعلم الإنجليزية للطلبة في مدارسنا؟ وكيف ننظر إلى اللغة الأجنبية بوصفها أداة لتحسين أحوالنا والنهوض ببلادنا.

نقطة انطلاق أولى: اللغة الأم هي الأساس، ويجب أن تظل كذلك. والشعب الذي يهرب من لسانه لا يستحق أن ينتمي إلى نفسه، بل يجب أن يصبح خادمًا لشعب آخر.

الناطقون بالعربية، لغة أولى، ماضون في تعليم أولادهم في المدارس الأجنبية بحماسة كبيرة لكي يُشغلوهم سكرتيري السماصرة في شركات الاستيراد. والتعليم الحكومي ينحدر بنفس السرعة التي ينحدر بها وضع المعلم المالي والاجتماعي. والمدارس الأجنبية أو المتأجنية هي بالفعل أفضل تدريسيًا وأحسن تهذيبًا للطلبة من مدارس الحكومة.

لن نتحدث كثيرًا عن هذه الطبقة المتوسطة التي ترسل أبناءها إلى المدارس التي تحتقر اللغة العربية. هم يعرفون مصلحتهم. لا بد أن لهم سببًا حقيقيًا. إنهم يسIRON على بوصلة المصلحة، وهي خير لهم ولأولادهم من كل أفكار.

المجتمعات العربية تباع أثاث البيت: تباع موادها الخام، وتبيع موقعها الجغرافي، وتبيع حُلُمها بالنهوض مقابل سيولة مالية بسيطة تذهب للطبقة الغنية، وتستفيد منها طبقة وسطى تسعى بجد كبير للعمل سكرتيرة سمسار، فالطبقة الوسطى لن يتاح لأبنائها حتى أن يكونوا سمسرة. لهم فقط أن يكونوا محاسبين في البنوك الأجنبية أو المشتركة، وموظفين في الشركات والوكالات والجمعيات غير الحكومية، و مترجمين لمراسل تلفزيون السي إن إن أو للجيش الأجنبي المحتل، وكتبه عرضحال مودرن، أي كتبة مقترحات مشاريع تقدمها الجمعيات غير الحكومية للحكومات الأجنبية لنيل فتات من المساعدات. أما السمسرة الحقيقيون فهم حفنة من كبار الأغنياء يقومون ببيع البلاد العربية بيعة وكس، أي بثمان بخس، للأجنبي.

كان الانتداب البريطاني جاذبًا في تعليم الفلسطينيين لغته لكي يعملوا وسطاء بين الجيش المحتل وبين الناس. وكان يعلمهم ما يفهمهم فحسب. ولم يسع إلى ضمهم إلى ثقافته؛ ذلك أن مسح لغة شعب من السنة أبنائه وإحلال لغة أخرى محلها أمر يحتاج إلى مئات السنين، والمستعمر الإنجليزي - بخلاف الفرنسي في الجزائر - لم يرد ذلك أصلًا.

رأيت عربًا يتصببون عرقًا جاهدين في تعلم اللغة الإنجليزية. رأيت منهم من يصارع ذهنه ولسانه كي ينطق بها كما ينطق بها أهلها. وكلهم

رأيت سقفه. فأما العربي الذي وُلد ونشأ في بلاد أخرى فهذا ليس موضوعي. عليه أن يجاهد في الاتجاه المضاد، هذا إذا أراد.

أريد أن أعتذر عما أسرفت فيه من الحديث عن نفسي، فليس هذا مما أراه في المقالات المحترمة. على أنني أشفع الاعتذار بسبب: قد اتخذت تجربتي في هذا الموضوع أداة لفهمه.

مرة أخرى، ماذا نريد من اللغة الأجنبية؟ نريدها وحسب. لكن لا بأس من فهم حاجتنا إليها. الحاجة السمسارية قائمة. وعندما سيسألني زميلي أحمد غداً عن ولده سأقول له: «ضعه في مدرسة إنجليزية، واحرص على تعليمه بعض العربية في البيت»، فسكربتير السمسار محتاج إلى العربية أيضاً. دعه يتعلم من الإنجليزية عبارات المحادثة اليومية، وليتعلم في الجامعة -في إحدى الجامعات المستوردة- تعبيرات البنزنس. وأما شكسبير والفلسفة والكتب السياسية والفكرية العميقة فلن يحتاج إليها، ولن يحصل عليها.

أنا أدرك أن الطبقة الوسطى معها حقٌ في الاهتمام بإنجليزية أبنائها أكثر من اهتمامها بتعليمهم العلم والفن والأدب. ونهوض بلادنا لن يتم في المستقبل المنظور.

خريجو المدارس الأجنبية يكتبون الإيميلات بالإنجليزية بطلاقة، فإذا كُلِّفُوا بكتابة رسالة من سطرين بالعربية أخذوا يلففون من مكتب إلى مكتب يلتمسون واحداً «شاطرًا بالعربي». وإنجليزيتهم، بالمناسبة، أحقر من أن تتيح لهم فهم مقال لروبرت فيسك.

قد كنتُ وعدتُ أن أمسك عن ذم سكرتاريا السماسرة، وآن أن أفي؛ ليس لأنني قضيت شهوتي من هجؤهم، فهي شهوةٌ نار، بل لأنني أريد أن

أتكلم عن سواد الناس، عن خيارات الناس الآخرين، وعن خيارات الحكومات، وأهل التخطيط.

ما تقوم به المجامع اللغوية ليس تافهاً، وإن نال فوق نصيبه من سخرية المثقفين والجهلة جميعاً. في دمشق والقاهرة والرباط علماء ولغويون جادون، وهم يطبعون المعاجم في شتى العلوم، ويسعون إلى التعريب سعيًا حثيثاً - وأحياناً سريعاً - وهم معتدلون، يأخذون اللفظة الأجنبية إن كان لا بد من ذلك، ويضعون عليها جرس اللغة العربية، ويحاولون إيجاد بديل عربي. لكنهم، على سرعتهم، لن يستطيعوا اللحاق بالتطورات التقنية. ولا فائدة من تسمية هاتف بلاك بيري بالعليقة لأن هذا الهاتف سيندثر بعد حين، ولأن الاسم تجاري، ولأنه هكذا يعرف في كل العالم. ولا حاجة لتبديل كلمة الجلفنة، وهي الطلاء بالزنك، ووضع كلمة أعرايبة مكانها، فالكلمة منسوبة إلى الإيطالي لويجي جالفاني.

المسألة ليست تعريب الألفاظ الجديدة. فحتى الأكاديمية الفرنسية التي صيغ على مثالها، واتخذ لقبها، «مجمع الخالدين» بمصر، تقف مبهورة الأنفاس أمام المفردات الجديدة التي لا تفتأ تغزو اللغة الفرنسية رغم غيرة القوم الشديدة على لسانهم. العالم يقترب بعضه من بعض، واللغة الإنجليزية أصبحت الوسيط اللساني الأول لكل الدنيا. وهي تأخذ من اللغات الأخرى بسهولة، ولا تنكر على المخترع اختراعه، ولا على المكتشف اكتشافه، فما اكتشفه العرب في الفلك دخل الإنجليزية بأسمائه العربية، والمآكل والملابس الفرنسية تأخذ في الإنجليزية أسماء فرنسية.

إقبالنا على الإنجليزية أو إدبارنا عنها منوطان بالهدف من وراء ذلك. حسنٌ أن يتقنها عدد كبير لكي يترجموا لنا العلوم. وحسنٌ أن يتقنها الطبيب لكي يواصل تطوير معارفه، وحسنٌ أن يتقنها المثقف حتى يقلع عن رصف العبارات الغبية. فأنت تعلم أن من يتقن لغة أجنبية يتورع عن كتابة كلام غثٌ بليغته. فهو يرى، وإن في عقله الباطن، كلامه مترجمًا ويرى كيف أن كلامه المنمق يصبح سخيفًا عندما ينقل إلى لغة أخرى. وحسنٌ أن يتقنها كلٌ من يعمل في الدبلوماسية وفي التخطيط وفي مجال الطيران، وفي تصليح السيارات. قد عدنا إلى القول: «إن كل عربي يجب أن يأخذ من الإنجليزية بنصيب».

الإنجليزية البسيطة التي لا تقتضي لإتقانها جهدًا كبيرًا يجب أن تصل إلى كل تلميذ مع نهاية المدرسة. وهذا الشخص قد يقف في دراسته عند هذا الحد. فإذا فتح الإنترنت ليتثقف أو ليتسلى عرف كيف يعالج التنزيلات والتحديثات، وعرف طريقه وسط غابة الإنترنت. وإذا عمل في تصليح السيارات تمكن بما عنده من إنجليزية المدرسة من فهم دليل الشركة الصانعة للسيارة، واستطاع أن يتعامل بسهولة مع البشر، فهو قد يذهب إلى ألمانيا لإحضار سيارة مستعملة - شيء كانوا يفعلونه كثيرًا في النصف الثاني من القرن العشرين - فعندئذ سيتمكن من التفاهم مع الناس هناك دون أن يزعج الطلبة العرب في ألمانيا ويجرحهم وراءه كي يترجموا له.

والطالب الجامعي مطالب - مهما كان تخصصه - بالتقدم أكثر في الإنجليزية. مطالب بأن يتمكن من قراءة خبر في جريدة، مع استعمال القاموس. ومطالب بأن يتمكن من شرح مرافق جامعتة لضيف أجنبي بكلمات بسيطة، ومطالب بأن يستعمل الإنترنت بشكل أوسع من الذي

وصل إليه عند نهاية المدرسة. خَرَّيج الجامعة -حتى لو كان من تخصص اللغة العربية- يجب أن يمتلك من الإنجليزية ما يكفي لحشره في زمرة المتعلمين. والجامعي الأعلى من درجة البكالوريوس، مُطالَبُ أكثر؛ ومن يحصل على شهادة الدكتوراه يجب أن تكون إنجليزيته جيدة لكي يستطيع التقدم في علمه، حتى حامل الدكتوراه في النحو العربي لا يستغني عن نظريات لسانية مهمة موجود عنها الكثير في الإنجليزية وليس مترجمًا منه إلا القليل. أفهم أن يكون حامل الدكتوراه الأمريكي لا يجيد غير لغته، ولكنني لا أتقبل حامل دكتوراه عربيًا لا يعرف سوى لغته العربية. فالأمريكي الذي يحمل دكتوراه في الكمبيوتر أو الهندسة أو الأدب الإنجليزي يستطيع أن يطور علومه وأن يتدع في مجالاته الجديد من خلال لغته الإنجليزية، فأما العربي فهو لن يجد الإضافات العلمية الحديثة باللغة العربية، ولا يحسن به الانتظار سنوات طويلة حتى تترجم هذه الإضافات.

الذي يحمل دكتوراه في الشريعة يُدعى إلى مؤتمرات مهمة ناطقة بالإنجليزية، طبعًا يوفرون له ترجمةً فورية في الجلسات العامة، ولكن أهم ما في المؤتمرات تلك اللقاءات الصغيرة على هامش المؤتمر في قاعة الشاي وفي المطاعم، وعلى مائدة الإفطار في الفندق. هذه هي التي تعقد أواصر المعرفة العلمية بين الناس، ويجري فيها أحيانًا تبادلُ الأفكار بشكل أفيد مما يجري في الجلسات العامة، ثم إنك تعرف أن الترجمة الفورية تعرض لك جثة الموضوع لا جسمه.

الشاعر معفى من إتقان أية لغة غير لغته. اذهب أيها الشاعر وتغنَّ بلغتك حتى تشبع.

هناك درجات في إتقان اللغة الأجنبية. ومفيد أن تعرف ما تريده من هذه اللغة. ومن المهم أن تبذل الجهد مدفوعًا بالسعي إلى نيل الحصة المطلوبة التي تفيدك في حياتك، وألا تكون مدفوعًا بعقدة النقص. فعقدة النقص تجعلك تركز على ما هو سطحي.

تحدثت فقط عن الإنجليزية لأنها أهم وسيط عالمي. انظر فقط إلى لبنان وكيف يتحول إلى الإنجليزية على حساب الفرنسية. هذا والفرنسية وسيط قوي بالطبع، وتقرب منها الإسبانية. لكنني لا أنصح أحدًا بإنفاق وقته في تعلم الألمانية. قد فعلت هذا، وأضعت بضع سنين، ورغم أنني ترجمت إلى العربية كتابًا عن الألمانية لم يكن متاحًا بأية لغة أخرى وكان ضروريًا لطلبتي أيام كنت أعلم في جامعة، فإنني أزعم أن استفادتي منها لا تساوي جزءًا من تعبتي في تعلمها. فإن كنت تعيش في ألمانيا فهذا هذا؛ وإلا فلا تتعب نفسك.

لا نطالب العربي بأن يتقن الإنجليزية إتقانًا كبيرًا. ذلك غير ميسور إلا إذا عاش في بلد يتكلمها. يكفيه أن يأخذ منها النصيب الذي يساعده في عمله وبحثه.

من واجب المدارس أن تعقد ورشات المحادثة، وأن تعطي الطلبة القصص والحكايات البسيطة بالإنجليزية بغزارة، وأن تنسى حكاية القواعد. بالله عليكم لا تحاولوا تكرار مصيبتنا في تعليم النحو العربي.

كان المعلم يصدع رؤوسنا بمصطلحات النحو الإنجليزي؛ ثم ذهبنا إلى بلاد الإنجليز ورأيناهم لا يعرفون منها شيئًا، لا المثقف يعرفها ولا رجل الشارع. نحن في نحو لغتهم أبرع منهم، هذه حقيقة، لعلك سمعتها

من قبل، اللغة شيء غير القواعد. نقول لواقع منهاج الإنجليزية في مدارسنا: ضع وسائل توضيح تجعلهم يسمعون اللغة الأجنبية في سياق حيوي، واجعلهم ينطقون عباراتها عن طريق الترداد والتنغيم، ترداد جماعي أو فردي، واجعلهم يتحادثون بها في ألعاب بسيطة، واجعلهم يقرأون حكايات ونوادير بالإنجليزية، وعيّن لتدريسها معلّّمات ومعلّمين يتقنون التمثيل ولديهم روح فكهة. وليكن هؤلاء المعلّمون ممن يفهم أن الإنجليزية مجرد أداة، وأن الهدف ليس الوصول إلى مرتبة أهل اللغة. صحيح أن من الجيد أن تجعل الطلبة يتعرفون على بعض المظاهر الحياتية والحضارية في البلاد الناطقة بالإنجليزية، ولكن لا تنس أنه يوجد هنا لغم.

نحن نريد اللغة الإنجليزية لتفاهم مع الماليزيين، والصينيين، والإنجليز. نريدها أداة. ولسنا مغرمين بحضارة الإنجليز بأكثر من غرامنا بحضارة الإسبان. لا، ليس مجدياً أن ينفق التلميذ وقته وهو يدرس عن ساعة بيع بن، وعن قصر الملكة، وعن تاريخ الملك هنري الثامن.

نعم، وبوقاحة، نريد أن نتعلم اللغة الإنجليزية ولسنا مهتمين جدًا بتعلم حضارة أهلها. هكذا تريدني أن أقول؟ فهذا قد سمعتها.

أنا رجل معقد. أعرف الكثير عن مراسم تنصيب الملك في بريطانيا، وعن افتتاح البرلمان، وعن تبديل الحرس وكل هذا. ولا أعتبر كل هذه المعارف ذات قيمة. فقط أنا أغدّي بها عقدتي التي سأموت عليها.

لكن، يهمني من جهة أخرى أن يستعمل أبناء بلادي اللغة الإنجليزية في التعرف إلى مساوئ ومحاسن النظام السياسي في بريطانيا وفي الهند وفي كل مكان. أما شكسبير والأدب الإنجليزي المعاصر فهو يهمني بقدر

ما يهمني الأدب الفرنسي والجنوب-إفريقي. ولا أومن بأن المرء يستمتع بالأدب استمتاعاً كاملاً بلغة أجنبية، والشعر بالذات عَصِيٌّ على المرء في اللغة الأجنبية. فاللغة الشعرية لها تقاليد عجيبة.

نسمع بيت شعر عربياً:

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حَدِّه الحدُّ بين الجد واللعب

فتثور في قلوبنا مشاعر. نحن قوم في مواجهة مع الروم، والمعتصم لا يُلقِي بالآلما وجده المنجّمون في «كتبهم». تعود إلى عقولنا قصة «وامعتصماه». ونشعر بمتعة فنية في هذا الجنس الكامل بين (الحدُّ والحدُّ)، وما يمازجه من جناس ناقص بين (الحدُّ والجدُّ)، ونشعر بلذة الطباق، أي التضاد في المعنى، بين الجد واللعب. وتلذذ بأسلوب التمييز في (أصدق إنباءً)، فهو غير كثير الدوران في الشر. هذا عن التاريخ والبلاغة. ونحن نتذوق وزن الشعر العربي، مع أننا في هذا العصر فقدنا هذه الحاسة كثيراً. هذا البيت يشبه في وزنه نوعاً من المواويل العامية. خذ بيتاً لأحمد فؤاد نجم:

يا بحر قل للسّمك طول ما الشبك فوقك

لا العشق كارك ولا رمل الشطوط شوقك

هذا من البحر نفسه، البسيط. ولو قرأ العربي بيت أبي تمام السابق ببعض التنغيم لشعر بوزنه، وتلذذ به.

كل هذه الأشياء في الشعر تضيع في الترجمة. وحتى لو قرأ الأجنبي البيت بالعربية فهو لن يتذوقه كأهل اللغة.

فلا تتعب نفسك بشكسبير في لغته الأصلية. يضيع عمرك يا هذا! ولا تقرأ من أدباء الإنجليز بالإنجليزية من يتفنن في استعمال اللغة فيحمل المفردات أكثر من معانيها المعجمية. حسبك سومرست موم؛ فهذا الأديب، وأظن أنني قرأت ثلاثة أرباع ما كتبه في حياته التي امتدت إلى ما بعد التسعين، ولد في فرنسا ونشأ ينطق الفرنسية، وانتقل إلى إنجلترا صبيًا. فعندما صار يكتب الروايات والقصص القصيرة بالإنجليزية كتب بلغة سلسة وبدون التواءات بلاغية..

منهاج المدارس للغة الإنجليزية -وهو موضوع لم نغادره بعد- يجب أن يسمح بهامش واسع من التفاوت. فمن الطلبة من هو موهوب لغويًا ومنهم العكس. ولا يجوز لنا أن نربي في نفوس أبنائنا عقدة من اللغة الأجنبية. هذا يعطل تحصيلهم في العلوم الأخرى. ويجعل غير الموهوب لغويًا ينفق ساعات طويلة وهو يدرس اللغة الأجنبية على حساب الرياضيات التي قد يكون موهوبًا فيها.

نأتي إلى مسألة مهمة هي تدريس العلوم بالإنجليزية. هذا معناه ببساطة أننا لا نعترف بلغتنا. هذا معناه أننا نجهز لغتنا للذهاب إلى المتحف. هذا يعني أن اللغة العربية يجب أن تموت قريبًا.

كان اسم كتاب الأحياء كتاب الأحياء، ثم طبعوا طبعة جديدة وسموه كتاب البيولوجي، ثم في طبعة أخرى كتاب البيولوجيا، وشحنوه شحنًا بالكلمات الإنجليزية. السبب الرئيسي أن مؤلفي الكتاب الجديد درسوا في أمريكا، وهما ضعيفان في اللغة العربية، وليس عندهما نظرة تربوية.

كل غدة لها في العربية اسم أصيل أو مُعَرَّب. فالدرقية درقية، والنخامية نخامية. لماذا نريد إلغاء هذه الأسماء؟ ثم إن هناك أسماء لاتينية كثيرة اصطلاح العلماء على استخدامها، فنحن نستخدمها مثلما يستخدمها كل البشر، هي مصطلح علمي، وقد نستخدمها بحروف لاتينية إن لم تكن رُسِّخت وجودها في العربية. وهناك المعادلات الكيميائية ورموز العناصر؛ هذه جربنا تدريسها بالعربية في مصر، ووجدنا أن هذا يعطل التحصيل العلمي للطلبة فيما بعد. فالأفضل هنا استعمال الحروف اللاتينية.

لا نريد تذكير الشرق والغرب بأن الرياضيات علم له في اللغة العربية قدم ثابتة، نريد فقط أن نقول: «إن تدريس الرياضيات بالعربية يجعل الطالب أقرب إلى فهمها. ويجعله يحترم لغته أكثر؛ لأن هذه اللغة تحمل علومًا، وليست لغة دين فقط». رأيانهم يدرسون الطب بالعربية ويفلحون. ويذهبون إلى الخارج ويكملون دراسة الطب بلغات أخرى ويفلحون. لم لا؟ على الأقل يكون الطبيب قادرًا على شرح الأعراض لمرضاه بلغة يفهمونها، ولا يرطن لهم بكلام غريب عنهم، والطبيب صاحب مهنة اجتماعية. فليدرس الطبيب الطب بالعربية مع تقويته بالإنجليزية لكي يقرأ ويزداد علمًا. الناس تثق بالطبيب الأجنبي منذ ألف ومائتي سنة على الأقل: يخبرنا الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). أن أسد بن جاني الطبيب العربي كسدت صناعته رغم تفشي الأوبئة، فسئل عن ذلك فقال: «أما واحدة، فأني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي «أسد» وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا».

فهل نريد تخليد هذه الصورة؟

نحن اليوم أيضًا نثق بالطبيب المسيحي -ويستحسن أن يكون أجنبيًا أيضًا- أكثر من ثقتنا بالطبيب المسلم؛ ذلك لأن المسيحيين أغزر علمًا وأصدق لسانًا من المسلمين. هيا انصبوا لي المشقة على هذه الكلمة، لكنها كلمة قلتها وأنا مؤمن بها.

هذا أمر لا يتعلق باللغة. هذا شيء في التربية. هذا سببه مختلف. سببه أن المسيحيين العرب تلقوا تعليمًا أفضل، وتلقوا تربية أفضل في بيوتهم، وعلمهم أهلهم الصدق أكثر مما علم المسلمون أولادهم الصدق. فإن عمل المسلمون بالحديث الشريف: «إياك والكذب ولو مازحًا» فقد حلوا نصف المشكلة، وإن ازدادوا علمًا في الطب فقد حلوا النصف الثاني. وليس للغة العربية شأن في الموضوع. إنها لغة عظيمة تستطيع أن تحمل كل علم.

نحن العرب لا نملك الكثير من المعرفة، وحتى نملك الكثير يجب علينا أن نستعمل لغتنا نحن. يجب أن نحترمها، وأن نستعملها، وأن نعلمها لأبنائنا، وأن نجعلها أداة من أدوات نهضتنا.

لو كان استبدال المرء بلسانه بمثل سهولة استبداله بجوربه المثقوب لقلتُ لنا جميعًا: «فلتتكلم الإنجليزية بقرار رسمي ولنبدأ في الأول من يناير/ كانون الثاني العام المقبل». لكن اللغة ليست الغلاف فقط؛ إنها الغلاف والكتاب معًا.

بلغم

حضرات القراء الكرام، قد لا تعرفون كتابة مقالة كمقالاتي هذه؛ لأن الموضوع لا يستهويكم، أو لأن بعض الكلمات التي أستخدمها غير موجودة في قاموسكم الذهني، أو لأن الأفكار الموجودة في هذه المقالة لم تخطر ببالكم، أو لأنها -وهذا شيء وارد جدًا- تمثل بالنسبة إليكم صدمة. لكنكم، بالتأكيد لن تجدوا في مقالاتي صعوبة من ناحية النحو والصرف، ولن تجدوا أنني تقيّدت أصلاً بالنحو والصرف.

ومقالاتي هي عن النحو والصرف والبلاغة والعروض، وهي أيضًا -وهذا هو الأهم- عن مفردات اللغة العربية. والباعث لي على كتابة المقالة باعث الغيرة على اللغة. فهل يمعن الذي يغار على اللغة في تجاهل قواعدها؟

ربما عليّ في البداية أن أشرح طبيعة غيرتي. أنا غيور على اللغة العربية غيرة نفعية، فليس في قلبي غضب على من يحتقرونها من أبنائها، وليس عندي حينئذٍ إلى اللغة في عهودها الباكّة، ولست شديد التمسك بصفاتها ونقائنها، ولست -في مقالاتي هذه- مولعًا بالترنم بكلمات اللغة العربية، ولا التمتع بمخارج حروفها، ولا التلذذ بنطقها نطقًا جميلًا معبرًا.

الآن مهمتي مختلفة. مهمتي أن أكتب إليكم كتابة فيها تكسير لبعض المفاهيم، وفيها ترتيب لبعض الأفكار. ولكم -وقد أحسستم أنني أطيل

كثيراً في المقدمات - أن تنصرفوا عني وتكفوني شر تعليقاتكم وانها ماتكم.
ولكم، أيضاً، أن تمضوا معي في هذه الرحلة القصيرة.

غيرتي على اللغة العربية غير انتفاعية. أغار على هذه اللغة لأنني أحب أهلها، فأهلها هم أهلي. وأغار عليها لأنني أحب نفسي. أريدها لغة حية زاخرة بأساليب التعبير القوية التي تنقل إلي وإلى أبناء وطني العربي العلوم والفنون. وأريدها لغة غنية بالكلمات السهلة والصعبة، والأصيلة والمقتبسة من اللغات الأخرى. أريد من اللسان العربي أن يخدمني. ولأن النحو والصرف يمنعان الكتاب من التعبير بحرية عن كوامن نفوسهم، ولأنهما - أي النحو والصرف - يجعلوا المتكلمين يتعثرون في كلامهم، ويجعلوا الكاتبين قليلي الثقة في صحة ما يكتبوا، أريد التخلص من تعقيدات النحو والصرف. وبالطبع ليس هناك لغة بدون قواعد. ولكنني لمست أن قواعد اللغة العربية كما نعرفها وكما ندرسها في المدارس تشكّل للناس عقدة.

أنا لا عقدة عندي، بسبب ما أخذت به نفسي من انكباب على هذين المبحثين، ولأنني اشتغلت مديعاً ردحاً من الزمن. ولكنني كنت أعاني من العقدة النحوية حتى سنّ معينة، وقد علّمتُ اللغة العربية ولمست وجود هذه العقدة عند الطلبة أيضاً. أقول: «لمستُ» وجودها، وكأنها شيء صغير يتلمسه المرء. هل «يلمس» الإنسان وجود المحيط الهاديء؟ أو جبال الهملايا؟

لعلكم لاحظتم أنني أضع الهمزات بشكل صحيح فوق الكلمات. ولكنني سأحاول أن أجبر نفسي على «الغلط» وأن أهمل الهمزات بقدر ما أستطيع. فهذا شيء آخر أريد تكسيره.

إلى الجحيم أيضًا بالنحو والصرف. ويسارع بعضهم إلى اتهامى بعدم احترام اللغة العربية. مستعدًا لاستقبال التُّهم. وقد يسارع بعضهم إلى اتهامى بالدعوة إلى العامية. لم يعد يهمنى هذا الاتهام. ليس مهمًا عندي العامية والفصحى، ولا ضبط النحو. لكن، لا أريد تفتيت اللغة العربية إلى لغات. لهذا لست من دعاة العامية، وإن كنت من دعاة الاقتباس منها بكثرة. وهذا بالطبع موضوع شائك؛ لأن العاميات في العالم العربي كثيرة ومليئة بالكلمات المحلية. ربما أقتبس قليلًا فقط من عامية بلدي فلسطين، وكثيرًا من عامية مصر لأن العرب كلهم يفهمونها، وكذلك عامية لبنان والشام. فقط ما يهمنى أن يكون كلامي مفهوماً.

ولعلك لمست من سياق حديثي أنني ما زلت محافظًا على الفصحى! بشكل عام الفصحى لغة سهلة وتؤدي المعاني وتخدم الأفكار، ولهذا لا أريد التخلي عنها. لكن النحو لا يخدم الأفكار ولذلك أريد تكسيه. هكذا ببساطة. هو قيد غير نافع، قد يكون قيدًا من الحديد الصديء أو من الذهب اللامع، لكنه قيد، وهو غير مفيد.

وسأتوقف لحظة للدفاع عن الحرف العربي. لقد قرأت كتيب محمود تيمور المتأفف من صعوبة الطباعة بالحرف العربي، وأزفُ إلى الكاتب المصري الكبير وهو في دار الحق بشرى: لقد جعلت برامج الحاسوب الطباعة بالحرف العربي أسهل من الطباعة بالحرف الإنجليزي، نم هادئًا. وقرأت كتاب أنيس فريجة الذي دافع فيه عن العامية ودعا بحرارة إلى الحرف اللاتيني؛ لأنه يسمح لك بتمثيل لفظ الكلمة بدقة. وردي عليه هو: نحن لا نريد هذه الدقة أصلاً؛ لأن كلماتنا العربية تعتمد على الأحرف الصامتة كأساس وتأتي الصوائت تنغيمات عليها. أعني بذلك أن العرب

ينطقون الفتحة والكسرة والضمة بأشكال عديدة بحسب مناطقهم، وكانوا طول عمرهم ينطقون الحركات بحسب قبائلهم.

كتب اللغة تقول لك في ياء كلمة «يكتب»: إنها مفتوحة، وتقول لك أيضًا: إنها مكسورة في لهجة عربية فصيحة. وأريد أن أطرفك بكلمة أخرى: كلمة «حر». اسمع هذه الكلمة باللهجة السورية. «حر». انطقها لنفسك واسمع الحركة الموجودة فوق حرف «الحاء». هل سمعت؟ هي حركة غريبة حقًا: إنها مزيج فريد من الضمة والكسرة والفتحة. تخيل نفسك ممثلًا سورّيًا في مسلسل من تلك المسلسلات السورية ... وقل: «أنا حر». لعلك لاحظت أن «الحاء» تحتل الحركات الثلاث في الوقت نفسه. هي مخيرة إلى هذه الدرجة.

ولماذا نشغل أنفسنا بالحركات. لينطق كل شخص الكلمات بطريقته. أقول هذا وقد عملت نحو سبعة عشر سنة من عمري في محطات إعلامية يعمل فيها الموريتاني والمغربي بجانب المصري والفلسطيني واللبناني والخليجي. ووجدت كل أولئك الزملاء يتفاهمون بعربية بسيطة، ووجدتهم يقتربون بكلامهم من منطقة وسطى يتلمسونها بالحدس، وبلا عناء.

زاملت سيدة مصرية، وكان يدور بيننا كلام. يحسبها السامع عندما تكلمني فلسطينية، ويحسبني عندما أكلّمها مصري؛ ذلك أن مستوى اللياقة ومراعاة الآخر فيما بيننا كان كبيرًا، فكأننا كنا نتبادل هذه المجاملة اللطيفة، ودام ذلك بضع سنوات.

أقول لأنيس فريحة وهو في دار الحق: «نم مطمئنا. لا نريد الحرف الأجنبي لكي يضبط حركاتنا، ولا نريد حتى وضع تشكيل على كلماتنا. لا

يلزمنا. نحن نلفظ الكلمة الواحدة بطرق كثيرة، ولم لا ما دمنا نتفاهم». يا أخي بين العراق وليبيا آلاف الكيلومترات، وبين فرنسا وألمانيا نصف كيلومتر، فهل تشك في أن العراقي والليبي يتفاهمان بالعربية لو التقيا في طائرة؟ وهل تشك في أن الألماني والفرنسي لا يتفاهمان ولو تساكنا في غرفة إلا أن يتخلى أحدهما عن لغته.

حرفنا العربي من مزاياه أنه مختصر، ومن مزاياه أيضًا أنه يقدم لك الكلمة وحروفها مشبوكة بالآخر فترى الكلمة وكأنها «صورة». انظر إلى كلمة «سبب» وكلمة «سبع». فكلمة «سبب» شكلها مثل الشخص المستلقي على الشاطئ، وكلمة «سبع» شكلها مثل رجل جالس فوق السور ويدلّي رجله. بلاش! يكفي أن توافق معي على أن تشبيك الحروف في كل كلمة يعطيها «صورة» مميزة. إنني لأزعم أن التقاط عينك للكلمات العربية أسرع من التقاط عين الإنجليزي للكلمات الإنجليزية. وبالطبع فإن إقامة برهان تجريبي على ذلك أصعب من مجرد تأييده بحجة عقلية.

أنا أدعو إلى الحرف العربي بشدة، هذا حرف يناسبنا وكفى. وأرجو ألا نتيه في صحراء المقارنة بيننا وبين الأتراك عندما ألغوا الحرف العربي وشرعوا يكتبون باللاتيني.

نحن نتمنى بالطبع -على الأقل أنا أتمنى- أن نحطم التعلق بالكثير من إرث الماضي، لكن لا أرى ذلك عن طريق حيلة ميكانيكية مثل التخلي عن الحرف العربي. كما أنني لا أتمنى تحطيم التراث نفسه، فهذا صنيع من لديه عقدة نفسية. أحب التراث وأؤمن أنه حديقة رحة جميلة... لكنها الحديقة الخلفية للمنزل التي زرنا فيها الورد والفل والياسمين، ولكنها لا تنتج شيئًا

نضعه على مائدتنا. ومن قال: «إن كل حديقة يجب أن تثمر شيئًا يؤكل؟» وهكذا التراث.. فهو مجال استرخاء، وتفكير، وفيه منافع نفسية، وروحية.

لقد حشرت في مقالتي هذه من الأخطاء في النحو وفي كتابة الهمزة بقدر ما استطعت. لكنني أحسست أن لغتي ظلت فصحي، ولم أحس بأنني مكبل في التعبير عن أفكاري. أريد تقديم دليل على أن النحو لا يساعد في الفهم، بل هو زينة.

سيقول بعضهم: النحو زينة جميلة، فلماذا تزعم أنك تحب التراث لأن فيه الجمال والاسترخاء... إلخ، ثم ترفض النحو بحجة أنه زينة؟! أقر بأن هذه بحاجة مقبولة. ولكنني، في حالة النحو أدرك مقدار ما يسببه من إعاقة، وأدرك أنه زينة مصطنعة كأزهار البلاستيك التي مضت عليها بضع سنين في المزهرية فأفصحت عن بلاستيكيها.

أنا مستعد لقبول الحلول الوسط، ومستعد لقبول مقدار معين من النحو القديم، شرط أن يكون سهلًا سلسًا.

الذين يدعون إلى العامية يقولون لك: «الفرنسية والإيطالية والإسبانية كانت عاميات للغة اللاتينية، ثم استقلت وأصبحت لغات». ونحن نقول: «والعاميات الألمانية الكثيرة تتلاقى وتتقارب وتشكل لغة ألمانية فصحي يفهمها الجميع». ونقول: «أنت تقرأ كتابًا أمريكيًا وآخر بريطانيًا، ولا تكاد تشعر بوجود فارق في اللغة». ومثلما فُرقت العصور الوسطى اللغة اللاتينية إلى لغات فإن العولمة بمقدورها أن تجمع عددًا من اللهجات في منطقة وسطى. والمدار في ذلك على المنفعة.

ولنا منفعة كبرى في أن تكون لغتنا ذات متكلمين كثر، فهذا ينشط عملية نقل العلم وعملية التواصل. وحتى في المسلسلات التلفزيونية ستجد قريباً عدداً أكبر من المسلسلات التي يختلط فيها الشامي بالمغربي. لست حريصاً على الوحدة العربية بأي شكل أيديولوجي. حريص فقط على أن أظل قادراً على الانتفاع بما ينتجه كل العرب من أدب ومن علم؛ لهذا أقول لهم جميعاً: «لا تدعوا النحو والصرف يعطلانكم عن التعبير. اكتبوا وانسوا الممنوع من الصرف، فهذا لا يعيق التواصل. لكن، نريد للغتنا العربية أن تكون غنية بالمفردات. ونريدها لغة دقيقة في المعاني، لا في النحو والصرف».

لا نخوض في الشعر كثيراً ولا في الغناء. بل نقول: «أجمل شيء أن يكون للمطرب وللشاعر كل الحرية، وليأت الطوفان». وستفعل الظروف، التي ليست بيدنا ولا بيد كل مجامع اللغة، فعلها؛ هذه الظروف مثل عوامل الطبيعة التي لا نستطيع التحكم فيها.

كما تستطيع المعدة استيعاب الحلو والحامض والدمسم والتعامل معها كلها في نفس الوقت يستطيع دماغ الإنسان أن يضم أشتات اللهجات واللغات. فإن كنتم فعلاً تؤمنون بأن الله نزل الذكر وأنه كفيل بحفظه، فاتركوا حكاية تجميد اللغة والإصرار على العودة بها إلى نقائها الأول. فلن تعود. وسيظل الناس يعبرون عن أنفسهم بأساليب مستحدثة وكلمات جديدة، وستظل الكلمات تخلق وتموت. ومثلما مات جدك ورحت تصفق كفاً بكف مدعيًا الحزن ونقول: «الموت حق!» عليك أن تصفق كفاً بكف، أو كفاً بخد - أنت حر - ونقول: «كذلك المفردات في كل لغات الدنيا... تولد وتموت. وكذلك قواعد النحو والصرف فإنها تولد وتموت».

الشيء الذي أريد للعربية أن تنهض فيه: المفردات. في الإنجليزية وضعوا مسردًا للكلمات يعرف بـ «بيسك إنغلش» أي «الإنجليزية الأساس»، وجعلوا مسردهم مكونًا من ٨٥٠ كلمة، وزعموا أن معرفة هذا القدر من المفردات يكفي للتعبير عن كل شيء. والمسرد موجود على غوغل، فقط اكتب بالأحرف اللاتينية (Basic English) وستراه أمامك.

ونأتي إلى لغتنا العربية. لقد أحصى المستشرق فرايهر هامر بورغشتال في كتابه المنشور في فيينا عام ١٨٥٤ والموسوم بـ «داس كاميل» أي (الجمّل) ٥٧٤٤ كلمة في اللغة العربية تتعلق بالجمّل وحده. فهل يمكننا الاحتفاظ بكل هذه «الثروة» اللفظية؟ لا، بل من الأفضل لي أن أحفظ الكلمات الـ ٨٥٠ في «إنجليزية الأساس» لكي أعبر عن نفسي بتلك اللغة. افتح القاموس الوسيط أو المنجد وقرأ بضع صفحات، وستجدك أمام لغة ميتة.

حياتنا المعقدة تجعلنا نحتاج إلى كلمات كثيرة لكي نعبر عن دقائق المشاعر، وعن المعلومات الكثيرة. نحتاج إلى عدد كبير من المفردات أكثر من الـ ٨٥٠ كلمة التي هي كلمات «إنجليزية الأساس». نحتاج إلى ثروة هائلة من المفردات. لكننا نريدها ثروة فعالة وحيّة. ونريد أن نكتفي من آلاف الكلمات عن «الجمّل» بكلمتي جمّل وناقّة.

بالطبع يحتاج البدوي إلى كلمات أكثر مني تخصّص الجمّل. ويحتاج المهتمين بالخيّل إلى كلمات كثيرة عن الحصان. والبناء يحتاج إلى كلمات كثيرة تعبر عن اختصاصه، وقد نقبس، نحن الناس العاديين، بعض هذه الكلمات ونردها. قال لي البناء عندما بنى لي بيتًا: إن «الشمعة» ستكون في وسط الصالة. وعرفت أن «الشمعة» مصطلح يقصد به العمود

الإسمتي. واستمتعت بالكلمة، ولا أزال؛ وشقيت بتلك الشمعة اللعينة، ولا أزال.

لا بد لكل حرفة من مفردات، ولا بد لهذه المفردات من أن تتغير مع الزمن: ينقرض بعضها، ويولد بعض. ولا بد للغة المثقف من كلمات تعبر عن بعض المفاهيم، يقول لك المثقف: «لئن أفضت قاعدة سد الذرائع إلى التضييق، فإنها ساعدت المجتمع المسلم في الحفاظ على هويته». فهذا المثقف استعار من أصول الفقه عبارة «سد الذرائع»، التي يقصد بها عدم القيام بعمل مباح لأنه ذريعة ووسيلة للوقوع في الحرام. وقد ينقل بعضهم عبارة «سد الذرائع» إلى السياسة، والاقتصاد. والعبارة مؤدية وموجزة. ومثلها عبارة «المستطيع بغيره» التي قرأتها عند المعري واصفاً حالته في كفٍّ بصره، فهو مستطيع أن يؤلف ولكن بمساعدة من غيره، ولعله أخذها من الفقه حيث هناك المستطيع بغيره وهو الشخص الذي يرسل من يحجّ عنه لعلّه تمنعه من الرحلة إلى مكة. وأذكر أنني في تقرير إذاعي استخدمت عبارة: «بعد اعتقالهم سيقوا إلى مقر المخابرات لكي تُبلى سرائرهم». وكان أجدر بي أن أقول: «لكي يتم التحقيق معهم»، ولكن المرء يحب أن يزين كلامه، وأن يتفاح. ولا بأس ببعض ذلك شرط أن يؤدي إلى نفع، وتلوين في التعبير. لستُ ضد قليل من الحذقة.

نريد عربية عامرة بالمفردات المعبرة، قوية من حيث التفريق بين المعاني المتقاربة. نريد عربية فيها تفريق بين (الانشاء واللذة والحبور والفرح واللهفة والمتعة والسرور والانبساط والغبطة والسعادة والبهجة). وما يحدد المعنى الدقيق لمثل هذه الكلمات المتقاربة هو الشعر، أو الشر الوجداني. اللغة التي فيها الكلمات الأساس فقط لغة كسيحة وجدائياً. ولا

أريد للغتنا العربية تبسيطًا تكسيحيًا في المفردات. بالطبع أريد لها أن تضع آلاف الكلمات الميتة على الرف، وأن تتجدد. وأريد لها أن تغترف من هذا الرف بعض الكلمات لكي تلبسها معاني جديدة، فمثلما فعل القديم عندما استعار لفظة «العقيلة» ومعناها الناقة المربوطة بحبل، وجعلها تعني «الزوجة»، يمكننا استعارة كلمات أخرى وإلباسها معاني جديدة. وأريد أيضًا للعربية أن تستعير بلا وجل من اللغات الأخرى.

لا نريد للغتنا أن تكون باهتة. نريدها غنية أدبيًا، وعفوية علميًا. وقد أفلحنا في تسمية «الأتوم» الإفرنجية «الذرة»، وسمينا البار تكل فيزيكس «فيزياء الدقائق». من الممتع أن نساعد لغتنا في استيعاب العلوم والمخترعات بأن نستقي من القديم. فكلمة «ذرة» مثلًا معناها الأصلي «النملة الصغيرة». ومن الممتع أيضًا أن نترك لغتنا تستقي الكلمات الأعجمية بحرية، وأن نلاحظ بعين نصف مفتوحة كيف تطوّر لغتنا الألفاظ الأجنبية بعض التطويع لكي تناسب النطق العربي، فكلمة «هوسبيتال» صارت اسبيطار، ثم نجحنا في إحلال الكلمة العربية «مستشفى» محلها. وكلمة «كاثيتير» صارت «قسطرة». وهو تعريب طريف وجميل.

عندما ننشط علميًا وطبيًا، ونعلّم العلوم بالعربية، ويكون لدينا إعلام جيد، ويكون لدينا طبقة كبيرة من المتعلمين، ستأخذ المفردات أماكنها وستستقر بعض استقرار، وستزيد، وستكون اللغة العربية أجمل وأغنى.

نحن نرى كثيرين يقولون: إن «عمّي أجرى عملية أوبن هارت». وهم بالتأكيد يعرفون أن اسمها عملية «القلب المفتوح». هم يتفلسفون طبعًا، ويستعرضون ما يعرفون من كلمات أجنبية. لا نريد تشديد النكير عليهم، خصوصًا عندما يتجنبون ذكر أسماء بعض الأمراض بالعربية ويستعملون

الكلمة الأجنبية. هذا مفهوم تمامًا، فنحن نهرب من اسم المرض الصعب ونعبر عنه باللغة الأجنبية. هذا شيء، والتجمل بإدخال كلمات أجنبية شيء آخر.

عندي فكرة أثيرة رددتها كثيرًا. فإن كنت من قرائي فاقفز فقرتين.

الإنسان محتاج إلى تلقي كميات هائلة من المعلومات في مستقبل حياته. محتاج إلى مطالعة المجلات والجرائد، والكتب، وتصفح مواقع الإنترنت الكثيرة والمنوعة، كل هذا وهو ما زال في سن التلمذة. وكلما بدأ مسيرة الاطلاع باكراً كان أحسن. حتمًا، سينسى كثيرًا من المعلومات، ولكنه سيفتح خانات كثيرة في دماغه ويجعلها قابلة لاستيعاب المزيد والمزيد. قد يقرأ كتابًا معينًا وهو في الخامسة عشرة مثلاً، ويعود إلى الكتاب نفسه وهو في الثلاثين، فيكتشف أنه يقرأ الكتاب وكأنه لم يفتحه أبدًا من قبل. فهل ذهبت القراءة الأولى هباء؟ لا. في الواقع أنه وزع معلومات الكتاب، على مدى السنوات التي تفصل بين القراءتين، على أماكن كثيرة في دماغه، وانمحت صورة الكتاب الأصلية من ذهنه، ولكن معلوماته وأفكاره تحولت إلى عناصر أخرى. لقد هضم الكتاب في المرة الأولى، وساعده الكتاب في تنمية عقله. غير أن صفحات الكتاب تفرقت في مناطق مختلفة من وعيه. وفي القراءة الثانية يقوم بعملية مشابهة. ولا بأس على المرء أن يقرأ الكتاب الجيد مرتين وثلاثًا.

ما زالت اللغة خير وعاء لاستقاء المعلومات. فمجالسة الناس والسياحة والرحلات لن تفتح للتلميذ أبواب الأيديولوجيات المختلفة، ولن تجعله قادرًا على معرفة فكر الإمام الغزالي وفكر جون ستيوارت ميل، والنقد الأدبي لطله حسين، ولن تجعله يعيش في أجواء روسيا القيصرية من خلال

روايات تولستوي، ولن تدخله في العوالم الغريبة التي خلقها عزيز نيسين وجلال أمين وجاك لندن، وجورج أورويل. أريد من الفتى العربي أن يعرف هذه العوالم. الثقافة العالمية رحبة، ومن البؤس أن يكتفي الفتى بمناهجه المدرسية حتى لو كانت ممتازة، ومن البؤس أن يكتفي بالتجارب الحياتية التي تأتيه من السفر والبيع في دكان أبيه. المنهج المدرسي يعطيك الأساسيات، وأقل من الأساسيات، وهو في الغالب أغبى من أن يتعرف على الأساسيات. والعلم -سواء أكان المعلومات العلمية أم الأجواء الأدبية أم التعرف على النفس البشرية- يأتيك من مصادر كثيرة. وكثير من هذا العلم الذي تستقيه في صغرك يكون عن طريق اللغة الأم.

ومن أكثر الأشياء تضيقاً للدماغ وتضيّعاً لفترة الطفولة والشباب أن تنحرف عن لغتك الأم، وتتخذ اللغة أجنبية لغة دراسة في المدرسة. فاللغة الأجنبية ستوفر لك معلومات المنهاج الدراسي وبعض القصص المبسطة. وستوفر لأهلك مجالاً للتفاخر بأنك: «ضعيف في العربي، بس ما شاء الله ممتاز في الإنجليش!» الذي يهمل لغته الأم في مستقبل عمره يخسر هذا الدفع الهائل من المعلومات التي تنحرف في ذهنه وهو صغير. يخسر الجريدة، ويخسر الكتب المتنوعة، ويخسر انتماء لقومه. وهذا البعد الوجداني الانتمائي مهم. فالطفل الذي يبدأ مسيرته الحياتية باحتقار لغته، واعتبارها مجرد لهجة يستعملها في البيت ويشتم بها أقرانه يخسر اعتزازه بقومه وبتاريخه. الطفل الذي ينظر إلى لغته الأم كلهجة «سكان محليين» يخسر شموخه. ولغتنا العربية كانت بالنسبة للمستعمر الفرنسي والبريطاني مجرد «لهجة هؤلاء السكان المحليين»، وظل المستعمرون -وليوم الناس هذا، نعم ظلوا حتى الآن- يتعاملون مع الفصحى كلغة نصف ميتة،

ويصفون لغة مصر بأنها «عربية مصر»، ولغة سوريا بأنها «عربية سوريا». ونحن نقول: «لا، بل الفصحى لغة كبيرة وعظيمة. وفيها وسائل رائعة للتعبير عن خلجات النفس، وعن العلوم، وهي قادرة، ومرنة، وهي أيضاً ذات تاريخ».

واقف هنا لكي أرددًا لطيفًا على مقولة لأنيس فريحة فصلها تفصيلًا في كتابه الرائد نحو عربية ميسرة الذي نشره سنة ١٩٥٥. يقول فريحة: «إن من الغلط العلمي أن نعتبر العاميات المختلفة مشتقة من الفصحى، بل هي لغات قائمة بذاتها. ويؤيد كلامه بحجج جيدة».

المسألة دقيقة. ولكي ننظر إليها بعين واعية يحسن بنا أن نقارن. يقولون لك: في الهند ألف لغة. والناس لا يتفاهمون مع بعضهم إلا بالاتكاء إلى الإنجليزية، أو إلى لغة هندية وسطى تتغير من مكان إلى آخر. ونحن في العالم العربي عندنا لغة وسطى للجميع. وهي ببساطة الفصحى. ولست أقصد بالفصحى تلك اللغة التي كتب بها مصطفى صادق الرافعي، بل أقصد اللغة التي تقرأها في الجرايد. مهما اقتبست عامياتنا من اللغات العتيقة كالسريانية، ومهما اتكأت إلى لهجات قَبْلِيَّة قبل -إسلامية، فإن الفصحى هي المحور.

لقد وافقت -بعد قليل من العناد- أنيس فريحة على مقولته بأن نحو اللهجات العامية مستقل عن نحو الفصحى. فعلاً، لو كنت أريد التحدث بالعامية مع شخص أُمِّي لكنت استعملت طرقاً في التعبير شديدة الاختلاف عن هذه العبارات التي تقرأها الآن في مقالي، ولكنك قلبت مواضع الكلمات، ولكنك عبّرت عن نفسي بأنصاف جُمْل، وليس بجُمْل مفيدة. وهذا شأن كل العاميات في الدنيا.

على أنني متمسك بالفصحى جدًا. ليس بإطارها النحوي الدقيق -فها أنت تراني أحشر الأغلاط النحوية عامدًا- ولكنني متمسك بسياقها في ترتيب الكلمات وصولاً إلى التعبير بحرية وانطلاق. متمسك بالفصحى لأنها وعاء المفردات.

سلّمت لفريحة بأن قواعد العاميات مختلفة عن قواعد الفصحى. ولكنني ما فتئت منذ صفحات أقول: إن النحو زائدة دودية. والإعراب وتشكيل أواخر الكلمات ظفر طال.. ومن الخير تقليمه. إذن فماذا بقي من الفصحى؟ بقيت المفردات.

ومن تجربتي مع اللغات الأخرى فإن إنفاكك الوقت الثمين في تعلم القواعد ليس جيدًا. اعرف مفردات اللغة، وسترتب القواعد في ذهنك بالتدرّج. وفي اللغة العربية يكفي أن يعرف الطفل معاني الكلمات في سياقات جميلة... في قصة وحكمة وشعر، وسيقرأ كثيرًا، وسيكتسب القواعد وحده. لتكن قواعد العاميات المختلفة مستقلة تمامًا عن قواعد العربية الفصحى، فيكون ماذا؟ مفردات العاميات العربية هي ابنة الفصحى. وكلما ارتقى المرء قليلًا في تعليمه واختلاطه بالآخرين استعار من الفصحى مفردات أكثر. الفصحى هي الخزان الكبير للمفردات. وأريد لها أن تبقى، وأن تتوسع في هذا المجال. الفصحى هي معجمنا، وهي محورنا الثقافي. وما يعطلها بعض التعطيل أولئك المتمزتون الذين يشترطون أن ننتطق بالفصحى مشكّلة تشكيلاً كاملاً، والذين يريدون العودة بها إلى أساليب تعبيرية ميتة، وإلى مفردات ميتة.

حتى بعد كل هجومي السابق على النحو والصرف، وبعد كل أغلاطي النحوية في هذه المقالة، فإنني أريد من ابن اللغة العربية أن يعرف المتنبي

ومحمود درويش ونزار قباني. نقول: «علّموا الطفل العربية، واجعلوه يقرأ بها، ويحبها». ثم يأتينا، ويأتيكم، المتمزمتون الذين يربطون النحو والصرف حجرَ طاحون في رقبة الطفل ويقولون له: «هيا نتعلم العوم».

أريد لفتيان بلادي أن يستعملوا العربية، وأن يكتبوا بها كثيرًا ويعبروا عن أنفسهم. معلى خليفهم يغلطوا في القواعد وفي الإملاء. ومعلى خليفهم يكتبوا شوية عامي وشوية فصحي. لكن، بالتأكيد عندما يداومون على المطالعة، وعندما يستمتعون بالقصص القصيرة ليويسف إدريس وبروايات نجيب محفوظ، وبكتابات الماغوط وروايات الطاهر وطار فسوف تستوي الفصحى على ألسنتهم وأقلامهم، وتصبح جميلة. وقد يستمر بعضهم في «ارتكاب» الأغلاط النحوية، ولكن لغتهم ستكون غنية.

وماذا عن اللغة الأجنبية؟ هي في رأيي ضرورة. ويجب على المدارس أن تعتني بها، وبلا قواعد، فمعرفة قواعد الإنجليزية لا تساهم في فهمنا لها. المدخل السهل للغة الأجنبية هو القصة. قصص قصيرة جدًا، تضعهم على طريق الفهم. وليحفظوا معاني الكلمات. لكن بالتأكيد ليس باستعمال قاموس إنجليزي-إنجليزي كما يفعل الأساتذة الكرام في طول العالم العربي وعرضه. ما هذا البؤس؟ يريدون لنا أن ندرس الإنجليزية بدون الاستعانة بلغتنا الأم؟ هذه سفاهة. وأفيدكم بأن الألمان ليست عندهم هذه العقدة. هم يعلمون أولادهم الانجليزية بقواميس ويكتب فيها الإنجليزي والألماني معًا. لماذا نصرُّ على تعليم الإنجليزية بالإنجليزية؟ لماذا نريد من التلميذ أن ينغرس في لحم اللغة الأجنبية انغراسًا؟ عقدة الخواجا أيها السادة، لا غير.

بالطبع يجب تعليم الإنجليزية بالاستناد إلى العربية. ليس فقط لأن الألمان يفعلون ذلك. بل لأن عقل النملة يدرك أن هذه هي الطريقة الأسهل. ويجب أيضا أن تكون العربية هي المرجع، وأن تبقى هي السيدة في عقل التلميذ ووجدانه. إنها اللغة التي يستقي بها زاده العقلي للمستقبل. سنعيش عقودًا من الزمن ومعنا في مجتمعاتنا العربية بضعة آلاف من المشوهين وجدائيًا الذين أصرَّ أبائهم -وأصرت أمهاتهم أكثر- على تحقير اللغة العربية في نفوسهم. سنعيش مع هؤلاء بضعة عقود صعبة حتى يموتوا.

يصرُّ لبنان على أن يعيش دور الوسيط بين الشرق والغرب. ويريد أن ينسى الفصحى وأن يتقن الإنجليزية؛ ذلك أن الفرنسية تراجعت هناك الآن. حسنًا، هذا شغل ... بنس. هذا دور تجاري سمسري يُدرُّ ربحًا، ولبنان سعيد به. وكفي تكون سمسارًا جيدًا يجب أن تنخلع من عمق التراث، وأن تتقن التسويق. ولبنان بلد صغير. معليش، ليكن له ذلك. والأردن يريد ذلك. ومصر تريد، والمغرب يريد. كل العرب يريدون أن يكونوا سماسرة. حسنًا، فماذا سيبيعون؟ المصنع الجيد يكون فيه ألف عامل ومدير تسويق واحد. فلماذا يريد كل عربي أن يجعل من ولده سمسارًا؟

كل العرب يريدون أن يكونوا سماسرة. والغرب (أوروبا وأمريكا) والشرق (الصين وروسيا) جميعًا يريدون مصالحهم عندنا، يريدون البترول، والحديد، والفوسفات، ويريدون سرقة العقول أيضًا. فإذا نبغ عندنا شخص أخذه. وسفارة كندا وأستراليا وفرنسا تشتغل على هذا الأساس، يريدون الخبرات. ونحن نؤهل أطفالنا للهجرة، أو -لمن تتعسر

عليه الهجرة- للبقاء في البلاد العربية لخدمة البلدان المتقدمة ومساعدتها في امتصاص خيرات بلادنا.

نريد أن نخلق الثروة داخل مجتمعاتنا، وأن نتاجر مع العالم تجارة ندية. نبيعهم ونشتري منهم بموازين معقولة. لا أن نبيع كراسي البيت للحصول على أساور بلاستيك.

نريد أن نكسر عقلية السمسة. وهي عقلية قديمة جدًا في أعماق نفوسنا. فالعربي في صحرائه لم يكن يجد مجالاً إنتاجياً واسعاً. فالنيق تنتج الحليب في أجسامها، والعشب ينتجه المطر القليل، والتمر على نخلاته. فاشتغل العرب في التجارة. ينقلون التوابل في قوافل. واشتغلوا بالغزو كوسيلة مناسبة لتوزيع الثروة في أيام القحط خاصة. ومنذ القديم احتقروا الحدّاد بقدر احترامهم السيف الذي يصنعه ذلك الحدّاد (ديوانا جرير والفرزدق عامران باحتقار مهنة الحدادة). وقد استمرت هذه الحال في بوادي الشام والعراق. كانت المهنة المحترمة مهنة القيادة: قيادة المجتمع عبر الوظائف. كان المهم «المنصب». لأن الناس في هذه المدن كانوا محكومين من أطراف خارجية. كان بنو عثمان يرسلون الحكام الإداريين إلينا لكي يشكلوا مع بعض الفقهاء وبعض المتعلمين طبقة حاكمة، تمامًا مثلما كان المماليك طبقة من البشر لا شغل لها إلا الحكم والإدارة. ظل الإنتاج شيئًا محتقرًا. فأنت أيها التريزي، والنجار، والفلاح، مجرد «دهقان» تنتج لكي تدفع الضرائب، ولكي تأكل من القليل الذي يبقى لك. لقد استمرت علاقة الدهاقين بالحكام حتى اليوم.

الذي يخلق الثروة في المجتمع يخلقها وهو سجين ضمن قوانين تجعله لا يتحكم في توزيعها. ولا رأي له. هو فقط مسخّر. وقد شهدت

بنفسي انقلابًا جميلًا لهذه الحال في سنوات الطفولة. فقد تحسنت أحوال «الدهاقين»، وكان بينهم أبي الذي كان يملك مخيطة. كانت مراتب موظفي الحكومة ضئيلة، ولم تكن الظروف السياسية مهينة كي تسلب الدولة الدهاقين ثرواتهم عبر ضرائب كبيرة. وصار كبار موظفي الدولة يعيشون عيشة متوسطة، بينما أبي أوسع منهم رزقًا. ولم يكن يندر أيامئذ أن ترى تاجرًا أحسن حالًا من وزير. وقد روت لي أُمِّي أن الأسرة المالكة الأردنية كانت تعاني من ضيق الحال في عمَّان عاصمة الأردن، في الثلاثينيات. كان عصرًا انتقاليًا شهد زوال الحكم التركي وبدء انتداب بريطاني أعقبه اغتصاب يهودي لقطعة كبيرة من أرض فلسطين. وبسرعة عاد العرب إلى غادتهم مع حلول الاستقلال في الأردن. فقد تكونت منظومة الحُكَّام الذين يجمعون ثروات البلديين أيديهم عن طريق الضرائب أو الأشكال الجديدة التي تسمى الفساد: الاستفادة من معلومات سرية بشأن التطوير العقاري لشراء الأراضي بسعر بخس وبيعها بسعر كبير، والسيطرة على الوكالات التجارية، وأخذ عمولات على السلاح، وشفط أموال الدعم الأجنبي بعدة طرق.

إن عقلية السمسرة ليست مسألة ذهنية بحتة، فالأمر كما أوضحْتُ في الفقرة السابقة منوط بواقع اقتصادي وسياسي. كان هارون الرشيد يقول للغميمة: «ذهبي أنى شئت، فخراجك لي»، والحاكم العربي اليوم يقول لرواشنطن: «سأبيعك موطن قدم في بلدي مقابل كاش أحصل عليه وأوزعه على فئة من الناس محيطة بي، وسأبيعك ولائي السياسي وخامات بلدي، ولا بأس بسرقة العقول؛ فأنا لا أهتم بوجود مستشفيات جيدة في بلادي، وعندما يمرض أحد من الفئة المحيطة بي فسوف نرسله للعلاج عندكم».

سأعود في فقرة أخيرة إلى الموضوع الرئيسي للمقال.

آن للغة العربية أن تصبح أداة في سبيل التعلم، وفي سبيل التجذر. وهي محتاجة في سبيل ذلك إلى التخلي عن كل ما هو قشري. رأيت شخصاً ذا منصب مهم يبالغ في تقريع موظف عنده لوجود غلط إملائي في خبر منشور على الموقع الإلكتروني للمؤسسة. والخبر كله مصوغ بطريقة بائسة وفيه دجل ومعلومات خطأ. ولكن ما لفت نظر السيد المدير هو الخطأ الإملائي. كثير من أخبار التلفزيون والراديو قيء. لكنه قيء صحيح من ناحية النحو والصرف.

وكثير من «العلم» في كتب المدارس والجامعات بلغم. وخير منه الجهل. وكثير من الوسطية والاعتدال رخاوة فكرية وخَوَر وجبن.

إبريل / نيسان ٢٠١٢

توفل عربي

المشهور الآن أكثر من التوفل امتحان الآيلتس البريطاني. وهو معتمد في ١٣٠ دولة. وما زال التوفل الأكثر اعتمادًا في أمريكا. وكلاهما ببساطة: امتحان مستوى معياري في اللغة الإنجليزية.

ومشهور عن اللغة الإنجليزية أنها تتغير باستمرار، وهذان الامتحانان الدوليان يواكبان التغير الحادث على اللغة. ومشهور عن الإنجليزية أن عامياتها تزحف على الفصحى باستمرار، وهذا أيضًا يؤخذ في الاعتبار. لماذا لا يوجد آيلتس عربي؟

السبب هو أن الامتحانات اللغوية المنضبطة بمعايير معلومة يجب أن تستند إلى أبحاث وقواعد معلومات مدروسة لدى جامعات محترمة كي تنال الثقة. فالآيلتس الشهير يستند إلى جامعة كيمبردج، والتوفل انطلق من ستانفورد. فهل هناك جامعة عربية محترمة؟

هل هناك أصلًا اتفاق بين العرب على مستوى صوابي معتدل ومغاصر؟

سننظر نحاول أن نفرض على لغتنا قيودًا وضعها القدماء. سننظر نحاول الاحتفاظ بالمنوع من الصرف، وبكثير من قواعد النحو بقوة دفتر العلامات، وبقوة الطاقة الرجعية الكامنة في نفوسنا. ولكن المنوع من الصرف سيذهب إلى الجحيم قريبًا، وستصحبه في هذه الرحلة غير الميمونة قواعد كثيرة لا لزوم لها.

عن الكسائي والأخفش أن من العرب من كان يصرف كل ما لا ينصرف. وقد صرف الكسائي سلاسلًا، وقواريرًا، وبالتنوين، وهو من أصحاب القراءات، وسوى ذلك فثلاث قراءات أخرى فعلت فعله. وقريش جاءت منصرفه، واحتالوا لها بأن «قريش» اسم جد القبيلة. لا جرم، فالقرآن نزل قبل أن «ينزل» النحو.

دنيا العرب تتصحّر: الأرض تتصحّر، وازدياد الفارق بيننا وبين البلدان المتقدمة هو تصحّر معرفي، ونسبة الزيادة السكانية تصحّر، وازدياد التعصب تصحّر. وفي هذه البيئة المتصحرة، ينشعب العرب شعبتين: شعبة تكفر بكل القيم، ولغوياً تكفر بالفصحى وتروّج للعامية، وشعبة تريد أن تعيد اللغة إلى سابق عهدها. والشعبتان تعانيان من مشكلة، فالعاميات المختلفة فيها تبديد للجهود المعرفية، وفيها إفقار للغة. ولأضرب لك مثلاً على ذلك: لو أعدتُ كتابة هذا المقال باللهجة العامية، لفقد كثيرًا من أفكاره، ولاستعصى عليه التعبير عن كثير من الأمور. والعودة إلى اللغة القديمة فيها أيضًا إفقار للغة وتبديد للجهود المعرفية. فلو كتبنا مقالاتنا بلغة الجاحظ، لاضطررنا إلى التنازل عن كثير من الأفكار؛ لأن لغة الجاحظ تناسب زمنه، ولا تنهض بعبء معارفنا الآن. وبين هاتين الشعبتين المتطرفتين، هناك طريق ثالث، وهو في زمننا طريق واسع ويسلكه الكثيرون، وهو اللغة السهلة، المعاصرة، التي لا تعقيد فيها، والتي لا تحشد المفردات العتيقة، ولا تستخرج من بطون النصوص الأساليب القديمة. هذا الطريق يسلكه كُتّابُ المقالات في المواقع الإلكترونية وفي الجرائد، والمتحدثون عن شتى القضايا في التلفزيون والراديو في بلدان العرب المختلفة.

لا حاجة بنا إلى انتظار استقرار اللغة العربية؛ فلن تستقر، ولن تستقر أي لغة أخرى في العالم.

قبل أن تبادر جامعة أوروبية «محترمة» بوضع امتحان مستوى في اللغة العربية، جدير بنا البحث عن مثل هذا الخيار عربيًا. ولماذا؟ فقط تجنبًا للفضيحة.

فهل هناك جامعة عربية «محترمة»؟ دعونا نستني الجامعات «العربية» التي تدرّس العلوم والطب بالفرنسية والإنجليزية، فهذه الجامعات لا خير فيها، وهي لا تثق بالعربية. ونستني أيضًا الجامعات العربية التي يتخرج منها طلبة قسم اللغة العربية وقد حفظوا بضعة أبيات من ألفية ابن مالك، وعندما يشتغلون في المدارس والجرائد، تراهم يخطئون في أبسط الأشياء. هذه الجامعات لم يصلها بعد الخبر بأن اللغات تتغير. الجامعة التي لا يتمتع قسم اللغة العربية فيها بالعنفوان والمعاصرة ولا يجرؤ على أن يمسك باللغة من قرنيها ويتعامل معها ببراعة، لا تستحق أن تصنع امتحان مستوى للغة العربية.

هل بقي شيء أيها السادة؟

انسوا الجامعات. هل أنا بحاجة إلى تذكيركم بمقياس شنفهاي للجامعات المحترمة في العالم؟

ولماذا أصلًا نريد امتحان مستوى في اللغة العربية؟ هل نريده تذكرة دخول إلى الجامعات العربية؟ ألم نقل: «إن الجامعات العربية لا تستحق أن ننظر في شأنها في هذا الموضوع من الأساس؟»

كثرت علامات الاستفهام. لكن، السؤال ملحٌ، ولا بد من تكرار علامة الاستفهام الأولى: «لماذا نريد امتحان مستوى في اللغة العربية؟»

هل نريده للأجانب الذين يريدون الالتحاق بالجامعات العربية؟ الأفضل أن ننصحهم بعدم الالتحاق بهذه الجامعات.

هل نريده للصحفيين الذين تقتضي مهنتهم إتقان اللغة والتعامل معها بيسر؟ حسنًا، ثمة حاجة في هذا المضمار.

المطلوب من الصحفي أن يعرف من النحو والصرف ما يكفي لكتابة وإلقاء خبر أو تقرير، أو إجراء مقابلة بلغة فصحي سليمة. ومطلوب منه أيضًا أن يعرف من مفردات اللغة الكثير. فلئن كان يكتفي في أدائه الصحفي بعدد محدود من المفردات، فهو بحاجة إلى معرفة أكثر من ذلك بكثير حتى يقرأ الروايات والتحليلات الاقتصادية والسياسية وكتب التاريخ والعلوم ليكون حسن الثقافة.

ومطلوب من الصحفي، ثالثًا، أن يكتب كتابة حسنة، واضحة، خالية من الثثرة، تصيب الهدف وتصل إلى المعنى من أقصر طريق.

وثمة متطلب رابع، يقتصر على المذيع والمراسل الناطق، وهو ذلاقة اللسان بالفصحي، والتحدث بسلاسة وبسرعة معقولة وببديهة طيبة. فهل يمكن اختبار ذلاقة لسان الشخص؟

كل شيء ممكن إذا عرفنا الهدف النهائي.

هناك اختبارات أخرى يمكن صوغها لقياس المعلومات العامة، وقياس المعلومات السياسية، وقياس البراعة التحريرية. وهي ليست

موضوعنا الآن. فنحن هنا نتحدث عن اللغة وقياس البراعة فيها. وقد انصرفنا عن الجامعات انصرافاً يائساً قبل قليل. واتجهنا إلى مهنة الإعلام. التوفل والآيلتس مفيدان لغرض معين، وليس لكل غرض.

بعد جهد بذلته في البحث والتأليف والتعليم ورياضة النفس، وإزالة خباثتها أيضاً، توصلت إلى شيء يشبه أن يكون مقياساً معقولاً للقدرات اللغوية للإعلامي. ولعلك تطالبني بشرح خباثات النفس!

قد علقت بذهني شوائبٌ جمّة وأنا في طريقي إلى تعلّم ما تعلمته من قواعد النحو والصرف. فجمعت معلومات جانبية كثيرة، هي إلى تبرير الشواذ أقرب منها إلى نصب القاعدة. وكلما ازداد إتقاني للنحو، ازدادت مطالبتني للشباب بأن يتقنوا أكثر. صرت تقليدياً. غير أنني في الوقت نفسه رأيت تياراً من الكفر بالنحو يسير في جهة مختلفة من عقلي. وكتبت كثيراً في هذا الموضوع. واختبرت حقيقة مشاعري كثيراً. ورضتُ نفسي على الوصول إلى وسط مقبول.

إصرار الأكاديميين على السلامة المطلقة للغة إصرار أناني. فهم قد تعبوا في اكتساب هذه المعلومات ويريدون الاحتفاظ بمواقعهم في هذا الكهنوت الذي اسمه النحو. فهل لي أن أتخلص من هذه العقدة؟ ساعدني في التخلص منها أنني لم أغرق إغراقاً في حفظ قواعد النحو. وظللت أسبح قريباً من الشاطئ. وساعدني أنني رأيت كبار النثرين في لغات أخرى، من صحفيين وأدباء، يقتنصون من قواعد النحو ما يكفيهم لا أكثر.

ولو قيّضت لي بضع سنوات أخرى قبل الألزهايمر الممكن، لوضعت خريطة مفصلة لتوفل عربي للإعلاميين يتناول النحو، والمفردات،

والكتابة الحسنة، وذلاقة اللسان. الفائدة الخفية من وضع هذا المقياس أهم من الفائدة المباشرة. فأما الفائدة المباشرة فهي أنه يساعد المؤسسات الإعلامية في التحقق من المستوى اللغوي لمن يتقدم للعمل بها. ولكن الفائدة الخفية تتمثل في نصب مستوى صوابي جديد ومعاصر ومرن، وفي تعريف الطلبة والفتية بما هو مهم في اللغة. وثمة فائدة خفية أخرى، وهي تعريف الأساتذة الذين يضعون مناهج الدراسة ويؤلفون كتب اللغة العربية بأنهم رجعيون وتقليديون، وبأنهم يعيشون في عصور غابرة، وبأنهم يرتكبون جريمة بحق التلاميذ.

كتبت هذا المقال قبل ثلاثة أيام من عقد امتحان كبير سميته «الكفاءة النحوية وضبط النص». وقد تقدم إليه نحو خمسة وسبعين إعلاميًا. وعقد هذا الامتحان في أواسط إبريل / نيسان ٢٠١٥. ولك أن تتوقع أن يكون لهذا المقال ذيل^(١)

(١) ملحوظة تحريرية في إبريل / نيسان ٢٠٢٢: ذلك الذيل المذكور كان نتائج الامتحان، وقد نجح من الخمسة والسبعين مشاركًا أربعة أشخاص، خرجوا بإجازة بوصفهم مُدققين لغويين. وذلك الامتحان (الكفاءة النحوية وضبط النص) تكرر في كل سنة -عدا سنة ٢٠٢٠ أولى سنوات الوباء- وأصبح تقليدًا من تقاليد مركز تطوير الإعلام بجامعة بيرزيت. وهذا المقال «توفل عربي» وضع على موقع المركز ولم يناقشه أحد، ولا أظن أحدًا قرأه ... طويل ... لا ألوم.

للمؤلف

- قواعد اللغة العربية (عمّان: دار الشروق، ٢٠٠١).
- المسألة الفلسطينية (فلسطين: نشر ذاتي، ٢٠٠٣).
- الكتابة للراديو (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- زُبدة النحو (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠٠٤).
- موجز النحو (الدوحة: قناة الجزيرة، ٢٠٠٦).
- عزيزي المستمع (فلسطين: معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، ٢٠١٤).
- مفاوضات أوسلو / مترجم عن الإنجليزية (القدس - بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٤).
- غلط غلط: ٢٦٨ حديثاً إذاعياً، تم بثها من راديو أجيال، (فلسطين: راديو أجيال، ٢٠١٤).
- اللغة العالية (الدوحة: قطاع ضبط الجودة بشبكة الجزيرة، ٢٠١٤).
- حياتي في الإعلام (الدوحة: مركز الدراسات في شبكة الجزيرة، ٢٠١٥).
- سلسلة الزُبدة، أنطولوجيا الشعر العربي في خمسة أجزاء (القاهرة: دار المشرق، ٢٠١٦).
- الرخيصة والرخيص، قصص قصيرة (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠١٧).
- إعصار في الهلال الخصيب، رواية (بيروت: دار ثقافة، ٢٠١٨).
- العَروض: العلم اللّاعلم (السويد: دار صفحات، ٢٠٢٠).

هَكَذَا أَكْتُبُ

مجموعة مقالات موزعة بين التجارب التربوية، والإعلامية، والمغامرات اللغوية. كُتبت هذه المقالات على مدى نحو ثلاثين عامًا، ولم يُنشر أيٌّ منها في كتاب، وأكثرها لم يُنشر في أيِّ موقع.

عمل المؤلف في التعليم المدرسي والجامعي، وعمل في حقل الإدارة الإعلامية، وقدم برامج إذاعية وتلفزيونية. ومن وحي حياته العملية جاءت مادة هذا الكتاب.

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة

جمهورية مصر العربية

(+٢)٠١٠٤٤٤١٣٧٢

info@mdarat-rp.com

مدارات للأبحاث والنشر

ISBN 978-977-6459-50-2



9 789776 459502